أبو تمام

شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله

دراسة تحليلية

تأليف

عمر فروخ

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

بيروت
١٣٨٤ هـ
١٩٦٤ م

أبو تمام

شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله

دراسة تحليلية

تأليف
عمر فرّوخ

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

بيروت
١٣٨٤ ﻫ
١٩٦٤ م

١/٣٠٠٠/٥/٦٤

المحرّم ١٣٨٤
أيار (مايو) ١٩٦٤



سحى ڡى حلوق الحادب مسرق ــــه عرمه ڡى الرهب معرب

كأن له صعا على كل مسرق من الارص او سوفا الى كل معرب

فهرست الكتاب

الأدب

أو الإنتاج الوجداني الجيد

ما الإنتاجُ الوُجداني الجيِّد ؟

على هذا السؤال يدور علم النقد ، وعلم النقد نفسه يقوم على علم البلاغة ؛ والغاية من علم البلاغة أن نتبيّن الخصائص الفنيّة في الإنتاج الوجداني من النثر والشعر . وتَبَيُّنُ هذه الخصائص هو الذي يمكّننا من الوقوف على حسنات القطعة الأدبية وسيئاتها . وبهذه الحسنات والسيئات المجموعة من القطع الأدبية المفروضة نستطيع أن نميّز بين شيئين :

— بين القطع التي تستحق أن تُضاف إلى مجموع النتاج الوجداني المَرْوِيّ عن العرب منذ أقدم الأزمنة التي اتصلت بها الرواية ؛

— وبين القطع التي لا تبلغ في الجودة ، بحسب المقاييس التي في أيدينا ، إلى أن تدخل في تراثنا الأدبي .

ثم إذا نحن رجعنا البصر في خصائص القطع الأدبية التي حكمنا بأنها من الإنتاج الوجداني الجيّد، وجعلناها جزءاً من تراثنا الأدبي استطعنا أن نفضّل بعض هذه القطع على بعض .

والواقع أنه ليس في النتاج الأدبي قطع جيادٌ وقطع رديئة . إن التراث الأدبي يتألّف من قطع جياد فقط ، وليست القطع الرديئة من الأدب أصلاً . ولكن متى تُعدّ القطعة جيّدة ؟ وما أقلّ عددٍ من الخصائص نطلبه حتى نعدّ القطعة المفروضة أدباً ؟

نحن في زمن تكثر التآليف فيه في كلّ مكان وفي كل فن من فنون المعرفة الإنسانية . والإنتاج الأدبي . في كل مكان . أكثر فيضاً من سائر فنون المعرفة (من مثل الرياضيات والفلك والكيمياء والموسيقى وعلم الآثار) . والسبب في ذلك واضح . هو أن العلوم الرياضية والطبيعية وما يجري مجراها علوم موضوعية ذوات قواعدَ ثابتة مربوطة ببراهينها . فليس من الممكن في كلّ إنسان أن يهجم على التأليف فيها . إن المؤلف في هذه العلوم يَعرِف من تلقاء نفسه أين يقع الخطأ في ما ألّف أو جمع . أما في العلوم الإنسانية (في الأدب والاجتماع والفن الوصفي) فالمدار على الأحكام النسبية بالإضافة إلى المكان والزمان وإلى ثقافة المؤلف والقارىء . وهذه الأحكام تختلف عادة بين زمان وزمان . وبين مكان ومكان . ثم بين شخص وشخص في المكان الواحد والزمان الواحد . ان المؤلف يستطيع أن يجادل بالألفاظ المركّبة والحجج الشخصية عن إنتاجه الرديء في ما يسمّيه هو أدباً أكثر مما يستطيع أن يدافع عن عمله الرديء في العلوم الرياضية والطبيعية .

* * *

والمألوف في التعريفات أنها مقبولة على أنها «كلّ» غيرُ خاضع للتجزئة . نحن لا نستطيع أن نقول في الهندسة مثلا : «ان هذا المربع مستطيل قليلا» ، ذلك لأن الشكل الرباعي الأضلاع إذا لم يستوف شرط التربيع كاملا فإنه لا يسمّى مربعاً أصلا . وكذلك نحن لا نسمّي الشكل الهندسي دائرة (أو محيطاً للدائرة على الأصح) إلا إذا كان خطاً دائراً متّصلا تبعد جميع النقاط فيه عن نقطة داخلية واحدة مفروضة بُعداً واحداً . فاذا اضطرب هذا الخط أو انثغر في نقطة واحدة بطل أن يكون محيطاً للدائرة وعاد خطاً منحنياً فقط .

على أننا في العلوم الإنسانية لا نفعل ذلك عادة . إننا نقبل ، فيما بيننا ، أمثال هذه الجمل : فلان أديب من الطبقة الثانية ؛ فلان سياسي قدير ولكنه قليل الإخلاص ؛ فلان رسّام ولكنّه لا يحسن مزج ألوانه ! لقد كان علينا ألاّ نقبل أديباً من الدرجة الثانية ، وألاّ نعترف بسياسي قليل الإخلاص ، وألاّ

نقيرٌ لرسّامٍ لا يحسن مزج الألوان . ولكن بما أن البشر على درجات متفاوتة من الفهم ومن الاختبار ومن التثقيف ، فانهم يقيسون الجودة في الفنون الإنسانية بالاستعداد النسبي الذي في نفوسهم ثم يقبلون من تلك المحاولات الإنسانية ما يزيد في مستوى الجودة عمّا يستطيعون هم أن يصلوا إلى مثله . فالتسميات التي يخلعها هؤلاء على المحاولين للعلوم الإنسانية (من أمثال : أديب أو شاعر ، خطّاط أو رسّام ، مؤرّخ أو عالم اجتماعي ، سياسي أو اقتصادي) إنما هي تسميات بالنسب والإضافات إلى أنفسهم هـــم وإلى ما يحسنون من فنون المعرفة وما لا يحسنون . وليست هي تسمياتٍ ذاتيةً في تلك الفنون نفسـها .

أما الأحكام الهندسية فانها مقيسَةٌ بقواعدَ بديهيةٍ أو قابلة للبرهان في الأشكال الهندسية نفسها . هذه القواعد جُمعت في أيامِ اقليدس ، منذ اثنين وعشرين قرناً ، ولا تزال إلى اليوم لم تتبدّل ولم يخطر في بال أحد أن يبدّلها (فيما يتعلّق بالهندسية الإقليدية) . أما الذي تبدّل منها فعلا (كجواز التقاء المتوازيين في اللانهاية) فقد بطل أن يكون من هندسة أقليدس ثم أصبح تابعاً لفن قائم بذاته (هو النظرية النسبية) .

* * *

سيقول آخرون من الناس : « انك ، يا فلان ، تريد أن تنظر إلى الشعر على أنه ذو قواعد كقواعدِ الرياضيات والطبيعيات ! » يجب أولاً أن نصحح لهؤلاء الناس جملتهم التي ساقوا فيها اعتراضهم : إن الذي أريده هو أن يكون للشعر في نطاقه هو قواعدُ كقواعدِ الهندسة في نطاق الهندسة ، وكقواعد الكيمياء في نطاق الكيمياء ، وكقواعد النسيج في نطاق صناعة النسيج .

ان الإجادة المقدّرة بأصول ثابتة من العلم هي السبيل للحكم على الإنتاج الوجداني : هذه الإجادة في نظم الشعر هي التي تجعل من صاحب ذلك الإنتاج شاعراً ، فاذا لم تتوفّر له الإجادة الصحيحة المقيّدة بالأصول العلمية فهو بعْدُ ناظمٌ فقط .

لنرجعْ الى حديث النقد الأدبي .

ان القطعة المفروضة في الإنتاج الوجداني تكون من التراث الأدبي :

١ — إذا كانت ألفاظها ملائمة لمعانيها المقصودة . سهلة المخارج من أجزاء الفم . عذبَة الوقْع في الأذن . مألوفةً عند جمهور المثقفين .

٢ — إذا كانت تراكيبها صحيحة منطبقة على القواعد المقبولة في اللغة المروية من حياة الأمة في النطاق الوجداني والمدى الاجتماعي .

٣ — إذا كانت تعالج غرضاً من الأغراض الملابسة لحياة الأمة . ثم كان ذلك الغرض . في زمن إنتاج القطعة الأدبية المفروضة . مُلابساً أيضاً لعاطفة صاحب تلك القطعة ومُداخلا لجانب من جوانبِ تفكيره . في هذه الحال يصبح صاحب تلك القطعة . في قطعته تلك . ممثلا لعبقرية قومه ومصوّراً لحياتهم في إطارٍ أدبي يؤثر في النفس الإنسانية خاصة وعامة .

٤ — إذا كان فيها صناعة فنّية من اللجوء إلى أوجه البلاغة المختلفة حتى يُضفيَ ذلك عليها عنصراً من الخيال يُجسّم حقيقتها في الأذهان ويصل بالأثر المطلوب من إنتاجها إلى أفهام الكثْرة المطلقة من قوم صاحبها — على صور حقيقية أو متخيَّلة — وذلك على الرُّغم من اختلاف درجات الاستعداد الشخصي في أولئك القوم ومن اختلاف درجات التثقيف التي هم عليها . ان الصور البلاغية في القطعة الوجدانية هي التي تُدخل تلك القطعة في إطار التراث الأدبي .

٥ — إذا كان فيها نَفاذُ بصيرةٍ . وكانت الآراء التي فيها توافق الواقع وتساير الاختبار الإنساني في تطوّره الخاص (في قوم صاحبها) أو في تطوّره العامّ (في معظم الأقوام) .

٦ — أن يكون فيها شعور يسمو على شعور سائر الناس في ناحية واحدة من النواحي على الأقلّ ؛ حينئذ تستطيع عين صاحبها أن تكتشف في الموضوع المادّيّ الذي تصفه ، كما يستطيع فكر صاحبها أن يلمح في الموضوع المجرّد الذي يعالجه . ما لا يستطيع غيره أن يكتشفه أو أن يلمحه بنفسه . بهذا ينفرد صاحب القطعة الوجدانية عن كثيرين من أنداده ويصبح خليقاً باسم أديب .

٧ — أن يكون فيها وعي للصناعة الآلية فلا يفارق صاحبها الأصول التي يسير عليها أهل تلك الصناعة . وكذلك يجب أن يكون فيها استواء في العمل الفنيّ فلا يكون فيها تفاوتٌ أو اختلاف في مراتب الجودة ، أو أن يكون فيها اضطراب يخرج بها عن حد الجودة .

٨ — أن يكون صاحبها مُلمّاً بالفنون المتصلة بفنه المخصوص . إن الشاعر مثلا « ليس مزخرفَ جُمَلٍ بالكلمات » ، ولكنّه صاحب صناعة يتناول أغراضها من طريق الحياة ، فعلى الشاعر أن يكون ملمّاً بجوانب الأغراض التي يتناولها في شعره . ليس من الضرورة أن يكون الشاعر عالماً بالفلك والتاريخ ، ولكنّ عليه إذا تناول غرضاً من الفلك أو التاريخ : أو إذا هو مسّ ذلك الغرض مسّاً ، أن يكون ملمّاً بذلك الغرض على الأقلّ فلا يأتي به على غير وجهه فيفسدَ الصورةَ الشعرية التي يريد أن يحملها إلى أذهان الناس أو يُعمّيَها على أفهامهم .

٩ — أن يكون فيها رسالة يشعر الاديب أنه يؤدّيها على وجه من الوجوه المحمودة ، ذلك لأن لكلّ عمل — في نطاق عالم الإنسان وفي نطاق عالم الطبيعة الجامدة أيضاً — غايةً تجعل الإنسان يدرك في نفسه على الأقل أنه قد أصبح بعدَ عمله هذا أفضل مما كان من قبل . والمقاييس التي تُقوّم هذه الرسالةَ مأخوذة من حياة المجموع الصغير الذي يعيش فيه الأديب ثم من حياة المجموع الكبير الذي يعيش فيه قوم ذلك الأديب .

١٠ — أن يكون فيها أسلوب خاص هو الأسلوب الذي يتميّز به صاحبها في تاريخ التراث الأدبي . إذا كان ناظم الشعر يطبع ما ينظمه على أساليب غيره ثم لا يخرج بعد ذلك بأسلوب خاص به نعرف به أشعاره عند تطبيق أصول النقد . فليس خليقاً أن يقال له شاعر ، لأنه يكون عندئذ صورةً لشاعر آخر هو أحق منه بهذا الاسم .

وهنا يعترض النفر الآخرون من الناس مرّة ثانية فيقولون :

ولكن . ما مقام العنصر الإنساني والطابع الشخصي في الأدب ؟

وأنا هنا أيضاً أحب أن أصحح الجملة التي سيق فيها الاعتراض الثاني ؛ انهم يقصدون أن يقولوا : ما قيمةُ الاختبار الفردي في الأدب ؟ إن هذا الاختبار الفردي لا قيمةً له أبداً ما لم يندرج في جانب من جوانبه على الأقل في القاعدة الثالثة من القواعد العشر السابقة .

حينما نقول : « غابة » . فاننا نعني شجراً كثيراً من نوع واحد نابتاً نباتاً طبيعياً أو نباتاً صناعياً قديماً . فاذا رأينا رجلاً قد زرع في حديقة بيته شجرة أو عشر شجرات أو أقل من ذلك أو أكثر ، فاننا لا نسمّي تلك الشجرات « غابة » !

الرجل الذي نظم قصيدة واحدة لا نسمّيه شاعراً . والمقطوعة الطويلة التي يرد فيها بيت جيّد أو بيتان جيّدان لا نسميها قصيدة . حتى الجُمَلُ التي تأتي عفواً على أحد أوزان الشعر . فانّنا لا نسميها أبياتاً .

وكذلك حينما تخطر لرجل صورة غامضة ثم يعبّر عنها تعبيراً غامضاً (إذ لا يمكن أن يكون التعبير عن الصورة الغامضة إلا تعبيراً غامضاً) أو تعبيراً يدّعي هو أنه يفهمه ، ولكن لا يفهمه أحد سواه ، حتى أولئك الذين رُزقوا حظاً من الفهم والعلم ؛ فاننا لا نستطيع أن نعد هـذا التعبير من الأدب بحجة أن صاحبه قد توهّم أنه بتعبيره الغامض عن الصورة الغامضة في ذهنه ينتج أدباً .

ان هذا الكلام يقودنا إلى سؤال واضح :

ما موقف النقد العربي من قسم من الإنتاج الوجداني الحديث الذي يسمّيه أصحابه شعراً ؟

يجب أن أبدأ جوابي هنا بملاحظتين :

(أ) في الشعر العربي منذ الجاهلية قوم ادّعوا الشعر ولم يقرّ لهم أحد بذلك (كما أن نفراً من الناس ، منذ أيام اليونان الإغريق ، قد ادّعَوْا أنهم كانوا علماء في الكيمياء ، وأنهم كانوا قادرين على أن يحوّلوا المعادن الخسيسة كالرصاص والنحاس إلى معادنَ شريفة كالفضة والذهب ، ولكننا نحن لم نُقرّ لهم بذلك . فلا دعواهم المعرفة بصناعة الكيمياء ولا ورود ذكرهم في كتب

العلم والتاريخ كان مبرراً لأن يجعل منهم علماء كيماويين) . فهؤلاء الذين يطبعون الكلام على شكل الشعر لن يُسَمَّوا شعراءَ كما لم يُسمَّ أولئك الذين ادّعوا علم الكيمياء كيمائيين !

(ب) في عالم الطبيعة أمثلةٌ أو نماذجُ للموجودات ؛ وأعيان الموجودات تتكرّر في عالم الطبيعة على تلك الأمثلة لا يفارق كل نوع مثاله المخصوص به في العادة. غير أنه قد يطرأ طارىء على نوع من الموجودات فيُخرجُ (ذلك الطارىء) من أحد أصول ذلك النوع فرعاً أسمى من أصله . من هذا الجنس العباقرة . وفي أحوال كثيرة يطرأ الطارىء فيَخرجُ فرعٌ أدنى في سلّم التطور الطبيعي من أصله فيكون في العالم أولئك المشوّهون . وسواء أكان التشويه ظاهراً أو غير ظاهر — وهو مظهر لقاعدة طبيعية ليس للإنسان يد فيها — فان آثاره تكون دائماً ظاهرة . هذه الآثار الجديدة والغريبة على كلّ حال تَمثُلُ أمام عيون الناس ؛ وكلّما كان الإنسان أقرب في التشويه الباطن في نفسه إلى تلك الصورة الشوهاء ، اتّسقت تلك الصورة الشوهاء مع نفسه . وإلا فكيف نفسّر عمل الرجل الذي يمر بصورة من ريشة روفائيل أو بتمثال من إزميل ميكالانجيلو فلا يُلقي إلى أحدهما بالاً ثم هو يدفع ألوفاً ومئات الألوف ثمن قطعة من النسيج عليها خطوط ولَطَخات من ألوان متنافرة ليعلّقها في مكان من بيته قريب من عينيه . لا ريب في أن النتاج المشوّه في الفن والصناعة وفي النثر والشعر نتيجة لتشويه في نفس صاحبه (وأحب من القارىء أن يحمل كلمة التشويه في هذا الفصل من الكتاب على الدلالة على اختلاف أحد الفروع عن الصورة المخصوصة بأصله لا على المعنى الذي يحمل تجريحاً) .

لما قال مسلم بن الوليد في وصف الخمر :

سُلّتْ فسُلّتْ ثم سُلّ سليلهـــا ... فأتى سليلُ سليلِها مسلولا ،

قال له زميله وصديقه أبو نواس : « والله ، لو وقفتَ عارياً في الأسواق تَرجُمُ الناس بالحجارة لكان ذلك أحسنَ لك من هذا ! »

وكلّ الناس تمر بهم غفَلاتٌ من التشويه ، كما اتّفق لمسلم بن الوليد .

وقد وقع في مثل ذلك أيضاً أحمدُ شوقي لما قال في ملوك مصر من الفراعنة :

وتاجٍ من فرائده ابن سيتي ، ومن خرزاته خوفو ومينا !

ولم يفطن إلى أن لفظة « خرزاته » قبيحة ، على الرغم من أنها وردت في الشعر الجاهلي في قول القائل « خرزات ملكٍ » .

غير أن هذا التشويه اليسير العارض يُوجِبُ النقد على اللفظة والبيت ولا يوجب الحكم على الشاعر .

ولكننا أحياناً نجد مثل هذا التشويه في بعض الإنتاج الوجداني وُكْداً وُمتكأ لا يكاد صاحبه يتخلّص منه (من التشويه) ؛ فحينئذ ننتقل من النقد على اللفظة والبيت إلى الحكم على الشاعر . ومن الإنصاف أن نقول إن أصحاب هذا الجنس من القول يحبون أن يعبّروا عن آرائهم وعن الصور التي في أذهانهم رمزاً . إلا أن الرمز نفسه ، وهو الاستعارة البعيدة المتطرّفة ، يحسن في الجملة بعد الجملة أو في البيت بعد البيت ، ثم في القطعة بعد القطعة أو في القصيدة بعد القصيدة . وأما أن تكون القصيدة مرصوصةً بالمرامز (أو الاستعارات البعيدة المتطرّفة) فأمر خارج عن سنّة العرب وعن منهاج العقل جملة . وأحب أن أذكر هنا أن كلمة « مشوّه » ليست اختراعاً لي . ولكنّهم في اللغة الألمانية يطلقون على طريقة الرسم التي تخالف السنّة المألوفة في الرسم (التي لا تحاول النقل عن الطبيعة ولا تحسين الطبيعة ، بل تكتفي بأن يلقي الراسم على النسيج الصورةَ كما تتراءى لـــه في خيالـــه المعوجّ) اسم « الفن المشوّه » Entartete Kuenst ، ويذكرون (أو كانوا يذكرون في أيام الحكم النازي) أن هذه الطريقة من صنع اليهود حتى يشوّه اليهود أذواقَ الشعوب في الفن كما شوّهوها في السياسة والاقتصاد .

كنت مرة في المكتبة فوقفت أمام قسم الدواوين ثم تناولت منها بضعة دواوين تسمّى حديثة وقلّبت صفحات بعضها تقليباً يسيراً ، من غير أن أقصد التقصّي والتفتيش . وأكتفي من كلّ ما قرأت بالكلام التالي (ولا أحسبه أكثر الأقوال تطرّفاً واعوجاجاً) :

نبأ عن شعة أمرعت
في الثنايا نبأ نضر
نبأ عن ميسة الأرض في
سوقها والله يفتكر .

° ° °

لا ضرورةَ إلى ذكر صاحب هذا الكلام لأن المقصود هنا « ما قيل » لا « من قال » . قد أُعْمِلُ أنا فكري ، أو تعمل أنت فكرك ، في استجلاء المعنى الذي قصده صاحب هذا الكلام ثم نصل إلى ما قصد أو إلى قريب مما قصد . ولكنْ من احترام العقل أن نوفّره لمهام غير هذا الكدّ في ما لا طائلَ تحته ولا جدوى منه ولا فائدة فيه ولا معوّل عليه ولا نفع معه ثم لا سبيل إليه .

° ° °

ونخص الآن أبا تمام بكلمة ، ما دامت هذه الملاحظات ستكون مقدّمة في دراسة لحياته ولشعره .

أبو تمّام شاعر على المذهب الشامي مغرم بالتصنيع (تكلّف أوجه البلاغة) وقل أن أخلى بيتاً (تركه بلا وجه من أوجه البلاغة) ، ثم هو كان يغوص على المعنى البعيد ويسوقه أحياناً في اللفظ العَسِر ثم يُثقله بالتكلّف اللفظي. غير أن أبا تمّام كان جادّاً في ما يفعل . وهو لم يفارق في ذلك مألوف العرب . وكثيراً ما كنت أنا أستغرب اللفظة في شعره فأرجع إلى القاموس فأرى أنه قد استعمل تلك اللفظة في المعنى الذي هو لها في وضعها اللغوي في أيامه أو قبل أيامه . ومع ذلكَ فان النقّاد قد حملوا عليه من أجل هذا التطرّف القليل حملاتٍ كثيرةً وتحاملوا عليه ثم حملوا عليه من اللوم فوق ما يحتمله ذنبه في ذلك . وبعد فان لأبي تمّام كثيراً مألوفاً أحسن فيه إلى جانب ذلك القليل المتطرّف الذي أساء فيه .

من أجل هذا لا نرى المسلك إلى ديوان أبي تمّام أيضاً سهلا ، ولا النظر فيه هيّناً . اننا نحتاج في تفهّم شعر أبي تمّام عادة إلى دورة عقلية لا تستقرّ على معنى

من معاني أبي تمّام الخاصة قبل أن تستعرض ما تستوعبه من اللغة والاجتماع والفلسفة والأدب . ثم لا يفي ذلك بما تريد فترجعُ أدراجك لتستأنفَ النظر في الاستنباط والتخريج . فاذا أنت فعلت ذلك كلّه كنت أمام شعر أبي تمّام حبيب بن أوس كما قال ابن الرومي في وحيدَ المغنّية :

فَهِيَ العيشُ ما يزال متى استُعْـ . . . . . .ـرِضَ يُملي غرائباً ويَزيد !

ويلاحظ القارىء أنني قد تبسّطت في شرح الأبيات ، سواءٌ منها تلك التي هي من باب الاستشهاد في أثناء الدراسة وتلك التي جُمعت في المختارات . وذلك ، فيما رأيت ، لسببين :

السبب الأول : ان هذا الكتاب سيقع بين أيد كثيرة ، كما هي الحال في شأن كل كتاب . فاذا كان الأدباء والمعتنون باللغة والأدب سيجدون فيه عدداً من الشروح هم في غنى عنها ، فان هذه الشروح ستكون مفيدة جداً للناشئين في الأدب وللذين هم على عتبة الدراسة فيه .

السبب الثاني : ان شعر أبي تمّام في ذاته يحتاج إلى عدد من الشروح : الكلمات التي تحتاج إلى الشروح في شعر أبي تمّام كثيرة ، والتراكيب والمدارك وأوجه البلاغة والاشارات التاريخية كلّ هذه تحتاج في ديوان أبي تمّام إلى شروح وتحتاج أحياناً إلى تبسّط في الشرح .

ومع أن الأبيات المستشهد بها في ثنايا الدراسة ، مع اعتبار المكرّر منها أو التي ليست لأبي تمّام أيضاً ، لا تنقص عن ثلاثمائة بيت ، فانني قد ألحقت بهذه الدراسة خمس قصائد تامّة تقرب أبياتها من مائتين وخمسين بيتاً .

ولقد حَرَصت على أن تكون هذه القصائد المختارة تامّة لأنها في الدرجة الأولى قصائد لأبي تمام مشهورة جداً ، إن لم تكن أشهر قصائد أبي تمّام كلّها . ثم ان أبا تمام يتصرّف في أثناء القصيدة تصرّفاً مختلفاً . فلا يستطيع الدارس أن يستجلي خصائصه تامّة في القصيدة إلا إذا كانت تلك القصيدة أمامه تامّة . لقد كان من الضروريّ ، على هذا الأساس، أن يكون أمامنا ديوان أبي تمّام كاملاً (كما يحسن أن نفعل ذلك في دراسة كل شاعر آخر) ، ولكن لا بد في كلّ

دراسة من الاختيار والتخيّر ، ثم ان القارىء يستطيع ، إذا أراد ذلك أو إذا احتاج إليه ، أنْ يَرْجِعَ بنفسه إلى الديوان فيبلغَ ما شاء من أمنيته .

وبعد ، ان شعر أبي تمّام في الحقيقة مُتعة للعقول المثقّفة بمعانيه وبصناعته اللغوية . وأنا لا أنكر الطريق الوعر الذي يُجهِدُ القرّاءُ فيه أنفسَهم إذا أرادوا أن يتنزّهوا في هذا الفردوس الغريب . ثم أنّ ما نراه اليوم من هذا الأدب الخفيف الذي يُدفع إلى الأسواق في الأغلفة الملوّنة يقتضي أن يُوازَن بدراسات لشعراءَ من نمط أبي تمّام . لقد قيل منذ زمن بعيد : أن السكّر مادة حلوة لذيذة في الفم وفيها أيضاً شيء من الغذاء ، ولكنّه لا يكفي لحفظ الحياة .

ان الأدب الإنشائي اللمّاع قد يفيد في استجلاب النعاس قبل وقت النوم الطبيعي عند نفر من الذين اضطربت طبيعة النوم فيهم ، وقد يدغدغ خيال الذين يحبّون أن يَحْيَوْا على مائدة خيالهم وعلى الانفعال في أعصابهم أو بتحديث أنفسهم بالأمانيّ التي لا يستطيعون أن يحقّقوها في حياتهم العادية ، ولكنّه لا يصلح للذين استوت فيهم الطبيعة الإنسانية وملكوا أعصابهم في يقظتهم ومنامهم وروّضوا خيالهم على الاحتكاك بحقائق الحياة . ان الذين يريدون أن يدخّنوا لفافة من الأدب حتى يُغرقوا همومهم الكبيرة عندهم هم ، والتي لا قيمةَ لها في حقيقتها هي ، لن يصبروا على قراءة هذا الكتاب لأنهم لا يستطيعون الصبر على شعر أبي تمّام وعلى الشعر الذي هو من نَجْرِ شعر أبي تمّام. يكفي هؤلاء — إذا كانوا يصرون على موقفهم من الأدب ومما هو الأدب — أن يكتفي أحدهم ببضعة أبيات من الأبيات المشهورة لعمر بن أبي ربيعة أو لأبي نواس وألا يجاوزوا هذه الأبيات إلى غيرها أيضاً . يجب نحن أن نذكر أن الكفاح هو قانون الحياة ، وأن « الأجر على قدر المشقّة » أساس صحيح لمواجهة الحياة . ان الذي يعرف خمسمائة كلمة من لغة قومه لا يستطيع أن يدرك من حقيقة أدبهم وجماله ما يدركه الذي يعرف عشرين ألفاً . والذي لا يعرف إلا لغة واحدة لا يستطيع أن يدرك الحقيقة والجمال في عقليات الأقوام المختلفين كالذي يعرف لغتين أو ثلاث لغات .

ان العقل لا يعرف المذاهب الاشتراكية المألوفة عند الذين لا يعرفون حقيقة الاشتراكية . نحن نستطيع أن نوزّع على المحرومين ، وعلى غير المحرومين أيضاً . خبزاً ولباساً وأراضيَ وبطاقات لحضور الحفلات التمثيلية ولركوب الطائرة . ولكننا لا نستطيع – مع الأسف – أن نوزّع تذوّقاً أدبياً وإدراكاً عقلياً وثقافة فنّية على الناس ، ولا نحن مستطيعون أن ننقل ما نملكه أحياناً من هذه إلى أولادنا كما ينقل الأغنياء أموالهم وأملاكهم وأمجادهم الدنيوية إلى وارثيهم . لا سبيل لك إلى فهم الهندسة إلا إذا درست الهندسة كما يجب أن تُدرس الهندسة ، وكذلك لا تستطيع فهم الشعر إلا إذا درست الشعر كما ينبغي أن يُدرس الشعر . ان الطبيب قد يضع لك الدواء في غلاف من السكّر : إن عمل السكر في غلاف الدواء أن يقنعك بأخذ الدواء ؛ وأما الذي يشفيك فهو الدواء نفسه . أما إذا كنت تستطيع أن تأخذ الدواء المرّ بلا غلاف من السكر فاعلم عندئذ أنك لستَ مريضاً ، لأن المريض هو الذي لا يمكن أن يبرأ من مرضه .

أريد أن أقف هنا عن ضرب الأمثلة وأن أتقدم معك إلى دراسة أبي تمّام على الأسلوب المألوف في الدراسات الأدبية التي ترمي إلى كشف جانب من الحياة الإنسانية أو تثبيت حقيقة من الحقائق الفكرية . وأنا على مثل اليقين أن في الفائدة الحقيقية متعةً حقيقية أيضاً .

٣ – ٥ – ٦٤

أبو تمّام

جاسم

كان على يمين الطريق الأعظم الذي كان يمتدّ بين دمشق وطبريّة بلدة صغيرة تدعى جاسم. هذه البلدة كانت تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ، كما ذكر ياقوت[1]. وهي من كور حوران في كورة الجولان أو الجيدور؛ والجولان والجيدور كورة واحدة. وزاد المقدّسيّ في التفصيل فقال[2]: «وتأخذ من دمشق إلى الكسوة بريدين، ثم إلى جاسم مرحلة، ثم إلى فيق مثلها، ثم إلى طبرية بريدا»[3].

ويبدو أن جاسم هذه هي التي كانت تقع على الدرجة الأربعين من خطوط الطول وعلى نحو الدرجة ٣٦ والدقيقة ٤٠ من خطوط العرض. على أن هذه تبعد عن دمشق مسافة تختلف عمّا قدّره ياقوت كثيراً[4]. ثم اننا لا ندري ما قصد الأصفهاني بقوله[5] عن أبي تمّام: «إن مولده ومنشأه بناحية منبج بقرية

---

(١) ياقوت ٢ : ٨

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٨٧٧) ، ص ١٩٠ .

(٣) هذه مسافات تعرف بالتقريب (راجع تاج العروس ٢ : ٢٧٢، ٢٩٨).

(٤) انظر موقع جاسم على الخارطة في :

Al - Muqaddasi, Blanches VIIa et VII b (pp. 160 - 161).

تقع جاسم على نحو ٣٢ كيلومتراً من فيق ، وعلى نحو ٧٥ كيلومتراً جنوب دمشق ، وعلى نحو ٣٥ كيلومتراً شمال أذرعات .

(٥) الاغاني ١٥ : ٩٦ (بولاق)

يقال لها جاسم » . ألعل هنالك غير منبج التي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب ، أم أنّ هنالك غير جاسم التي تقع في حوران ، إلى الجنوب الشرقي من دمشق ؟ أو لعلّ الأصفهاني وَهِمَ فأراد أن يجعل مولد أبي تمّام قريباً من مولد تلميذه البحتري ، والبحتري كان مولده في منبج[1] .

وكان أهل أبي تمّام ينزلون بجاسم وبعيجاء ؛ وعيجاء أيضاً من قرى حوران[2] .

في جاسم

كان رأس الأسرة التي خرج منها أبو تمّام رجلاً نصرانياً اسمه تدوس العطّار[3] . ولهذا الاسم قراءات مختلفة : تدوس ، تدرس ، ندوس الخ ؛ لعلّ أقربها إلى الصواب ثَدّوس (ثاذوس) المجزوءة من ثيودوسيوس اليونانية في الأغلب[4] . وهكذا يبدو أن ثدوس هذا كان من الجالية الرومية (اليونانية ، البيزنطية) التي كانت في الشام (سورية) قبل الفتح الإسلامي ؛ أو أنه جاء إلى الشام بعد ذلك .

وينكر نجيب محمّد البهبيتي[5] أن يكون أبو تمّام يوناني الأصل ثم يرى أنّه عربيّ صريح . أما نصرانية أبي تمّام فلا يستغربها البهبيتي في أول الأمر ، لأن أبا تمّام — فيما يرى البهبيتي — نشأ في طيّء ، وطيّء عنده « هذه القبيلة الوثنية النصرانية اليهودية المسلمة ذات الاتّصال الوثيق بالفرس والروم في الجاهلية

---

(١) ياقوت ٣ : ٧٥٠ .

(٢) ياقوت ، تحت عيجاء (طبعة مصر ٦ : ٢٤٥)

(٣) أخبار أبي تمام ٢٤٦ ؛ وفيات ١ : ٣٣٤ .

(٤) كما قرأها مرغوليوس (Enc. Isl I 109) ؛ أو ثديوس ، كما قرأها رتر (Enc. Isl. new ed. I 153) ثم راجع GAL I 83 — ونحن اليوم نقول « قسطة » مجزوءة من قسطنطين ، وثيو مجزوءة من ثيودوسيوس . وفي القاموس (٢ : ٢٢١) : سدوس (بضم السين وفتحها) رجل طائي .

(٥) أبو تمام الطائي ، الصفحة (و)

والإسلام »[1] . بعدئذ يصرّ البهبيتي على نسبة أبي تمّام إلى طيّء دماً وولادة، ويرى أن نصرانية أبيه لا تتعارض مع طائيّته ، وهو يعتذر عن ذلك بقوله[2] : « فقد رأينا من قبل كيف كانت النصرانية في طيّء وكيف بقيت فيهم بعد الاسلام » . وأخيراً ، بعد أن يجادل البهبيتي في عشر صفحات كبيرة عن نصرانية أبي تمّام وطائيته يعود فينكر أن يكون أبو تمام أو والده نصرانيين ويقول[3] : « ودعك من نصرانية أبيه ، فما كانت الا من افتراء خصوم أبي تمام » .

ان البهبيتي ، في ذلك كله ، قد بذل جهداً مُضيّعاً : لقد أراد أن يغمس قبيلة بأسرها في النصرانية وفي الحضارة اليونانية ، قبل الاسلام وبعده ، ليزيد شخصاً واحداً في العرب/ وبعد فإنه نقض بعد صفحات ما كان قد غزله. ثم إنه لم يفعل أكثر مما كان الاب لويس شيخو اليسوعي قد حاول فعله قبل نصف قرن من الزمن[4] .

مولده

ولد ابو تمام حبيب بن ثدوس العطار في الثلث الاخير من القرن الثاني للهجرة . وقد روى الانباري عن تمام ابن الشاعر[5] ان ذلك كان سنة ١٨٨هـ ؛ وعدّد ابن خلكان[6] غير عام ١٨٨ اعوام ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩٢هـ .

اما ابن عساكر فاعتمد[7] السنة ١٨٨ وشك في السنة ١٩٠ ؛ والتاريخ الاول احسن انتظاماً في ترجمة ابي تمام ، وأكثر اتساقاً مع حوادث حياته .

---

(١) أبو تمام الطائي ٢٨ .

(٢) مثله ٢٩.

(٣) مثله ٦٢ .

(٤) شعراء النصرانية بعد الاسلام ٢٥٦-٢٥٩ .

(٥) نزهة الالباء ٢١٤، ٣٢٥ .

(٦) وفيات ١ :١٥٢ ؛ مطبعة الوطن ١ : ٢١٧ .

(٧) تهذيب التاريخ الكبير ٤ :١٨، ٢٦ . راجع في مولد ابي تمام ايضاً اخبار ابي تمام ٢٧٢ ؛ هبة الأيام ٩ ؛ ياقوت ٢ :٨؛ اعيان الشيعة ١٩ : ٤ الخ.

في دمشق

ثم بدا لثدوس العطار – لسبب من الاسباب – ان يترك جاسم وينتقل الى دمشق . فلما نزلها افتتح حانوت خمر – صنعة كانت محصورة في غير المسلمين وغير العرب – وارسل ابنه حبيباً يشتغل عند حائك (وفي رواية قزّاز – بائع قز وهو الحرير) .

نشأ حبيب وشب في دمشق ، ورأى فيها قوماً يحنون عليه . فلما بلغ سناً تقرب من سن الرشد ، وبدأت مواهبه بالظهور اعتنق الاسلام واصبح شديد الحماسة في الدفاع عنه ، واشد حماسة في مهاجمة اعدائه . ويكفي ان تلقي نظرة واحدة على قصائده في مدح الخلفاء لتعلم ان اسلامه كان وطيداً متيناً ، وانه لم يعتنق الاسلام حباً في اجتذاب الدنيا اليه[1] . ويلوح لنا أنه اسلم وحده وبقي اهله على دينهم ، كما يلاحظ في قوله[2] :

نأيت ، فلا مالاً حويتُ ، ولم أقِم فأمتعَ ، اذ فُجِعت بالمال والاهل[3] .

بخلتُ على عِرضي بما فيه صونُه رجاءَ اجتناء الجود من شجر البخل .

عصَيت شبا حزمي لطاعة جيرة دعتني الى ان افتح القفل بالقُفل[4] .

ويلفت من نظرنا ورود كتاب عليه بنعْي أحد اهله ، وكان ذلك الكتاب

---

(١) أمراء الشعر ١٤٤ .

(٢) ديوان خ ٤٢١ .

(٣) كان من الاحزم أن أبقى مع أهلي ، ولكنني فارقتهم (سافرت الى مصر) وأنا اطمع بنيل الغنى من أيد بخيلة .

(٤) عصيت شبا (حد) حزمي (أي : تخليت عن إرادتي في متابعة السفر) لطاعة جيرة (تنفيذاً لرغبة أهلي) الى أن أفتح القفل (أتغلب على الصعاب وأنال الغنى) بالقفل (بالرجوع الى بلدي) . – ورد التعبير « أفتح القفل بالقفل » بضم القافين في شرح الخياط (ديوان خ ٤٢١) ، وشرح شاهين عطية (بيروت ١٨٨٩ ، ص ٣٧٧) وعند البهبيتي (أبو تمام الطائي ٨٩) ، ولم أجد لذلك وجهاً فاخترت أن أجعل القفل الاولى بالضم بمعنى الاداة من الحديد يغلق بها الباب (كناية عن الصعاب وانسداد باب الرزق) وأن أجعل الثانية بالفتح من قفل قفلا وقفولا بمعنى رجع .

موشحاً بالسواد[1] . ثم ان ابا تمام غير اسم والده فجعله « اوساً »[2] ، فما يدرينا اذا كان قد غير اسمه هو ايضاً ؟

في حمص للمرة الأولى

وكان لا بد لأبي تمام من التخرج في فنه ، فذهب الى حمص حيث بدأ حياته الشعرية في مدح اسرة عُتبة بن ابي عبدالكريم الطائي . وكان عبدالكريم شاعراً فقضى ابوتمام أيام تخرجه في جانبه . وكان في حمص ايضاً شاعر أبعد شهرة من عبدالكريم الطائي هو عبدالسلام بن رَغبان المعروف بديك الجن الحمصي[3] ، فأخذ عنه وتأثر به الى حد بعيد .

احتذىَ ابوتمام شعر ديك الجن فاكتسب منه الصِّناعة اللفظية وسار بها شوطاً بعيداً حتى نسبت اليه ، وحتى قال النقاد : ان ديك الجن يتبع مذهب ابي تمام[4] ، بدلاً من قولهم : ان ابا تمام يقتفي مذهب ديك الجن .

ولعل أبا تمام اكتسب من ديك الجن شيئاً آخر هو مذهبه العلَوي ، لأن عبدالسلام كان يتشيع تشيعاً حسناً ، ولكنه لم يتأثر بشعوبيته[5] ، وأخذ عنه أيضاً الإجادة في الرثاء[6] .

وفي حمص أيضاً انتسب أبو تمام — في الأغلب — إلى طيء بالولاء ، فقيل « ابو تمام الطائي » ، فان غير العربي إذا أسلم — كما هو معروف في التاريخ — انتسب بالولاء إلى قبيلة عربية ، أو بيت عربي ، أو أسرة عربية . ولقد كان ابو تمام مقيماً في حمص مكرماً لدى الطائيين بني عبدالكريم يأخذ من جودهم ومن أدبهم فكان من أجل ذلك خايقاً أن يُنيط بهم ولاءه ، ويؤثرهم على من

---

(١) ديوان ١٤٣ ، ديوان س ١ : ٣٩٣ .
(٢) اخبار أبي تمام ٢٤٦ .
(٣) غ ١٢ : ١٤٢–١٤٩ (بولاق) ؛ طبعة دارالكتب ١٤ : ٥١–٦٨
(٤) مثله ١٢ : ١٤٢ ، سطر ٦ .
(٥) مثله ، راجع ١٢ : ١٤٢ ، سطر ٣ .
(٦) العمدة ٢ : ١١٩ .

موشحاً بالسواد[1] . ثم ان ابا تمام غير اسم والده فجعله « اوساً »[2] ، فما يدرينا اذا كان قد غير اسمه هو ايضاً ؟

في حمص للمرة الأولى

وكان لا بد لأبي تمام من التخرج في فنه ، فذهب الى حمص حيث بدأ حياته الشعرية في مدح اسرة عُتبة بن ابي عبدالكريم الطائي ، وكان عبدالكريم شاعراً فقضى ابو تمام أيام تخرجه في جانبه . وكان في حمص ايضاً شاعر أبعد شهرة من عبدالكريم الطائي هو عبدالسلام بن رَغبان المعروف بديك الجن الحمصي[3] ، فأخذ عنه وتأثر به الى حد بعيد .

احتذىَ ابو تمام شعر ديك الجن فاكتسب منه الصِّناعة اللفظية وسار بها شوطاً بعيداً حتى نسبت اليه ، وحتى قال النقاد : ان ديك الجن يتبع مذهب ابي تمام[4] ، بدلاً من قولهم : ان ابا تمام يقتفي مذهب ديك الجن .

ولعل أبا تمام اكتسب من ديك الجن شيئاً آخر هو مذهبه العلَوي ، لأن عبدالسلام كان يتشيع تشيعاً حسناً ، ولكنه لم يتأثر بشعوبيته[5] ؛ وأخذ عنه أيضاً الإجادة في الرثاء[6] .

وفي حمص أيضاً انتسب أبو تمام — في الأغلب — إلى طيء بالولاء ، فقيل « ابو تمام الطائي » ، فان غير العربي إذا أسلم — كما هو معروف في التاريخ — انتسب بالولاء إلى قبيلة عربية ، أو بيت عربي ، أو أسرة عربية . ولقد كان ابو تمام مقيماً في حمص مكرماً لدى الطائيين بني عبدالكريم يأخذ من جودهم ومن أدبهم فكان من أجل ذلك خايقاً أن يُنيط بهم ولاءه ، ويؤثرهم على من

---

(١) ديوان ١٤٣ ، ديوان س ١ : ٣٩٣ .
(٢) اخبار أبي تمام ٢٤٦ .
(٣) غ ١٢ : ١٤٢-١٤٩ (بولاق) ؛ طبعة دارالكتب ١٤ : ٥١-٦٨
(٤) مثله ١٢ : ١٤٢ ، سطر ٦ .
(٥) مثله ، راجع ١٢ : ١٤٢ ، سطر ٣ .
(٦) العمدة ٢ : ١١٩ .

تلفت الأنظار . ثم ان العمل الذي أخذ يقوم به في مصر لا يدل على أنه قصدها كشاعر ؛ فقد كان يومذاك حدثاً يسقي الماء في المسجد الجامع [1] ليكسب معاشه ؛ أفما كان باستطاعته أن يفعل ذلك في دمشق أو حمص ، أو في بلد أقرب من مصر ؟

يلوح لي أن أبا تمام أراد أن يبتعد عن أهله فقد أسلم وحده ، دون أهله ، فلم تكن حياته من أجل ذلك هادئة في دمشق ، وهو لم يكن في حمص بعيداً عن دمشق كثيراً ، فشد الرحال إلى مصر .

أبو تمام في المسجد

كانت المساجد في صدر الإسلام وما تلاه إلى زمن قريب مراكزَ للعلم فانتهز ابو تمام فرصة وجوده بالمسجد الجامع ، يسقي الماء ، ليزداد علماً : كان يلازم حلقات الأدب خاصة ، فاذا طلب أحد شربة ماء سقاه ثم رجع إلى مكانه الأول يستمع إلى إملاء الأديب أو مناقشة أصحابه . ولعل ذلك كان في السنوات الأولى من القرن الهجري الثالث ؛ وعمره يومذاك نحو عشرين عاماً . أما بيته :

وان الذي أحداني الشيبَ للّتي رأيتُ ، ولم تكمل ليَ السبع والعشر ؛

فلا يمكن أن يعنيَ أكثر من أن شيبه بدأ قبل السابعةَ عشرةَ من عمره ؛ وليس فيه دليل على أنه قال القصيدة التي منها هذا البيت يوم بلغ هذه السن .

وبعد أن سقى ابو تمام الماء في جامع مصر ، واستقى العلم وفنون القريض ، ترك السِقاية واتصل برجل حضرمي [2] يدعي عيّاشَ بن لَهيعة [3] وأخذ بمدحه . ولكن عياشاً لم يزد على أن كان يعد أبا تمام ويمنّيه ثم يمطله . ولا أرى وجهاً لرواية الصولي [4] : « قال ابو تمام : أول شعر قلته :

---

(١) مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط (نزهة الالباء ٢١٣) .

(٢) حضرموت : مقاطعة في جنوبي جزيرة العرب ؛ وطيء ايضاً من عرب الجنوب .

(٣) هكذا يضبطها ابن خلكان ٢ : ٢٤٣ .

(٤) اخبار ابي تمام ١٢١ .

تقي جَمَحاني، لستُ طَوْعَ مؤنّبي ؛ وليس جنبي ، إن عذلتِ ، بمصحي[1] !

ومدحت به عياش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم » . ان هذه الرواية لا تتسق مع عتاب أبي تمام لعياش منذ اتصاله به ولا مع هجائه له في آخر الأمر . ومع ذلك فان نفراً رددوا هذه الرواية وقبلوا أن يكون عيّاش قد أجاز أبا تمام عليها[2] .

وما كاد العام الأول يمر على المدحة الأولى في عياش بن لهيعة حتى ضاق ابو تمام ذرعاً بعياش وقال يعاتبه[3] :

— الفطْرُ والأضحى قد انسلخا ، ولي أملٌ ببابك صائم لم يُفطِرِ .
حَوْلٌ ، ولم يُنْتَجْ نَداك ؛ وإنما تُتوقَّع الحُبلى لتسعة أشهر[4] .

ولما لم يجد أبو تمام من عياش سوى مطل على مطل أخذ يهجوه هجاءً مراً ، ويعرّض بأصله ويَصِمُهُ بأنه ليس من العرب . ثم هجاه أيضاً بعد موته[5] .

وأصبحت إقامة أبي تمام الآن في مصر ضَنْكاً ، لضيق ذات يده ولضيق مذاهبه في بلد نَشِبَتْ فيه العصبيّات (الفتن) :

بمصرَ ؛ وأي مأرُبَةٍ بمصر وقد شَعَبَت أكابرَها شَعوبُ[6] !

وذلك في الأعم الأغلب بين عامي ٢١٠ و ٢١١[7] هـ (٨٢٦ م) وما بعدهما .

---

(١) ديوان خ ٢٣—٢٥ . — تقى : اتقي ، احذري . جنبي : الذي أحمله في جنبي (قلبي). — اذا لمتني وأردت أنا ان أسمع منك وأطيع لك فان قلبي لا يوافقني على ما أريد منه .

(٢) راجع مثلا ابو تمام الطائي للبهبيتي ٨١ .

(٣) ديوان خ ٣٩٥ — ٣٩٧ ؛ راجع اعيان الشيعة ١٩ : ٣٩٦ — ٤٠٣ .

(٤) الفطر عيد ينتهي به صيام رمضان ، والاضحى عيد يقع بعد سبعين يوماً من عيد الفطر — اما منزل عياش فكان بالاسكندرية (راجع الديوان خ ص ٥٠٣ البيت الثالث ؛ وص ٣٢٣ البيت الثالث عشر) .

(٥) ديوان خ ٥٠٦ ، اعيان الشيعه ١٩ : ٤٠١ .

(٥) ديوان خ ٤٩٥ — ٤٩٦ .

(٦) خ ٤٧٣ ، اي مات اكابرها .

(٧) الطبري ٣ : ١٠٨٦ ؛ ١٠٩١ ، ١٠٩٤ — ١٠٩٩ .

وكان أهل أبي تمام قد حرصوا على أن يرجع إليهم ابنهم . وأخذت نفس أبي تمام أيضاً تنازعه إلى الرجوع . غير أن كِبْرَ نفسه كان يأبى عليه أن يرجع وهو لمّا يزلْ فقيراً . وكيف يمكن أن يرجع من رحلة له فقيراً وهو الذي يقول :

ما آبَ من آبَ لم يظفرْ بحاجته ، ولم يَغِبْ طالب بالنُجْح لم يَخِبِ[1] .

غير أن الشاعر يعود إلى نفسه فيذكر حنان أمه وتشوقها إليه فيودّ أن يطيعها في رغبتها ، ولكنه يرى استحالة ذلك ملء عينيه ، فيقول[2] :

وكم عَدَوِيّة من سبي عمرو ... لها حسب إذا انتسبت حسيبُ ؛
لها من طيِّءٍ أمٌّ حَصانٌ ... نجيبةُ معشر ، وأبٌ نجيب .
تمنى أن يعودَ لها حبيب ... مُنىً شطَطاً ؛ وأين لها حبيب ؟

ثم يبدو حنينه أيضاً إلى دمشق وأصحابه فيها ؛ ويذكر ما مر عليه في مصر بعد خمسة أعوام وشهرين كانت كلها أسى وضنكاً ، ثم تعرض هو في أثنائها لهجر أهله وأسفهم، ثم لبذل ماء وجهه ؛ وبعد هذا كله آب بالخيبة[3] .

نأيتُ فلا مالاً حويتُ ؛ ولم أقِمْ ... فأُمْتَعَ ، إذ فُجِّعت بالمال والأهل .
بخلتُ على عِرْضي بما فيه صَوْنُه ... رجاءَ اجتناء الجود من شجر البخل .
عصيت شَبا حزمي لطاعة جيرة ... دعتني إلى أن أفتح القُفْل بالقفل
وأبسُط من وجهي الذي لو بذلتُه ... إلى الأرض ، من نعلي ، لما نُقبت نعلي .
وكان ورائي ، من صريخة طيِّءٍ ... ومعنٍ ووهبٍ ، عن أمامي ما يسلي .
فلم يك ، ما جرّعت نفسي ، من الأسى ،
ولم يك ، ما جرّعت قومي ، من الثكل .

---

(1) في نهاية الارب للنويري ٣ : ٩٥ ما أب من اب ...
(2) ديوان خ ٤٧٢ .
(3) ديوان خ ٤٢١-٢٢ ؛ راجع فوق ، ص٢٤ .
(4) ديوان خ ٤٢٢ .

في هذه الأثناء كان أبو تمام قد هاجى نفراً من الشعراء في مصر وهاجَوْه . من هؤلاء شاعر اسمه يوسف السرّاج كان يحمل على أبي تمام لغموض شعره[1] .

ولم يطُل مُقام أبي تمام بعد ذلك في مصر كثيراً ، بل تركها آيباً إلى الشام ، وهو لا يزال شديد التأثر بالمذهب العلوي . ولعل أبا تمام ظل في مصر إلى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) لأنه أدرك فيها مقتل عمير بن الوليد الباذغيسي الخراساني عامل مصر الذي قتل في ربيع الأول سنة ٢١٤ هـ في أثناء فتنة داخلية ؛ وقد رثاه وحضر للتعزية به[2] .

الرجوع الى الشام (سورية) فالعراق

رجع ابو تمام إلى الشام ، ولعله لم يصل إليها قبل ٢١٥ — ٢١٦ هـ (٨٣٠م)، فسعى ليتصل بالمأمون، وكان المأمون يومذاك يتجول في الشام بعد أن خرج إلى حروب الروم وانتصر مراراً[3] ، فلما دخل أبو تمام عليه مدحه[4] ولكن لم يظفر منه بما يؤمل ولا بأدنى مما كان يؤمل ؛ بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد مرة واحدة . ان المأمون كان قد انقلب على آل علي ، فأوغر صدْرَهُ أن يرى أبا تمام يمدحهم ويعرِّض ببني العباس[5] .

طاف ابو تمام الآن في ما بين النهرين ، وفي أرمينية ، وفي شمال سورية ؛ ولكنه قضى معظم أوقاته في المَوْصل .

---

(١) ديوان خ ٤٨٩ ، ٤٩١ ؛ الوساطة ١٨ — ١٩ ؛ أبو تمام الطائي ٨٥ — ٨٧ .

(٢) الديوان خ ص ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٢٨٩ — ٢٩٠ ؛ خصوصاً ص ٣٦١ س ٣ والطبري ٣ : ١١٠١ .

(٣) غزا المأمون ارض الروم عدة مرات بين ٢١٥ و ٢١٧ هـ (الطبري ٣ : ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٩) .

(٤) لعل اباتمام لقي المأمون في دمشق ؛ اما القصيدة التي مدحه بها فهي : « من ألم بها فقال سلام » — ديوان خ ٢٧٩ ؛ وفي اياتها انها اول ما قاله الشاعر بعد رجوعه من مصر .

(٥) ديوان خ ١٦١ — ١٦٦ ؛

في خراسان

بعد موت المأمون في سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) أمِنَ أبو تمام وكَثُرَتْ قصائده وبزغ نجمه. فلما سمع به المعتصم حمله إليه فقضى ابو تمام عنده مدة لم يجد في أثنائها لديه ما يضارع طموحه فتركه وولّى وجهه شطرَ خراسانَ ليمدح واليَها عبدَالله بن طاهر بن الحسين، وقد اشتدّت الفتن فيها من آثر بابَكَ الخُرَّمي. وتوجّه أبو تمام من العراق نحو نيسابور. وفي طريقه مر بقُومَس ونَزَل فيها عند صديق له هو عبدالله الدامغاني[1]. ثم ان أبا تمام انتهز فرصة إقامته بنيسابور، مع عبدالله بن طاهر، فاتصل بالقائد أبي دُلَف العِجْـلِيّ، وبالقائد حَيْدر بن كاوس الأفشين[2]، وبالقائد أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري، وسوى هؤلاء كجعفر بن دينار الطائي. وقد بقي أبو تمام في خراسان إلى أواخر سنة ٢٢٢ هـ حينما تركها عبدالله بن طاهر قادماً إلى سامرا[3] ومعه الثائر بابك الخرّميّ فوصل إليها في صفر من سنة ٢٢٣هـ[4]، وقد صَحِبَ عبدَالله بنَ طاهر في مقدمه على سامرا أبو تمام والقائد الأفشين. وفي سامرا أدخل المعتصمُ الشعراءَ على الأفشين ليمدحوه، فمدحه أبو تمام بقصيدته[5]:

بَذَّ الجِلادُ البَذَّ فهْوَ دَفينُ ، ما إنْ به إلاّ الوحوشُ قَطينُ[6].

---

(١) ياقوت ٤ : ٢٠٣ .

(٢) وفي رواية حيدر (شرح التبريزي ٢ : ٧٢) .

(٣) سامرا مدينة على أربعين كيلومتراً شمال بغداد بناها المعتصم وجعلها معسكراً لجنده الاتراك ثم اتخذها عاصمة .

(٤) انظر تحت ، قصة بابك ، ص ٥٠

(٥) ديوان خ ٣٢٦ – ٣٢٨ .

(٦) بذ : غلب ، تغلب على . الجلاد : القتال ، الحرب . البذ (بالذال المعجمة وبالدال المهملة أيضاً) : معرب بت : الصنم ، وهو هنا مكان فيه صنم كبير لبوذا كان في جبل عال منيع ، وكان بابك الخرمي قد اتخذه معقلا (راجع القاموس ١ : ٢٦٧ ، ٣٥٠) . – يقول أبو تمام : تغلب العرب بالجلاد (بالحرب) على جبل البذ وهدموه حتى صار مدفوناً تحت أنقاضه ، ولم يبق به قطين (ساكن) الا الوحوش (أي أصبح مهجوراً) .

في العراق وبلاد الروم (آسية الصغرى)

في منتصف سنة ٢٢٣ هـ (قبيل منتصف ٨٣٨ م) تجهّز المعتصم لمحاربة الروم متّجهاً نحو عمورية . وكان معه الأفشين وأبو تمّام . وبعد الاستيلاء على عمورية وإحراقها (رمضان ٢٢٣ هـ – آب ٨٣٨) عاد المعتصم إلى سامرّا فأنشده أبو تمّام قصيدته السائرة على وجه الدهر : « السيف أصدق إنباء من الكتب »[١] . وذلك في مطلع سنة ٢٢٤ هـ أو في آخر سنة ٢٢٣ .

هنا يعترضنا أمران أولهما زمن ذهاب أبي تمام إلى الحج ، فان أبا تمام يقول في ديوانه انه حج مع أبي سعيد الثغري[٢] ؛ ونعلم من موضع آخر في الديوان أن أبا سعيد حج حجة يغلب على الظن أنها كانت بين ٢٢٣ و ٢٣٠ ، وهي على الأغلب في عام ٢٣٠ هـ . ثم نحن لا ندري إذا كانت حجة أبي سعيد هذه هي التي حج في عامها أبو تمام ، أم تلك غيرها ، فيكون الشاعر إذن قد حج مرتين .

والأمر الآخر زمن تأليف « ديوان الحماسة » : وجُل ما نعلمه « أن الثلج اعترضه في همذان بفارس في أثناء ذهابه إلى مديح عبدالله بن طاهر » ، وقيل بل في أثناء رجوعه . فاشتغل بتأليف هذا الكتاب ريثما يذوب الثلج ويستطيع الشاعر أن يتابع مسيره . وعلى كل فان ذلك كان في أواخر سني أبي تمام أيضاً .

وفي هذه الأثناء كان الشاعر قد نال حظوة عند المعتصم وعند أمراء البلاد ورجال الدولة : كأحمد بن أبي دؤاد ومحمد بن عبدالملك الزيات وجعفر الخياط القائد وغيرهم .

• • •

لم يألف أبو تمام الاستقرار في بلد من البلدان مدة طويلة . فما أن هدأ قليلاً في سامرّا ، بعد فتح عَمُّورِيَةَ ، حتى عاد سِيرتَهُ من التّطْواف بين سنتي

---

(١) راجعها في المختارات .

(٢) ديوان خ ٤٢٣ – ٤٢٤ .

(٣) ديوان خ ٢٩٢ .

٢٢٥ و ٢٢٩ للهجرة (٨٤٠ – ٨٤٤ م) . زار أبو تمام في تلك الأثناء حُوران وحِمْص ، ثم عاد إلى سامرّا في سنة ٢٢٦ هـ ليمدح المعتصم بعد إحراق الأفشين سنة ٢٢٦ أيضاً [1] . وفي هذه الحِقبة اتصل أبو تمام بأبي المغيث موسى بن ابراهيم الرافقي ، والي دمشق من قِبَلِ الخليفة المعتصم [2] . ويتساءل محسن الأمين [3] عما إذا كان أبو تمام قد حضر بنفسه إلى دمشق أو أنه أرسل إلى أبي المغيث قصيدته [4] :

أقشيبَ رَبْعِهِمُ ، أراكَ دَرِيسا وقِرى ضيوفِكَ لَوْعَةً ورَسِيسا*

من الموصِل . « ومكث أبو تمام مدة ينتظر معروف أبي المغيث موسى بن ابراهيم فلم يدرك منه رسولاً ولم يَبْلُغْ مأمولا » [6] ، فأخذ يمدحه مرة ويعاتبه أخرى . بعدئذ هجاه ولكن عاد فمدحه [7] .

وفي هذا الدور أيضاً – فيما يبدو – اتصل أبو تمام بمالك بن طَوْق التَغْلَبيّ يوم كان مالك يقاتل الثائرين على الخلافة في بادية الفرات الجَزَرِيّ (الفُرات الأعلى) . ويبدو لنا أيضاً أن أبا تمام ظل متّصلاً بمالك بن طوق إلى ما بعد عزله عن الجزيرة ، جزيرة ابن عُمَرَ [8] .

وكذلك يبدو أن أبا تمام لَقِيَ البحتري في هذا الدور . كان أبو تمام يومذاك شاعراً ملء السمع والبصر مشهوراً ، وكان البحتري لا يزال حديث السن

---

(١) راجع ديوان خ ١٥١ – ١٥٥ .

(٢) أمراء دمشق في الاسلام ٨٩ ، راجع ١٢٦ .

(٣) أعيان الشيعة ١٩ : ٣٨٨ .

(٤) ديوان خ ١٧٥ – ١٧٨ .

(٥) يا مسكنهم الجديد ، أراك قد أصبحت دريساً (مدروساً ، خراباً) وارى أن قرى ضيوفك (حظ زائريك ، ضيافتهم) لوعة (حرقة في القلب وألم من حب أو هم أو مرض) ورسيسا (حمى من لوعة الحب) = كانت ديارهم عامرة زاهرة فامحت وأصبحت تحزن من يراها .

(٦) هبة الايام ١٦٧ .

(٧) أعيان الشيعة ١٩ : ٣٧٨ – ٣٩٦ .

(٨) أعيان الشيعة ١٩ : ٣٧٨ ، ٣٨٣ .

مغموراً[1] . وكان اللقاء اتفاقاً في حمص عند القائد أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري في حديث طويل هو أكثر اتصالاً بالبحتري وشاعريته منه بأبي تمام[2] ولعل ذلك كان في بعض شهور سنة ٢٢٦ هـ (٨٤١ م) .

وبعد عام أو بعض عام رأينا أبا تمام من جديد في سامرا يعزّي الواثق بأبيه المعتصم ويهنئه بالخلافة بقصيدته الميمية[3] :

ما للدموعِ تروم كلَّ مرام[4] ، والجفنُ ثاكلُ هجعةٍ ومنامِ !

ويبدو أن أبا تمام حجّ بعد ذلك ثم بقي نحو عامين في العراق . إلا أن كثرة تطوافه في الأرض ، إلى جانب انغماسه في الشراب ، والملذّات أيضاً ، كانا قد نهكا جسمه — قبل أن تتقدّم به السن كثيراً — فآثر أن يُخلِدَ إلى شيء من الراحة بعيداً عن مشاغل الدنيا وعن إرهاق النفس بالمدائح . في ذلك الحين تولّى بريد الموصل :

كان بين أبي تمام وبين الحسن بن وهب صداقة وثيقة وإخاء خالص . رقي الحسن بن وهب في المناصب وظلت الصداقة والمنادمة والأحماض[5] بينهما على حالها . ولما سئم أبو تمام تكاليف الحياة رغب إلى صديقه في أن يعينه على اعتزال الكفاح في الحياة . فعرض الحسنُ بن وهب على أبي تمّام ان يُولّيَه مَنْصباً فاختار أبو تمّام أن يتولّى بريد المَوْصل[6] ، لأنه كان قد قضى في الموصل زمناً

---

(١) هنالك خلاف على لقاء أبي تمام بالبحتري لأول مرة ، وخلاف على ما كان في هذا اللقاء وما أعقب ذلك اللقاء (راجع غ ١٨ : ١٦٩ ؛ وفيات ٢ : ١٢١ ، مطبعة الوطن ٣٠٢ : ٩٧ — ٩٨ ؛ أخبار البحتري ٥٦ ، ٦٣ — ٦٥) .

(٢) راجع أخبار أبي تمام ١٠٥ ؛ عبة الايام ١٣ وما بعدها ؛ أخبار البحتري ٦٣ — ٦٤ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٤٣٧ وما بعدها .

(٣) ديوان خ ٢٧٥ — ٢٧٩ .

(٤) ما للدموع تهمي غزيرة ، في كل جهة (وفي كل حين) .

(٥) الاحماض : المزاح بألفاظ مكشوفة . راجع أخبار أبي تمام ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ، ٢٦٩

(٦) أخبار أبي تمام ٢٧٢ . — كان البريد لنقل الرسائل والاشياء والاشخاص مما يتعلق بأعمال الدولة ، كما كان رجال البريد (الموظفون في ديوان البريد) ينقلون أخبار البلاد والناس الى الخليفة .

أيامَ تخفّيه من المأمون. وكانت ولاية أبي تمام على بريد الموصل ولاية شرف يستجمّ فيها أبو تمام ويتقبّض منها راتباً ، مع العلم بأن أعمال هذا المنصب في الأصل كثيرة متعبة . غير أن أبا تمام لم يمكث في هذا المنصب أكثر من عامين اثنين ، من أوائل سنة ٢٢٩ هـ (أواخر عام ٨٤٣ م) إلى وفاته[١] .

وفـــاته

اختلف الرواه في سنة وفاة أبي تمام[٢] ، كما اختلفوا في سنة مولده ، اختلافاً كبيراً بين سنة ٢٢٨ وسنة ٢٣٢ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام قد توفّي — في أوثق الأقوال وأحسنها اتساقاً مع حوادث حياته — في المحرم من سنة ٢٣٢ (أيلول ٨٤٦) ، وهو يتولّى بريد الموصل[٣] ، وعمره نحو ثلاث وأربعين سنة .

ودفن أبو تمام في الموصل[٤] خارج الميدان على حافّة الخندق ؛ وتقول العامة : هذا قبر تمام الشاعر[٥] . وقد بنى أبو نهشل بن حُميد الطوسيّ قبة عليه[٦] . أما اليوم فان رفاته في حديقة البلدية في ضريح ضخم[٧] .

ورثى أبا تمام نفر كثيرون منهم ديك الجن أستاذه والبحتري تلميذه ؛ ومنهم صديقاه وممدوحاه محمد بن عبدالملك الزيات والحسن بن وهب ، وصديقه الشاعر علي بن الجهم وسواهم[٨] .

---

(١) راجع أخبار أبي تمام ٢٧٢ — ٢٧٣ ؛ ياقوت ٢ : ٨ ، راجع ١ : ٤٢٠ ؛ وفيات ١ : ٣٣٧ ؛ ، مطبعة الوطن ١ : ٢١٦ ، ٢١٧ هبة الايام ٥٣—٦٣ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٣٥٧—٣٦٧ .

(٢) أخبار أبي تمام ٢٧٢—٢٧٣ ؛ تاريخ بغداد.... أخبار البحتري (ص٦٦) سنة ٢٣١ هـ ؛ وفيات (وستنفلد) رقم ١٤٦ ؛ مطبعة الوطن ١ : ٢١٧ ؛ ١ : ياقوت ٢ : ٨ ؛ هبة الايام ٤٩ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٣ ، راجع ١٢ .

(٣) ياقوت ١ : ٤٢٠ ، ٢ : ٨ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٣ ، راجع ٢ ٣٦٢ ؛ الخ .

(٤) ياقوت ١ : ٤٢٠ ؛

(٥) وفيات ١ : ١٥٣ ، ٣٣٩ ؛ مطبعة الوطن ١ : ٢١٧ ، السطر ٢١ .

(٦) هبة الايام ٤٩ ؛ وفيات ١ : ٣٣٩ .

(٧) هبة الايام ٤٩ ، حاشية ٥ .

(٨) العمدة ١ : ٤٣ ؛ أخبار أبي تمام ٢٧٥ — ٢٧٩ ؛ وفيات (آخر الترجمة)

صفاته واخلاقه الخاصة

ليس لدينا ما يدل على صفات أبي تمام سوى قول ابن خلكان[1] : « كان أسمر طويلاً فصيح الكلام فيه تمتمة بسيطة » . وقد نقلها عنه كثيرون ؛ وإلاّ جملة للأنباري : « وكان موصوفاً بالظَّرْف وحسن الأخلاق وكرم النفس » . ثم ليس في ديوانه ما يناقض هذه الأحكام .

من أجل هذه التمتمة اليسيرة اشترى له أبو سعيد الثغري غلاماً أديباً فصيحاً اسمه الفتح بثلاثمائة دينار ليلقيَ له قصائده . ولكننا نعلم أنه كثيراً ما كان يلقي قصائده بنفسه . وقيل إنما كان إنشاده قبيحاً[2] وزاد ابن رشيق فقال « وكان في حبيب حبسة شديدة إذا تكلم ... » فقال فيه مخلد بن بكار الموصلي[3] .

يا نبي الله في الشعر ويا عيسى بن مريم ،

أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلمْ !

أما أخلاقه فكانت أخلاق شاعر عباسي ؛ غير أنه لم يكن متهتكاً ؛ بل كان يأتي ماذاته في ستر[4] .

آلـــه

كان أبو تمام مُرزّئاً : مات نفر من أهله ، من أخوة وأولاد له ، في حياته . وقد مات نفر من هؤلاء في عام واحد[5] :

تتابع في عامٍ بَنيّ[5] وإخوتي ، فأصبحتُ إن لم يُخْلِفِ[6] اللهُ مُفرَدا .

أما أبواه فلا نجد إشارة إليهما في ديوانه إلا أن تكون الرسالة التي جاءت

---

(١) وفيات الاعيان ١ : ٣٣٩ .

(٢) الاغاني ١٨ : ٤٧ .

(٣) العمدة ١ : ٧٠ ، ١٨٤ – مخلد مضبوطة في اخبار ابي تمام بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام المفتوحة (ص ٤٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٧٢) .

(٤) راجع اعيان الشيعة ١٩ : ١٩ وما بعدها ففيها اشارات كثيرة وشواهد على اخلاقه الشخصية .

(٥) ديوان ج ٣٦٣ .

(٦) ان لم يخلف الله : ان لم يرزقني ولداً من جديد .

إليه موشحة" بالسواد نعياً لأحدهما[1]. وكذلك نعرفُ أخاً له كان اسمه سهماً[2]. ثم ان هنالك في ديوانه[3] مَرثِية عنوانها «وقال في أخ له وحضر وفاته» تدل على أن الشاعر قالها في أخ له من النسب لا من الصداقة. ولكن ليس فيها ما يدل على أن هذا الأخ المرثيّ كان سهماً أو أخاً ثانياً له.

وتزوج أبو تمام امرأة توفيت وشيكاً صغيرة السن فرثاها[4]. وكذلك كانت له جارية، بمعنى الزوج لا بمعنى الولد، ماتت في حياته أيضاً[5]. وكان لأبي تمام أولاد لا نعلم من أي الزوجتين هم.

توفي لأبي تمام ابن اسمه محمد رثاه رثاء" يدل على أنه لم يكن له آنذاك ولد غيره[6]. وهنالك في الديوان مرثية تعد واحداً وعشرين بيتاً في ابن له يكنّيه أبا عليّ ويذكر أنه كان يوم توفي وحيداً له وأنه قد بلغ مبلغ الشباب. ومطلع هذه المرثية[7]:

كان الذي خِفْتُ أن يكونا	أنا إلى الله راجعونا.
أمسى المرجّى أبو عليّ	مُوسَّداً في الثرى يمينا،
حين انتهى واستوى شبابا	وحقق الرأي والظنونا.

ويبدو أن ابنه المرثي بهذه القطعة هو غير ابنه المرثي بالقطعة السابقة. يذكر الشاعر أن ابنه المسمى أبا علي توفي بعد مرض، بينما هو لم يتكلم عن المرض في المرثية الأولى بل تكلم عن شماتة الناس به. ثم ان لأبي تمام ابناً آخر اسمه تمام عاش بعده مدة[8]، وهو الذي يتكنّى به شاعرنا.

---

(١) ديوان خ ١٤٣ = شرح التبريزي ٢ : ٦٩ .
(٢) ديوان خ ٣٤٣ ، البيت الثالث . هبة الأيام ١٢٢ . اخبار البحتري ١٤٦ .
(٣) راجع ديوان خ ٣٩٢ .
(٤) ديوان خ ٣٥٦ .
(٥) ديوان خ ٣٨٨ – ٣٨٩ .
(٦) ديوان خ ٣٦٣ .
(٧) ديوان خ ٣٩١ – ٣٩٢ .
(٨) اخبار ابي تمام ٢٦١ ، ٢٧٣ .

بيئة أبي تمّام

لا أقصد بوصف بيئة أبي تمام دراسة أحوال الامبراطورية العربية في القرن الثالث الهجري (والقرن التاسع الميلادي). ان تلك الأحوال كانت تمثّل مدنيّة العالم بأسره والتاريخ بعصوره. ولو أني تعرّضت لبيئة أبي تمّام بمثل هذا التفصيل[1] لاضطررت إلى أن أجتزىء بأشياء عامّة لا جدوى تحتها لمن يتناول هذا الكتاب – وقد لا يكون لها صلة وثيقة أو غير وثيقة بأبي تمام وشعره. على أني سآخذ في هذا الفصل تلك العناصر والعوامل التي كان لها أثر بيّن في حياة أبي تمام وصلة ظاهرة بشعره.

١ – بيئته الخاصة

احتكاكه الأول بالشعراء

لما ظهرت مواهب أبي تمام – وكان قد رحل من دمشق إلى حمص – كان أكثر اختلاطه بآل أبي عبد الكريم الطائي، وبعبد السلام بن رَغْبان المعروف بديك الجن، كما مر بنا. ثم إن شبان حمص وشعراءها لم يبلغوا من الخلاعة والفتك ما بلغ إليه أبو نواس وعصابته ببغداد وضواحيها: لقد كان الرأي السائد في حمص مناهضة أمثال هؤلاء المتهتكين الذين كانوا يفسقون في سرّ. وكثيراً ما

(1) لما أصدرت الطبعة الاولى من دراسة ابي نواس (بيروت ١٣٥١ – ١٩٣٢) أخذ علي محمد محمود شاكر في مجلة المقتطف (مصر، فبراير – شباط ١٩٣٣، ص ٢٤٠ س) أنني أوجزت جداً في الكلام على بيئة أبي نواس.

كان هؤلاء الخلعاء لا يَنجون من قبضة رجال الشُّرْطة إلا بعد لأي[1] .

وكان مُجّان حمص يرتادون الميماس[2] ليشربوا الخمر أو ليفسقوا، ولكن ذلك كان حياة خاصة لهم لم يجهروا بها ، ولم يتهتكوا تهتك بشار وأبي نواس ومُطيع بن إياس[3] في بغداد . وكذلك كان زعيم شعراء الشام وأستاذ أبي تمام، ديك الجن الحمصي ، كثير التأثم من الجهر بما كان يَغْلِبُ على طبعه أحياناً من حب القصف ، ثم هو فوق ذلك عَلَوي شديد التقوى . وهكذا لم يقع أبو تمام في بيئة مستهترة كما اتفق لأبي نواس .

وهنالك أيضاً ملاحظة تصدق على كل زمن ، هي أن الداخل حديثاً في دين يكون أشد تمسكاً بفروضه وشعائره من أصحاب الدين أنفسهم . وأبو تمام رغب في الإسلام — تاركاً بلادَه وأهله — فكان حَرّياً باجتناب كل ما يُحمَل منه على غير الإخلاص .

مصر بعيدة عن فساد بغداد

وانتقل أبو تمام إلى مسجد مصر يسقي الماء فيه لمعاشه ، فكان يلازم المسجد منذ الفجر إلى ما بعد العشاء في الأغلب — مدة قد تبلغ أحياناً ست عشرة ساعة أو أقل قليلا — . من أجل ذلك كانت فرص اختلاطه بالعالم الخارجي نادرة فلم تُتَحْ له فُرَصٌ يقتدي فيها بغير رجال الدين وأعلام الأدب . كان أبو تمام يلازم هذا المسجد واقفاً أمامَ حلْقةِ تدريس ، فاذا طلب أحدهم شَرْبة ماء سقاه ثم رجع إلى مكانه الأول يختلس الرأيَ بعد الرأيِ والرواية بعد الرواية .

ولا ريب في أن مصر كانت في ذلك غير بغداد : كانت بعيدة عن فجور

(١) راجع شيئاً من اخبار ديك الجن في الاغاني ١٢ : ١٣٦(طبعة دار الكتب ١٤ : ٥١–٦٨).

(٢) الميماس متنزه في حمص كثير الاشجار يتدفق فيه نهر العاصي فيكسبه جمالا ؛ وكان الميماس متنزهاً لحمص ولا يزال، ولكنه اليوم لمن يقصده . وقد بني اليوم فيه بناء حديث يجذب نفراً من المتنزهين ولكن ضيع شيئاً من الجمال الطبيعي لذلك المتنزه .

(٣) راجع راجع مثلا اخبار ابي نواس لابن منظور .

الروم والفرس والمجوس وعن حاناتهم السرية ؛ أو هي لم تكن في ذلك كما كانت بغداد ، ولم يكن فيها من يطلب الدُّعابة حتى في المسجد ، أمثال عصابة أبي نواس الذين كانوا يُنهون الدرس بجملة مُجونية على الأستاذ .

ممن استقى أبو تمام علمه ؟

كان أبو تمام رجلاً حُبِّبَ إليه الأدب عامة والشعر خاصّة ، فكان يستفيد مما يمر به من ذلك . فهو في هذا الباب عِصامي وفَّر أوقاته على الاستفادة ثم لم يترك له اجتهاده متّسعاً للّهو .

لا نستطيع ، مما لدينا من أخبار أبي تمام ، أن نعرف شيوخ أبي تمام ؛ ولكن الصولي[1] ذكر جماعة روى أبو تمام عنهم ، منهم العطّاف بن هرون ، وكَرامة بن أبان ، وأبو عبدالرحمن يحيى بن اسماعيل الأموي ، وسلامة بن جابر النّهدي ، ومحمد بن خالد الشيباني ، وقِلابة الجَرْميّ ، ومالك بن دَلْهَم وعمرو بن هاشم السَّرَوي[2]. وذكر محسن الأمين هذه الأسماء وزاد عليها صهيب بن أبي صهباء الشاعر[3] . قد يكون هؤلاء شيوخاً لأبي تمام تلقّى العلم والأدب عليهم وتخرّج على أيديهم ، وقد يكونون شيوخاً اتفق أن سمع أبو تمام منهم حديثاً بعد حديث وكتب عنهم إملاء بعد إملاء .

كان أبو تمام حافظاً للقرآن ، عارفاً بالحديث وبعلوم العربية ؛ كثير الاطلاع على التاريخ : ما عمّ منه وما خصّ ، حسن المشاركة في علم الكلام وفنون الفلسفة . أما في الأدب والنقد وفروع البلاغة فكان – مما يبدو لنا في ديوانه – إماماً كبيراً .

أثر مذهبه فيه

وكان مما اكتسبه أبو تمام في حمص مذهبه العلوي . ونحن نعلم أن أتباع

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٤٩ – ٢٥٨ .

(٢) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٨٥ . في أبي تمام الطائي (ص ٧٣) : صهيب بن أبي الصهبان (أو الصهباء) الشاعر (أيضاً).

المذهب العلوي أشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وأبعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكونون أحياناً مفرطين فيما يظنونه التقوى . فهذا ، إذن ، عامل آخر يحجز أبا تمام عن ارتياد اللهو علناً ؛ وهذا شيء نعرفه من حياته .

وأبو تمام لم يكن متشيعاً[١] يُعجَب بآل البيت ويأسى لما نزل بهم من المصائب فقط ، بل كان شيعياً يعتقد إمامتهم ويذهب في إثبات الإمامة لعليّ مذهبَهم . وشعره في ذلك كله ظاهر الدلالة . ولقد جمع محسن الأمين[٢] طرفاً صالحاً من شعر أبي تمام الدّال على شيعيّته . أما أبرز قصائده في هذا الباب فهي[٣] :

أظبيةُ ، حيث استَنَّتِ الكُثُبُ العُفْرُ* ،

رُوَيْدَكِ لا يغتالُكِ اللومُ والزجرُ !

التي قالها في مطلع حياته قبل أن تقبل عليه الدنيا ، وحينما كان في مصر في الأغلب . وقد جاء في هذه القصيدة :

فعلتم بأبناء النبيِّ ورَهطِه … أفاعيلَ أدناها الخيانةُ والغدرُ[٤] .

ومن قبله أخلفتُمُ لوصيِّه … بداهيةٍ دَهياءَ ليس لها قَدْرُ[٥] .

أخوه — إذا عُدَّ الفَخارُ — وصِهرُه ؛ … فلا مِثلُه أخٌ ولا مثلُه صِهرُ[٦] .

وشُدَّ به أزْرُ النبيِّ محمّدٍ … كما شُدّ من موسى بهارونِه الأزرُ[٧] .

---

(١) راجع الفرق بين « متشيع » و « شيعي » ، ابن الرومي للمؤلف (الطبعة الثانية) ص ٩–١٠

(٢) أعيان الشيعة ١٩ : ٥٣٠–٥٤٣ .

(٣) ديوان خ ١٦١–١٦٦ .

(*) حيث تتالت (تتابعت) التلال السمراء اللون .

(٤) رهط الرجل : جماعته . أفاعيل جمع أفعولة : عمل الشر والخداع .

(٥) وصيه ، يقصد أبو تمام علي بن أبي طالب . يرى الشيعة أن الرسول كان قد أوصى لعلي بالخلافة بعده . الداهية الدهياء : المصيبة العظيمة . ليس لها قدر : ليس لها (لعظمها) مقياس تقاس به .

(٦) أخوه (لما آخى الرسول بين المهاجرين والانصار آخى بينه وبين علي) . صهره : زوج ابنته (فاطمة) .

(٧) الازر (في الاصل) : الظهر . شد به أزر النبي : جعل له سنداً ومعيناً . كما شد من موسى—

ويومَ الغَديرِ استوضحَ الحَقَّ أهلُه	بفيحاءَ لا فيها حِجابٌ ولا سِتر[1].
أقامَ رسولُ الله يدعوهمُ بها	ليَقرُبَهم عُرفٌ ويَنآهمُ نُكر[2].
يمدُّ بضبعَيْه ويعلمُ أنه	وليٌّ ومولاكُم؛ فهل لكُمُ خُبْر؟[3]
أحُجّةَ ربِّ العالمين ووارثَ الـ	نبيِّ، ألا عهدٌ وَفيٌّ ولا إصْرُ[4]
ولو لم يُخلّفْ وارثاً لعَرَتْكُمُ	أمورٌ تبينُ الشكُّ ساحةَ من تعرو[5].

= بهارونه الازر: كما جعل هرون معيناً لموسى (راجع القرآن الكريم سورة طه، ٢٠: ٣١: «هرون أخي، اشدد به أزري وأشركه في أمري»).

وفي غزوة تبوك (٩هـ) اصطحب الرسول كبار الصحابة وخلف علياً مكانه على المدينة. وظن علي أن فعل الرسول كان تفضيلا للصحابة عليه، فقال له الرسول: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى؟ (تخلفني في الناس كما خلف هرون موسى في بني اسرائيل لما صعد موسى لميقات ربه).

(١) يوم غدير خم (بضم الخاء). خم غيضة فيها غدير على يسار الطريق من المدينة الى مكة. في الثامن عشر من شهر ذي الحجة من سنة ١١ خطب الرسول بعد حجة الوداع في من كان معه من الحجاج قبل أن يتفرقوا، ثم أخذ بيد علي ورفعها .. وقال: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» الخ. كما يروي الشيعة. وهم يرون أن هذه الولاية تقوم مقام الوصية لعلي بالخلافة (راجع منتخبات اسماعيلية، دمشق ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م، ص ٢١٦ – ٢١٧، ٢٢٠، ٢٣٠؛ وذخائر العقبى من مناقب ذوي القربى تأليف الحافظ محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري) القاهرة ١٣٥٦هـ (ص ٦٧). استوضح الحق أهله: بان الحق للذين يحبون الحق. بفيحاء: في أرض منبسطة مكشوفة (علناً).

(٢) ليقربهم عرف: ليتاح لهم أن يعرفوا. وينآهم نكر: ليبتعد عنهم الجهل.

(٣) يمد بضبعيه: يرفع (الرسول صلى الله عليه وسلم) عضد (يد) علي بن أبي طالب ليشهد الناس على أنه مولى المسلمين. خبر: علم (راجع مقدمة ابن خلدون، بيروت ١٩٥٦ ص ٣٤٢ وما بعد).

(٤) إصر: قرابة. – يا حجة الله على عباده ووارث نبيه (يقصد علي بن أبي طالب)، ألا يقر (هؤلاء الذين فعلوا بأبناء علي ما فعلوا من الامور المذكورة في أبيات تسبق هذا البيت) بعهد أخذ عليهم أو بقرابة يعرفونها لعلي بالرسول).

(٥) لو لم يكن للرسول وارث لنالتكم أمور معيبة تلحق من تصيبه (لو ترك الرسول المسلمين بلا وصية لكان ذلك عاراً عليهم).

جعلتُ هوايَ الفاطميّين زُلْفَـــةً[1] إلى خالقي ما دُمْتَ أو دام لي عُمْرُ.
وكَوّفني ديني ، على أن مَنْصِبِي شآمٍ ونَجْري آيَةٌ ذُكِرَ النجر[2].

مقامه عند الممدوحين

رجع أبو تمام من مصر فأقام عند ممدوحين – في الشام وبغداد وخراسان – وكلهم من الخلفاء والأمراء ورجال الدولة الذين قاموا على أنقاض حاشية الأمين الفاسقة في زعمهم . أفتظن أن الذين ينقمون من الأمين أنه اتخذ شاعراً فاسقاً كأبي نواس – وهم إنما أثاروا عليه هذه التهمة حتى خلعوه وحاربوه ثم قتلوه ليشيّدوا دولتهم – يتساهلون في أمر دينهم وسلوكهم ليُرْمَوا بما رُمي به الذين جاءوا قبلهم ؟ كان هذا أيضاً يصد الشاعر عند عبثه إذا اشتهاه .

حياته الخاصة

ولكنّ هذا كله لم يكن ليمنعَ الشاعرَ من إطلاق عواطفه فيما حوله في شيء من الحذر والتستّر . فلقد أحب بعض الجواري ، وكثيراً من الغلمان ؛ ويظهر أن عواطفه أحياناً كانت تتغلب على مبادئه فيسرف في شرب الخمر وإنفاق المال ، وفي اتباع أهواء النفس حتى يُسِفّ إلى ما انحطّ إليه أبو نواس ؛ لولا انه متكتّم قليلاً ، وان أبا نواس متهتك مستهتر[3] .

العنصر الشخصي

كان أبو تمام من الشعراء الذين شعروا بقيمتهم الذاتية شعوراً حقيقياً . لقد رُوي عن جميع الشعراء أنهم فاخروا أقرانهم ، وأشاروا إلى مقدرتهم في أثناء مناقضات متباينة المرامي ؛ ولكن أبا تمام كان أول من أخذ بالنظر إلى نفسه ثم إلى

---

(1) زلفة: تقرباً الى الله .

(2) وكوفني ديني : اتخذت دين أهل الكوفة (التشيع لعلي وآله)، مع أن منصبي (مكاني ، سكني) ونجرى (أصلي ، نسبي) شآم (من أهل الشام ، أموي) آية ذكر النجر : مهما كان أصلي ، عربي أو رومي (؟).

(3) راجع الاغاني ٢١ : ٣٤ .

شعره مؤكداً صفاتهما العالية. انهلا يكتفي أن ينشرهما، بل يتخذ منهماموضوعاً يتابعه في أماكن كثيرة من قصائده . تراه يقول من مدحة في عياش ابن لهيعة:

شجيٌّ في حلوقِ الحادثات مُشَرَّقٍ ، به عزمُه ، في التَّرَّهات، مُغَرَّبِ[2]

كأن له دَيناً على كل مشرقٍ من الأرض ، أو ثأراً لدى كل مَغربِ

— وان نُكبتُ بجِدَ في حزونته سهّاته ، فكأني منه في لعِبِ ،

مُقصِّراً خطراتِ الهمِّ في بدني علماً بأنِّيَ ما قصَّرت في الطلب[3].

وغيرها مما تجده أيضاً في قصيدته : أهن عوادي يوسف وصواحبه[4].

وقد أجمل الأستاذ المقدسي[5] ذلك فأشار إلى « صبره على المشاق لبلوغ المنى ، وشدة إعجابه بنفسه ... فاذا قرأت ديوانه رأيته مفعماً بما يدل على أنه نشأ مغامراً في سبيل المال والجاه . وقد زادته كثرة أسفاره عزماً ومضاء ... »

فلا عجب إن كان أبو تمام ، إذن ، واثقاً بنفسه إلى حد الغرور أحياناً ؛ يفرض ما يقوله على الناس فرضاً ؛ ويعتقد آماله قبل أن تقع . ولا نحملن ذلك منه على العفو أو العبث فقد جاء به في أعظم مواقفه جداً ؛ لنصغ الى أبي تمام يقول (ديوان خ٧) :

ولقد رجوتُ ، فهل لديك بحاجة ، وعلمت أنك لا تُخيب رجائي ؛

إني امتدحتك لا لفائدة ، ولا همّي جزاءُ مدائحي بجزاء

لكنْ أروم به احتياطك ؛ إنه فيما لديك لبُغيتي وغنائي .

فهو يقول : أنا لا أمدحك طمعاً بالجائزة ، ولا « تملقاً » كما يفعل الشعراء : ولكن لأريك عظمة شعري[6] ... ثم انظر قوله « أنا (من) عرفت » ، أوقوله

---

(١) راجع ايضاً الاغاني ٢١ : ٣٤ .

(٢) الترهات : القفار . ديوان خ ٢٥ .

(٣) خ ٤٧١ .

(٤) ديوان خ ٤٣ ، راجعها في « المختارات » .

(٥) امراء الشعر ١٧٧ — ١٧٨ .

(٦) ديوان س ، ص ٥٤ وحاشية ٧ ؛ خ ، ص ٧ .

وإنّي لأرجو عاجلاً أن تردّني مواهبُه بحراً تُرجّى مواهبي .

وسنرى في مكان آخر أن « آراءه لم تشتبه » ، وانه « فاق فطنة الفيلسوف »[1]

وقد انتقل هذا الروح إلى شعره أيضاً ففَخَرَ به وفضّله ، وقارنه بصلة الممدوح ، ثم قرن نفسه بالممدوح :

سأجهَد حتى أُبلغَ الشعرَ شأوَه . وان كان لي طوعاً وليس بجاهد[2] .
فان أنا لم يَحْمَدْكَ عنّيَ صاغراً عدوّك ، فاعلم أنني غير حامد .
— فالبسني من أمّهات تِلادِه ، وألبسته من أمهات قلائدي[3] .
— ما خالد لي دون أيوبٍ ، ولا عبدالعزيز ؛ ولستَ دون وليد[4] .
خذْها مثقفةَ القوافي ، ربّها لسوابغ النّعماء غيرُ كَنود ،
حَذّاء تملأ كل أذنٍ حِكمةً وبلاغة ، وتُدِرّ كل وَريد[5] .
كالطعنة النّجلاء من يد ثائر بأخيه ، أو كالضربة الأُخْدود[6] ؛
كالدر والمرجان أُلّف نظمُه بالشّذْر في عنق الكَعاب الرود[7] .

ويندر أن ترى له مدحة لم يفتخر فيها بنفسه وشعره[8] :

---

(١) ديوان خ ٤٣ ، ٨٤ ، ٤٠٤ .
(٢) خ ١١٩ .
(٣) خ ٩٥ .
(٤) خ ٨٤ — هذا بيت من قصيدة يعتذر ابو تمام بها الى قاضي الدولة احمد بن ابي دؤاد ، ويستشفع بخالد بن يزيد الشيباني فيقول : مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بايوب بن سليمان بن عبد الملك ، وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد اللي يشفع لي باقل منهما ، وما أنت باقل من الوليد بن عبد الملك — راجع امراء الشعر ص ١٧٩ (راجع ديوان شرح التبريزي ١ : ٤٠٠ .
(٥) حذاء : قارصة .
(٦) الاخدود : الشق في الارض . الضربة الاخدود : الضربة بالسيف تحدث جرحاً واسعاً .
(٧) الشذر : قطع من الذهب او الفضة توضع بين اللؤلؤة واللؤلؤة في العقد .
الكعاب : الفتاة اذا برز نهداها . الرود : اللينة ، الناعمة .
(٨) ص ١٧٩ — ١٨٠ .

وماكنت ذا فقر إلى صُلب ماله ، وما كان حفصٌ بالفقير إلى حمدي .
ولكن رأى شكري قِلادةَ سُؤْدُدٍ فصاغ لها سِلكاً بهياً من الرِّفد ؛
فما فاتني ما عنده من حِبائه ، ولا فاته من فاخر الشعر ما عندي[1].
ــ بقوافٍ هن البواقي على الدهـ ر ، ولكنّ أثمانهن مَواض[2] .

ثم لا يذهبن بك الظن إلى أنه يدعي ذلك ويتظاهر به ، فقد رُكِّب ذلك في نفسه ؛ روى الأصفهاني[3] أن أبا تمام أنشد عبدالله بن طاهر قصيدته « أهن عوادي يوسف وصواحبه ؟ » فنثر عليه ألف دينار ، فلم يَمَسّ منها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها حتى وجد عليه ابن طاهر ، وقطعه زماناً . ثم قلّب ديوانه حتى تصل إلى هذه الأبيات فتحسب أبا تمام إنما يتكلم عن نفسه لا عن الممدوح :

ماذا ترى فيمن رآك لمدحه أهلاً ، وصارت في يديك مصائرُه ؟
قد كابرَ الأيام حتى كَذّبت عنه[4] ، ولكنّ القضاءُ يكابره .
لا تنسَ من لم ينسَ مدحك ، والمنى تحت الدجى يزعُمنَ أنك ذاكره .
بكّرْ ، فقد بكّرتْ إليك بمِدْحة غُررُ القصائد ؛ خيرُ أمر باكره .
لا شيءَ أحسنُ من ثنائي سائراً ، ونداك في أفق البلاد يسايره[5] !

٢ ــ العناصر المساعدة

دخل أبو تمام بغداد بعد وفاة المأمون ، وقد لبست من الثقافة الأجنبية ثوباً

(١) ديوان خ ١٣٢ ــ ١٣٣ .
(٢) ديوان خ ١٨٨ .
(٣) الاغاني ١٥ : ٩٩ (بولاق) .
(٤) كذبت عنه : انثنت عنه وجبنت ، ومعنى البيت ان الشاعر غالب الأيام فقهرها ؛ ولكن قضاء الله هو الذي يغالبه الآن .
(٥) ديوان خ ١٥٦ .

قشيباً بفضل سعيه لنقـــل كتب الإغريق خاصة . ويحسن هنا أن نقول : إن أبا تمام جاء بعد ردح من الزمن فرأى الكتب منتشرة ، والثقافة شائعة في الناس . بدأ الخلفاء بالنقـــل منذ أيام المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، ولكن الثقافات المتضمنة في الكتب المنقولة اقتضت وقتاً حتى انتشرت بين الناس .

أما الجوالي اليونانية والفارسية والهندية ، سواء منها التي اعتنقت الإسلام — قديماً أو حديثاً — أو التي بقيت على أديان آبائها ، فانها كانت كتباً حية في المجتمعات وحلقات الأدب والعلم والجدل . وإذا كان بشار بن بُرد وأبو نواس وأبو العتاهية ومعاصروهم قد رأوا هذه الحركة في أولها ، وتعرفوا إليها في طفولتها فان أبا تمام قد شهد عُنفوانها وعاش في إبانها .

الثقافة اليونانية

هُزم النفوذ الفارسي في معركتين : الأولى يوم فتك الرشيد بالبرامكة وأتباعهم ومواليهم وصنائعهم ، فقضى على نفوذ الفرس في الحكم ، وقلص ظلهم الوارف عن قصر الخلد ؛ والثانية يوم ترك المأمون مرو وأتى إلى مدينة السلام ، ثم ما عتم فيها أن أعلن ترك الخضرة والرجوع إلى السواد : شعار بني العباس ؛ فقضى على أمل الفرس المستتر وراء النظرية العلوية في الخلافة ؛ غير أن ذلك لم يتعرض للثقافة الأدبية بشيء .

إلى جانب هذه الثقافة الأدبية الفارسية ازدهرت ثقافة علمية إغريقية . فبينما كنت ترى الناس يستمعون إلى الغناء الفارسي أو المنقول عن الفارسية ؛ أو تراهم يصغون إلى قُصاص الخرافات الفارسية أو يتفقهون بالأدب الفارسي والكياسة الفارسية ، اللذين استخرجهما ابن المقفع وأمثاله ، كنت تراهم يتجادلون في الفلسفة اليونانية ويتناقشون في كتب الإغريق العلمية . وكان للهند أيضاً ثقافة رياضية في بلاد الإسلام كلها . غير أن العرب لم يستفيدوا من أدب اليونان الفني .

وكان أظهرَ هذه الثقافات في شعر أبي تمام الثقافةُ اليونانية ، ولا عجب فقد

كانت الزي الشائع بعد المأمون كما أن الثقافة الفارسية كانت الزي في عصر هرون الرشيد . ولعل هذه الثقافة كانت أقرب إلى عقلية أبي تمام ، ربما لصلة نسبه بالروم ، وهو لم يتحرر من بيئته اليونانية إلا يوم أسلم دون أفراد أسرة على ما رأينا .

ثم توفي المأمون وترك وراءه نزعة من الحرية العقلية لم يعرفها الإسلام من قبل ولا عرفها من بعدُ : لقد تناولت هذه النزعة الدين بأوسع مظاهرها وفي أقدس مظاهره كالقول بخلق القرآن ، وجدال أهل الكتاب بلا قيد ولا رقيب ، ثم التفكير في ما حفظه الدين من الروايات . وحسبك في هذا المقام أن تعرف أن هذه كانت من قبله كفراً أو أقرب شيء إلى الكفر . ولا ريب في أن أبا تمام احتك بهذه أيضاً – وهو الشاعر العالم – واستفاد منها حتى ظهر بعض أثرها في حياته وشعره .

الزندقة والشعوبية

اتهم حبيب بن أوس بالزندقة ككثيرين غيره ؛ والزندقة يومذاك تهمة سياسية أو دعوى على رجل اتهم بما لا يمسّ الدين في أساسه . فيكفي أن يكون الإنسان متهتكاً في قوله دون عمـــله حتى يرمي بالزندقة . وقد يكون ملحداً كافراً فلا يسمونه إلا زنديقاً . من أجل ذلك ترى أن هذه الكلمة مطاطة باستطاعتك أن تجمع فيها الأضداد والقُرَناء . وقدا تُـهِـمَ أبو تمام بها ، قيل لأنه لم يصلّ الظهر في يوم بارد .

أما الشعوبية فلم تظهر في شعر صاحبنا ولا في حياته ؛ ليس ذلك فقط بل انه هجا من اتهموا بها وبالزندقة هجاء مراً . فلا عجب إذا بحثنا فيها عند الكلام على هؤلاء .

الاحداث والفتوح

لم يمثل الناحيةَ القوميةَ الدينية بمعناها الواسع حتى ذلك الوقت شاعر كما

مثّلها أبو تمام . ثم جرى كثيرون على أثره وحاولوا أن يلحقوا به ، ولم يبلغْه ويتقدمْ عليه غير شوقي .

كان فخر الجاهلي بقبيلته فحسب لا يعدو بضعة آباء خوفاً من أن يلتقي بجد قبيلة الشاعر الذي يفاخره ؛ وجاء العصر الأموي فكانت النقائض التي نسميّها نحن هجاء سياسياً ، فخراً محدوداً وشتائم كثيرة لا تعدو أيضاً قبيلة واحدة ، أو أسرة واحدة . أما أبو تمام فقد مدح الخليفة ، وهو رأس الامبراطورية العربية الإسلامية ؛ ومدح رجال الخليفة — وأكثرهم عرب — إذا كانت سيرتهم وأعمالهم في رضى الخليفة ، كما سنرى عند الكلام على فنون أبي تمام . ولقد أجاد الشاعر في جميع هذه القصائد إجادة عظيمة ، وخلق منها في ديوانه ناحية بارزة تنجلي فيها نفسه الكبيرة سيفاً مسلولاً على أعداء الخليفة الداخليين والخارجيين ، ومنطقاً فصيحاً ، وشعراً فخماً . ولنوجزْ الآن الكلام على خمسة من هذه الأحداث .

أ — العلويون

يظهر عطف أبي تمام على العلويين جلياً في عدد من قصائده لميله اليهم: كان يعتقد بحقهم في الخلافة ويأبى لما أصاب رجالهم على يد العباسيين ، وكان المأمون قد مال إلى العلويين ثم انقلب عليهم[1] .

خرج محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان . وبعد معارك متعددة انهزم فنجا إلى نسا ، فأخذه عامل نسا وأرسله إلى عبدالله بن طاهر أمير خراسان . وأرسله عبدالله بن طاهر إلى المعتصم فوافق وصوله إلى سامرا في ربيع الأول من سنة ٢١٩هـ (آذار ٨٣٤ م) فحبسه المعتصم ، ولكن محمداً احتال في ليلة الفطر (آخر رمضان ٢١٩ = ٥ تشرين الأول ٨٣٤) ، وقد اشتغل الناس بأمر العيد ، للهرب . ولم يعرف أحد مكانه بعد ذلك .

---

(١) راجع قصيدته : أظبية حيث استنت الكتب خ ١٦١ – ١٦٦ ، (وفوق ، ص ٤١–٤٣).
(٢) تاريخ الكامل ٦ : ٢١٢ .

ب ـ بابَك الخرمي

الخرمية « دين الفرح » ، ويعمل أتباعها على الأخذ بالملذات وعلى « الإباحية » فيتزوج الرجل أمه أو أخته أو ابنته ؛ ويؤمنون بتناسخ الأرواح . ولهم ناحية ثانية في مذهبهم هي كره العرب وكره دينهم ، والعمل على ردّ المزدكية ـ دين الفرس الشعبي ـ ؛ على أن هذه الحركة لم تقوَ إلا بعد اتصالها ببابك[1] في حديث يطول . فلما قويت قام بابك يحارب المسلمين معتصماً بجبال البَذّ منذ أيام المأمون . وقبل أن يتوفى المأمون أخذ في وصيته على أخيه المعتصم عهداً لِزاماً بأن يتغلب على بابك ولو أنفق كل ثمين . ولقد صدع المعتصم بذلك فلم يغزُ الروم ، ولم يوجّه جيشاً إلا إلى حرب بابك حتى انتصر عليه[2] .

أثارت هذه الحادثة حمية أبي تمام الدينية وخلدها في قصائد كثيرة من عيون قصائده في شعر يتدفق حماسة وبلاغة ، ثم قدم الأفشين ببابك الخُرَّمي على سامرا سنة ٢٢٣ هـ فقُتل بابَك فيها وصلب .

ج ـ فتح عَمورِيَة

كان الروم قد انتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بحروب بابك فجعلوا يغيرون على البلاد الاسلامية ؛ اويُؤوون اليهم بعض الثائرين على سلطة بغداد . وقبيل اسر بابك أغار ثيوفيلوس[3] ، ويسميه العرب : توفيل بن ميخائيل ، على

---

(١) بابك في الفارسية تصغير باب ؛ والباب بالفارسية : الاب، الجليل . وبابك تطلق على المرب، والمعلم. وهو أسم لملك أيضاً . (Steingass, Persian - English Dictionary, London, p. 135.

(٢) طالت حركة بابك عشرين سنة وروي انه قتل في اثنائها ٢٥٥,٥٠٠ انسان ثم تغلب الافشين على بابك واستخلص من في يديه من المسلمات واولادهن . وقد كافأ المعتصم الافشين بعشرين مليون درهماً (نحو نصف مليون ليرة ذهبية) .. وادخل عليه الشعراء يمدحونه وامر لهم بصلات ايضاً، وذلك في ١٥ ربيع الاول سنة ٢٢٣ فقال فيه ابو تمام قصيدته : و بذ الجلاد البذ فهو دفين » الطبري (مصر) ١٠ : ٢٣٣ ؛ خ ٢٢٦ - ٢٢٨ ؛ تاريخ الكامل ٦ : ١٢٥ ، ١٨٢ ، ١٨٩ - ١٩٣ . والفهرست ٤٨٠ - ٤٨٢ .

(٣) Cf. Finlay, Hist. of Byz. Emp. ch. III. Sect. ii

زِبَطرة[1] : مولد ِ امّ المعتصم، وقيل بل مولد المعتصم؛ وخربها ثم أوقع بأهلها . في هذه الاثناء اتصل بالمعتصم ان امرأة هاشمية صرخت ، وقد هاجمها العلوج : « وآمعتصماه » . فصرخ وهو على سريره : « لبّيْكِ » . ونهض من ساعته . واستعد اعظم استعداد (٢٢٣هـ) .

لقد خرب توفيل مدينة لها ذكرى في قلب المعتصم ، فاراد المعتصم ان يقابله بمثل عمله ؛ فسأل عن اعظم مدينة عند الروم ، فقيل هي عَمُّورِيَّةُ . ولعل لذلك سبباً آخر هو ان عمورية بلد الدولة الحاكمة ومولدها وإليها تنسب . ففتح عمورية ، اذن ، كان مغامرة شعرية جميلة فوق ما انطوت عليه من الاهمية التاريخية التي حملّت الروم ذُلاّ تلمسه في قصيدة فتح الفتوح[2] .

د — مازيار

كان مازيار هذا قد اظهر الخلاف على امير خراسان عبد الله بن طاهر ؛ وفي عام ٢٢٤ هـ خرج عليه بطرستان وامتنع عن ارسال الخراج . لكن عبدالله تمكّن بوساطة احد عماله من ان يقبض على مازيار ويرسله الى سامرا ، فيقتله المعتصم عام ٢٢٥ هـ .

هـ — حرق الأفشين

لما ظهرت حركة بابك أُرسل الأفشين لقتاله ؛ ولكن الافشين جعل يطاول بابك ، فاثارت هذه المطاولة شكاً حوله ، وظنها الكثيرون محاباة للثائر وعطفاً عليه . ثم تتابعت سلسلة من الأدلة جعلت الافشين متهماً لدى الخليفة : منها ارساله الأموال الى اشروسنة (بين نهر سيحون وبلدة سمرقند) سراً ، قيل لتأييد الدعوة الى الدين المجوسي وردّه ؛ وقد ثبت ان أهالي أشروسنة كانوا يبدأون

---

(١) زبطرة Zapetra بلدة بين ملطية وسميساط والحدث، فتحها المعتصم سنة ٢٢٣ هـ (ياقوت ٢ : ٩١٤) .

(٢) « السيف أصدق انباء من الكتب .. »

كتبهم الى الافشين بهذا العنوان : « الى اله الآلهة ... » ؛ وانه كان لدى الافشين كتاب في الديانة القديمة مُحلّى بالذهب والجواهر ؛ وانه كان يكاتب اتباعه ويكاتبونه متربصين بالعرب الدوائر . وزاد في النقمة على الافشين سعيُه بعبد الله ابن طاهر وطمعه بإمارة خراسان مكانه .

كل هذه البينات تجمعت لتدين الافشين فلم يرَ المعتصم بداً من قتله ؛ ولكن السياسة اضطرته الى تجاهل امره حتى ينجليَ الموقف في خراسان ؛ فتركه اميراً عاماً للجند في المشرق ، ولكن جعل على بعض اقسام الجند قادة يطمئن الى ولائهم : منهم ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، وابو دُلَف العِجلي ، يساعدهما عبد الله بن طاهر والي خراسان .

وتغلب المسلمون على بابك ولم يقتل المعتصمُ الافشينَ ، لحرصه على الاستفادة من مواهبه العسكرية في حرب الروم ايضاً بعد ان عزم على مهاجمة عمورية . فلما فُتحت عمورية وغُلبت الروم ؛ ولما خضَد الخليفة شوكة الثائرين في المشرق ومكّنه الله من اعناقهم ، لم يبق للمعتصم في الافشين مأرُبة فقتله وصلبه ، ثم احرقه . فأضاف ابو تمام الى قلائده الخالدة قِلادة جديدة ، وانشد المعتصم مِدحة جديدة يبدأها ببسط تُهم الافشين ، وينهيها بطلبه الى الخليفة ان يعقد لابنه الواثق ولاية العهد ؛ وذلك عام ٢٢٥ هـ[1] :

الحقّ أبلجُ ، والسيوفُ عَوارِ[2] ؛ فحَذارِ من أسَدِ العرين حَذارِ !

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٢١٠ ؛ خ ١٥١ – ١٥٥ .

(٢) ابلج : ظاهر ، واضح ؛ عوار (ج عارية) مجردة .

الخصائص الأدبية في شعره

ان الأمم تختلف في أساليب تفكيرها ، نعلم ذلك مما نراه عندها من بناء جُملها وتراكيب كلامها وأنواع مجازها واستعاراتها وكناياتها — كل أمة حسب بيئتها وتطورها وثقافتها . وكذلك أفراد الأمة الواحدة فانهم يختلفون أيضاً في طرائق تفكيرهم ، قوة وضعفاً أو بُعْدَ غَوْرٍ وقرب مُتَناوَل ، كل حسب بيئته واستعداده الطبيعي والفكري وحسب ثقافته .

١ — خصائصه المعنوية

لم تبرز هذه الظاهرة في شاعر عربي بروزها في ابي تمام ؛ حتى قال النقاد عن شعره إنه معقَّد ؛ وعن معانيه انها مقتسرة مأخوذة بعنف . على اننا لو انعمنا النظر لوجدناه يفكر بطريقة صحيحة ، ولكنها بعيدة عن مألوف الرجل العادي . ان أبا تمام مثقف حافظ ، مطلع على الحركات الفكرية التي كانت في أيامه ؛ وهذه عناصر كلها تتضافر على صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريباً في نظر القارىء العادي ، وليس هو على الحقيقة كذلك . ثم أي فضل لشاعر — او لأي رجل آخر — اذا كان يحرك لسانه بما انتجته قرائح الناس ؟

ولقد صدق ابن رشيق حين قال[1] : « وانما سمي الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لم يشعر به غيره ؛ فاذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراعه ... او صرف

---

(١) العمدة ١ : ٩٦ .

معنى عن وجه الى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ؛ ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي ، مع التقصير ... » ثم قال : « وانما السبق والشرف في المعنى[1] ! » .

وإليك هنا مثالين من تقصير الناس في فهم معاني أبي تمام .

خطأ الآمدي[2] أبا تمام في قوله[3] :

فلويتَ بالمعروف أعناقَ المُنى ، وحطمْتَ بالإنجاز ظهرَ الموعدِ .

فزعم استعارة الظهر للموعد قبيحةً ، والمعنى المستخلص من حطم الظهر رديئاً[4] ؛ ولا أرى إلا أن أبا تمام تخيل أن ينجز الإنسان وعداً قبل أن يقطعه ثم يستغني عن الوعد مرة واحدة ، فيعطي المعتفين حالاً ، فلا يجري الوعد على لسانه . وكل ما في نقمة النقاد منه أنه نظر إلى المعنى من حيث لم يتعود الناس أن ينظروا إليه من قبل ، ودليلنا على ذلك قول أبي تمام نفسه[5] :

يرى الوعدَ أخزى العار ، إن هو لم تكن مواهبه تأتي مقدّمة الوعدِ .

وخطأه الآمدي أيضاً[6] في قوله[7] :

يَقِظٌ ، وهو أكثرُ الناس إغضا ءً على نائلٍ له مسروقِ .

وكل ما في الأمر أن الآمدي لم يتعود أيضاً أن يرى النائل (العطاء) مسروقاً . انّ ما يكون مسروقاً ، في رأيه ، هو المال المغصوب ؛ أما ما يعطيه الرجل فلا يمكن أن يكون مسروقاً . ولا ريب عندي أبداً في أن أبا تمام قصد أن الشاعر يأخذ الممدوح بالشعر الجميل حتى يسلبه مالاً ما كان ليُعْطِيَه إياه لولا

(١) العمدة ١ : ٧٤ ، السطر ٥ — ٦ .
(٢) الموازنة ٩٥ .
(٣) ديوان خ ١١٣ .
(٤) انظر شرح الاسود ١ : ٢٦٥ ، امراء الشعر ١٥٥ .
(٥) ديوان خ ١٣٠ .
(٦) الموازنة ٩٩ .
(٧) ديوان خ ٢٢٠ ؛ سر الفصاحة ٢٥٠ .

هذا الشعر .

وعلى كل فلنذكر أن الآمدي – جد متحامل على أبي تمام، جد محابٍ للبحتري .

شغف أبي تمام بالإغراب

قال الآمدي في كتابه « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » ، على لسان صاحب أبي تمام : « إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه (هو) ، وفهمه العلماء والنقاد في علم الشعر »[1] . وكان مثال ذلك ما جرى يوم قصد أبو تمام عبدالله بن طاهر ومعه قصيدة يمدحه بها مطلعها : أهنّ عوادي يوسف وصواحبه[2] . فلما عرضها على كاتبين لعبدالله بن طاهر قالا له : « لِمَ تقول ، يا أبا تمام ، ما لا يُفهَم ؟ » فأجابهما فوراً : « لِمَ لا تفهمان ما يقال؟ » . فكان هذا مما استُحسِن من جوابه[3]. ثم انهما سرّا بأبيات منها سروراً حملهما على رفعها إلى عبدالله بن طاهر .

وكان في الآمدي تحامل على أبي تمام ، ومع ذلك فاننا نجده يقول[4] : « ..... لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والاغراب فيها والاستنباط لها » . ولكنه يقول أيضاً : « وأبو تمام يتبهرج شعره عند التفتيش والبحث ، ولا تصحّ معانيه على التفسير والشرح »[5] .

ولا ريب في أن أبا تمام كان يوغل في طلب معانيه . ولقد أنصف كتاب أمراء الشعر[6] في نقل رأي ابن رشيق[7] : « وأما حبيب (أبو تمام) فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً أو كرهاً ،

---

(١) الموازنة ٩ .

(٢) راجع هبة الايام ٢٦ وما بعدها ، ١٣٤ .

(٣) الموازنة ١٧٠–١٧١ .

(٥) الموازنة ١٥ .

(٦) ص ١٩٣–١٩٤ (الطبعة الثانية ١٩٦٠) .

(٧) العمدة ١ : ١٠٩ .

يأتي للأشياء من بعد . ويأخذها بقوة » ...

« و يراد بذلك هيامه بالغريب من المعاني التي يُحتاج في تفهمها إلى تأمل ومشقة . تراه يغطي مقاصده بشيء من الإبهام . فاذا كشفته بان لك جمال خلاب يستهويك ويزيدك ترنحاً بها . ومن هنا (تنشأ) هذه الصعوبة التي يعاينها من يطالع ديوانه . فانه قد يقف حائراً أمام طلاسمه وغموض معانيه، حتى إذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها ما يلذه من صور جميلة ومعان رشيقة [1] ».

كل شعر يبدأ نهضة فهو غامض : كذلك الشعر الجاهلي الأول ، فشعر امريء القيس أكثر غموضاً من شعر زهير للزمن الذي بينهما ؛ وشعر الطرِمّاح أشد تعقداً من شعر جرير ! وكذلك شعر مسلم بن الوليد أحياناً ، وشعر ابن الفارض ؛ وكذلك أيضاً شعر شكسبير والروائيين الإفرنسيين الأول وشعر غوته سيد شعراء ألمانيا . ولعل أشعار فيرجيل ودانتي لا تخرج على حدود المبدأ الذي نتخذه .

أفنعجب بعدئذ ، إذا رأينا غموضاً في بعض شعر أبي تمام وهو الذي أوجد طريقة الشاميين ، وكان أولَ من حلّى الشعر العربي بالصناعة اللفظية المقصودة ؟

فمن إغراب أبي تمام ، إذن ، قوله :

— وقد كانت الأرماح ابصرْنَ قلبَه فأرمدها سِتر القضاء الممدّد [2] .

— رقيق حواشي الحِلمِ ، لو ان حُلقَه بكفّيكَ ما ماريْتَ في أنه بُرْدُ [3] .

— قد كان عُذرةَ مغربٍ فافتضّها بالسيف فحل المَشرقِ الأفشين [4] .

---

(١) امراء الشعر ١٩٤ (الطبعة الثانية ١٦٠ — ١٦١) .

(٢) خ ١٠٢ — يتخيل الشاعر هنا ان للرماح عيوناً ابصرت المقتل (من بابك الخرمي) ولكن قضاء الله الذي لم يكن قد حان بعد مد بين عيون الرماح وبين قلب بابك ستراً امرضها فاضلت المقتل (ونجا بابك) .

(٣) خ ١٢١ — يخبرنا ابوتمام ان الممدوح (محمد بن الهيثم) لين العريكة طيب النفس ، حتى لو ان اخلاقه تجس باليد لما شك انسان في أنها ثوب من الحرير رقيق. راجع سر الفصاحة ٢٤٩ .

(٤) خ ٣٢٦ — ما زالت مدينة البذ (معقل بابك) بكر محصنة بعيدة المنال حتى استطاع القائد الافشين التركي (المشرق) ان يكون اول بان بها (متزوج بها = اول من أخذها عنوة) .

— وركْبٍ يُساقون الرِّكابَ زُجاجةً من السير لم تَقْصِدْ لها كفُّ قاطبٍ،
فقد أكلوا منها الغواربَ بالسُّرى، وصارت لها أشباحهم كالغوارب[1].

ولكن يجب ألا نجفِلَ كثيراً من الغموض والتعقيد في الشعر، كما يقول نفر من النقاد، فان الشعر لا يمكن أن يكون الكلامَ المُتَداوَلَ المألوفَ. من من أجل ذلك وجب أن نغتفر للشعراء كثيراً مما يظهر في شعرهم من ذلك.

«ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لَوَجَبَ ألا يُرى لأبي تمام بيتٌ واحد؛ فانّا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وَفَرَ من التعقيد حظّهما وأفسد به لفظهما. ولذلك كثُر الاختلاف (أي اختلاف الناس) في معانيه، وصار استخراجها باباً منفرداً ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب، وصارت تُتطارح في المجالس مطارحة أبيات المعاني وألغاز المُعَمّى»[2].

وهذا يكاد يكون عاماً في الشعر كله، قال الجرجانيّ:[3] «وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو مُحْدَث إلا ومعناه غامض مستتر؛ ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر، ولم تفرَدْ فيها الكتب المصنفة، وتشْغَلْ باستخراجها الأفكار الفارغة[4]». على أن الذي يُؤخَذُ على أبي تمام أن ديوانه مشحون بالغموض والتعقيد[5].

قوي الفكر غوّاص على المعاني.

قال المبرّد[6] «لأبي تمام استخراجاتٌ لطيفة ومعانٍ طريفة، وهو صحيح

---

(١) خ ٤١؛ امراء الشعر ١٩٦ – ١٩٧ – يجعل ابو تمام السير خمراً صرفاً وغير ممزوجة يدير ها الركبان بينهم فتورثهم شدة في سيرهم من غير تفكير بمآل؛ ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها؛ وكان السير الكثير ايضاً قد انحلهم هم انفسهم فأصبحت أجسامهم النحيلة كأنها هي سنام الابل (راجع ايضاً شرح التبريزي ١: ٢٠٩).

(٢) الوساطة ٤٣٠ – ٤٣١.

(٣) الوساطة ٤٣١.

(٤) الافكار الفارغة: التي ليس لها مشاغل.

(٥) الوساطة ٤٣٣.

(٦) اخبار ابي تمام ٩٦ – ٩٧؛ أخبار البحتري ١٦٤ – ١٦٥.

الخاطر حسن الانتزاع (للمعاني وللصور الشعرية). وأبو تمام يقول النادر والبارد، وما أشبهه إلا بغائص يخرج الدرّ والمَخْشَلَبة[1]». والصولي يقول[2]: «ان أبا تمام يصنع الكلام ويخترعه ويتعب في طلبه حتى يُبْدِع، ويستعير ويُغْرِبُ في كل بيت إن استطاع .... وأبو تمام لا يسقط معناه البتّة، وإنما يختلّ في (بعض) الوقت لفظُه. فاذا استوى له اللفظ» (ذلك) «هو الجيّد من شعره النادر الذي لا يُتعلّق به».

تفاوت شعره

بدأ الآمدي حجاجه عن البحتري وحملته على أبي تمام بقوله[3]: «ووجدتُ - أطال الله عُمرَك - أكثرَ من شاهدته ورأيته من رُواة الأشعار المتأخرين يزعُمون أن شعر أبي تمام لا يتعلّق بجيده جيّدُ أمثاله، ورديئُه مطروح مرذول». وعلى هذا سار الأصفهاني فقال[4]: «والسليم من شعره النادر شيء لا يَتعلّق به أحد، وله أشياء متوسّطة، و (أشياء) رَذِلَة جداً». كل هذه الأحكام ترجع بلا ريب إلى قول البحتري عن أبي تمام وعن نفسه[5]: «جيّده خير من جيّدي، ورديئي خير من رديئه».

ولقد أنصف الجرجاني لما استعرض أقوال النقّاد في أبي تمام ثم وازن بين هذه الأقوال وبين شعر أبي تمام، وقد استشهد ببعض غُرَره وقلائده، فقال[6]: رأيت أبا تمام .... يترقّى في هذه[7] الدُرَج العالية ويتصرّف هذا التصرف المعجز، ثم ينحط إلى الحضيض ويلصق بالتراب». ويلوم الجرجاني

---

(١) خرز أبيض يشبه اللؤلؤ.

(٢) أخبار البحتري ١٦٥ - ١٦٦، راجع ٥٧ - ٥٨؛ غ ١٥ : ٩٦.

(٣) الموازنة ١.

(٤) غ ١٥ : ٩٦.

(٥) أخبار البحتري ٥٧.

(٦) الوساطة ٦٥، راجع ١٨، ٢١، ٦٢ - ٧٨.

(٧) في الاصل «هذا». - الدرجة (بالضم، أو بفتح ففتح، أو بضم وفتح): المرقاة.

أبا تمام — مع شدة حبه له[1] — على أنه يأتي بالأبيات الرائعة الأنيقة ، ثم يأتي له في أثنائها بيتٌ ضعيف فيقلق هذا البيت الضعيف في موضعه وتتخلخل القطعة كلها . ان البيت الضعيف إذا جاء في أثناء أبيات بارعة أو متينة اشتد ضعفه بروزاً ، كما أن البيت البارع المتين إذا وقع في الأبيات السخيفة الركيكة ضاع جماله ولحقته هُجنة . ويتمنّى الجرجاني أن لو كان أبو تمام قد حذف الأبيات الغثة الركيكة من ديوانه ولو ذهب في ذلك نصف شعره . ويردّ الجرجاني أكثر عيوب أبي تمام إلى شدة تكلفه للمعاني البعيدة وإلى الجِدّ في تطلب البديع ، فان التكلف ، في رأي الجرجاني[2] ، « قد يكون سبباً إلى طمس المحاسن » .

التشبيه والاستعارة

ويتبع أغراب أبي تمام في المعاني عموماً ، بُعدُ تشابيهه واستعاراته . ولكن لا يعزبنّ عن بالك أن الناس يميلون إلى ما ألِفوا ويصدون عما لم يَعرِفوا . وقد صرّح بذلك الآمدي[3] فقال عن أبي تمام : « ولو ... اقتصر من القول على ما كان مَحْذُوّاً حذْوَ الشعراء المحسنين ... لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثرَ الشعراء المتأخرين » . وعلى هذا انتقد له « رقيق حواشي الحلم » لأنه ما علم أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة ، وإنما يوصف الحلم بالعِظَم والرّجحان والثقل والرزانة ... »[4] وانتقد له :

من الهيف لو أن الخلاخلَ صُيِّرت   لها وُشُحاً جالت عليها الخلاخل .

فقال « وهذا الذي وصفه أبو تمام ضد ما نطقت به العرب ... »[5] ، لأن

---

(١) قال الجرجاني : « ولست أقول هذا غضاً من أبي تمام ، ولا تهجيناً لشعره ، ولا عصبية عليه لغيره . فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ، وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع » (الوساطة ١٨) .

(٢) الوساطة ١٨ .

(٣) الموازنة ٥٦ .

(٤) الموازنة ٥٧ ، ثم ٥٧ — ٥٩ ، راجع الوساطة ٧٦ .

(٥) الموازنة ٥٩ ، الوساطة ٧٦ .

العرب تجعل الخلاخل ضيقة في الأرجل ، وتحب النساء البدينات . وانتقد له «عرض الدهر» ، «والزمان لا عرض له على الحقيقة»[1] .

وأخذوا على أبي تمام من استعاراته قوله[2] :

فضربتَ الشتاء في أخدعيْه ضربةً غادرته قَوْداً رَكوبا ،

وقوله : «يا دهر قوّم من اخدعيك[3] ...» فالآمدي لا يعترف للشتاء باخدعين «عرقا العنق» ، وإنما هما للبشر أو للاحياء على الأقل . ثم ان الأستاذ ضومط يساير الآمدي الى حـدّ فيقول : «إنه (أي أبا تمام) يصور الشتاء بعيراً صعباً وقد ركبه الممدوح فعاصى عليه في سيره فضربه ضربة شديدة في كل من اخدعيه فذل وأطاع ؛ ... ان الاستعارة بالكناية في البيت بعيدة عن المألوف ، ويصعب على الذهن تصورها» .

فأنت إذا رأيت الأسس التي ، اتخذها النقاد لنقد شعر أبي تمام ، علمت أنها صحيحة بالإضافة إلى أنفسهم — أي إلى ما ألفوا وما لم يألفوا — لا بالإضافة إلى ما يمكن أن يفهم منها بعد إعمال الفكر . ولا ريب عندنا في رجاحة رأي ابن رشيق : «والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فان وقع فيه منهما شيء فبقدر . ولا يجب أن يجعلا نصب العين ويكونا مُتكئاً واستراحة ؛ وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس وهز الطباع ...» ، ثم نقل ابن رشيق رأي الجاحظ في مكان آخر فقال : «أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ... فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان . وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكر الجاحظ لذ سماعه وخف محتمله وقرب فهمه وعذُب النطق به[4] ...» .

على ان تكلف أبي تمام قد جعل كثيراً من استعاراته سيئة لنفرتها في الذوق

---

(١) الموازنة ٨٢ .

(٢) ديوان خ ٢٧ ، الوساطة ٦٨ ، راجع ٤٤٦ ؛ سر الفصاحة ١١٧ ؛ راجع أمراء الشعر ١٦٢ .

(٣) الموازنة ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، الوساطة ٤٤٦ ، مجلة الكلية آذار ١٩١٤ .

(٤) العمدة ١ : ٨٣ ، ثم ١٧١ — ١٧٢ .

واستحالتها في العقل كقوله مثلاً[1] :

باشرتُ أسبابَ الغِنى بمدائحٍ ضربتْ بأبواب الملوك طُبولا .

ومرد هذه السيئة عند أبي تمام ، في رأي الجرجاني ، ان الشعراء كانوا يَجرون في الاستعارة « على نَهج منها قريب من الاقتصاد ، حتّى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرُخصة فأخرجه إلى التعدي » .

ولكن يجب ألا نقرّ النقاد على كل شيء أخذوه على أبي تمام ، أو على غيره ، فقد لا يكون المعنى من السوء بحيث يظنون ولا الاستعارة من البعد بحيث يَحسَبون . روى الجرجاني[2] بيت أبي تمام (ديوان خ ٧٥) :

شاب رأسي ، وما رأيتُ مَشيبَ الـ رأس إلا ممن فضل شيب الفؤاد .

ثم قال : « وهذا مما استقبح من استعاراته » ، يقصد استعارة الشيب للفؤاد (للقلب) . ولعل الجرجاني قد أُتِيَ في ذلك من استغراب نفر من جلساء أحمد بن أبي دؤاد لهذا البيت . هذا البيت من قصيدة قالها أبو تمام في مدح أحمد بن أبي دؤادَ ، هي[3] :

سَعِدت غُربةُ النَوى بسُعاد فهي طوعُ الإتهام والإنجاد .

قيل لما وصل أبو تمام إلى البيت : « شاب رأسي .... » قال بعضهم : وكيف يشيب الفُؤاد ، فرد عليهم أبو تمام قبل ، ببيت ارتجله :

وكذاك القلوبُ في كل بؤسٍ ونعيمٍ طلائعُ الأجساد .

قد تكون الاستعارة بعيدة : « أي تشبيهُ القلب بانسان يشيب رأسه » ، ولكن المعنى صحيح . يقصد أبو تمام — مما رأينا من البيت الذي ارتجله رداً على من اعترضه في ذلك — أن الشيب في الرأس علامة على ضعف المنّة الجسدية . ان الشيب الطبيعي يأتي من التقدم في السن ، والتقدم في السنّ يجعل الجسم

(١) الوساطة ٣٩ .

(٢) الوساطة ٢٥٠ .

(٣) ديوان خ ٧٥ — ٧٨ .

ضعيفاً . فالشيب الذي يأتي أيضاً مع تقدم السن هو علامة ظاهرة على الضعف المستتر في الجسم . وصرّفَ التبريزيّ البيتين بيُسرٍ ، إذ قال في معنى البيت الأول : « أي ما شبت للكِبَر ، إنما للهُموم » . وقال في شرح البيت الثاني « أي كلّ ما يحدث بالجسم فاعلم انه بدأ بالقلب أولاً »[1] .

نحن نعلم أن شعر أبي تمام ليس من هذا النوع الذي يَقرُبُ فهمه ويَعذُبُ النطقُ به . ولكنه من ذلك النوع الذي تَطرَبُ له العقول المثقفة والأفكار النيرة وأهل الاطلاع الواسع ؛ وكل ذنب أبي تمام عند قوم آخرين انه بحث عن أوجه للشبه جديدة واستعارات بعيدة عن المألوف أوحى بها إليه اطلاعه الواسع وفكره القوي وروحه الوثاب ، فاستبعدها الناس واستغربوها وحملوا عليه من أجلها.

وينصف الجرجاني حينما يقول : ان إساءة الشاعر في بيت أو في قصيدة لا تسقطه من الشعراء ولا تقدح في شاعريته[2] . إلا أن نفراً من النقاد المحدثين كانوا يفضلون الجاهلي والإسلامي (الأموي) ثم يُقرّون للطبقة الأولى من المحدثين أمثال بشار وأبي نواس بشيء من الفضل ثم لا يَرَوْنَ فضلاً لمتأخر قَرُب زمانه من زمانهم[3] . وكان هؤلاء يتحاملون على الشاعر المحدث ولو كان محسناً . وربما سمع أحدهم الشعر غير منسوب فاستحسنه وطرب له ، ثم إذا نسب ذلك الشعر إلى قائله ، وكان قائله مُحدَثاً، ذمه وتبرأ من رأيه الأول[4] . وعلى هذا كان بعض النقاد ينفضون يدهم من أبي تمام مرة واحدة[5] .

كثرة اختراعه

قال ابن رشيق[6] : « وأكثر المولدين معانيَ وتوليداً ، فيما ذكر العلماء ،

---

(١) ديوان ، شرح التبريزي ١ : ٣٦٠ .
(٢) راجع الوساطة ٤٣٠ – ٤٣١ .
(٣) راجع الوساطة ٤٨ ، ٤٣٣ .
(٤) راجع الوساطة ٤٨، ٥٠، راجع ٧٨، ٤٣٣ .
(٥) الوساطة ٤٨ .
(٦) العمدة ص ١ : ١٨٩ .

أبو تمام » ؛ ولكنه شخصياً يميل إلى إعطاء هذا المركز لابن الرومي[1] ، مع أنه كان قد شركهما فيه قبل بضع عشرة صفحة[2] حيث قال : « وأكثر المولدين اختراعاً وتوليداً ، فيما يقول الحذاق ، أبو تمام وابن الرومي .. »

والاختراع عند ابن رشيق خلق المعاني التي لم يُسبق إليها ، والإتيان بما لم يكن منها قط . وأما ابن الأثير فأشد تحفظاً في أحكامه ؛ جاء في كتابه[3] « قد قيل ان إبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين اختراعاً للمعاني ، وقد عددتُ معانيه المبتدعة[4] فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . وأهل هذه الصناعة يُكبرون ذلك ؛ وما هذا من أبي تمام بكبير ![5] » .

وإلى هذا أيضاً ذهب أبو الفرج الأصفهاني[6] فقال عنه « شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة ، دقيق المعاني ، غوّاص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره » . إلا أن النقاد لا يتفقون على أنه مطبوع .

اعتداده بشعره

نظر أبو تمام إلى نفسه فرأى قوة فكره ورأيه فقال[7] :

فاسمع مقالة زائر ، لم تشتبه آراؤه عند اشتباه البيد .
— ليت شعري ماذا يَريبك مني ، ولقد فُقت فِطنة الفيلسوف .

وأنت كيفما قلبتَ في ديوانه وجدتَ فكراً لا يكلّ على المدى بل يزداد دائماً قوة ونُضجاً ، وكأنك من معانيه أمام سيل لا ينقطع . ويكفيه فخراً أنه جرح صحة تلك الفكرة القائلة : « ما ترك الأوائل شيئاً للأواخر » ثم

---

(١) ص ١ : ١٩٠ .
(٢) ص ١٧٧ .
(٣) المثل السائر ١ : ١٩٣ .
(٤) لا شك في انه يقصد المخترعة . انظر العمدة ١ : ١٧٠ .
(٥) راجع النماذج في الكلام على الفنون والاغراض : الحكمة والزهد .
(٦) الاغاني ١٥ : ٩٦ .
(٧) ديوان خ ص ٨٤ ، ٤٠٤ .

دلّ عـــلى أن قول عنترة « هل غادر الشعراء من متردم ؟ لا يعني أن الأقدمين أتَوْا على جميع المعاني ؛ وعلى ان بيت زهير[1] :

ما ترانا نقول إلا مُعـــاراً أو مُعاداً من قولنا مَكرورا

اما منحول أو انه حكم شخصي خاص . أما أبو تمام فيقول عن قصائده (ديوان خ ١٤٣) :

يقول من تَقرَعُ أسماعَه : كم ترك الأوّلُ لـلآخِرِ !

وظفر ابن رشيق[2] بهذا البيت فقال : « وعلى هذا القياس يُحمل بيت أبي تمام — وكان إماماً في هذه الصناعة غير مُدافَع — : « يقول من تقرع أسماعه.. » فنقض قولهم : ما ترك الأول للآخِرِ شيئاً .

وقال أبو تمام في مكان آخر فزاد بياناً وكشفاً !

فلو كان يَفنى الشعرُ أفناه ما قَرَتْ حياضُكَ ، منه ، في العصور الذواهب

ولكنه صَوْبُ العقول ، إذا انجلت سحائبُ منه أُعقبت بسحائب[3] .

ويؤكد لنا أبو تمام ذلك بقوله عن قصائده (ديوان خ ٨١) :

مُنزّهة عن السَرَق المُوَرّى ، مُكرّمـــة عن المعنى المُعـــاد[4] .

---

(١) هذا البيت من قصيدة منسوبة لكعب بن زهير (ديوانه ، صنعه ابي العباس احمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب . Bibl, D.M.G. fol. 125a, Cod. Soc. 83 وليس في ديوان زهير (المجموع نفسه) . وليس هـــذا البيت في ديوان زهير (القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م . وفي « شرح ديوان كعب بن زهير » من صنعة السكري (القاهرة ، دار الكتب ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م ، ص ١٥٤) :
ما أرانا نقول إلا رجيعاً الخ .

(٢) العمدة ١ : ٥٧ .

(٣) ديوان خ ٤٣ ، ديوان ، الاسود ١٢٤ . لو كان الشعر مقداراً محدوداً ينتهي لانتهى منذ زمن طويل لكثرة ما أعطوت الشعراء على مدحك . ولكنه صوب العقول (انسكاب من العقول كانسكاب المطر من الغمام) كلما تلاشت غمامة (يتحول مطراً يسقط على الأرض) تبعتها غمامة اخرى (راجع ايضاً المختارات) .

(٤) الاغاني ١٥ : ٩٧ .

ومعاني أبي تمام على كثرتها جيدة ؛ وحسبك أن يقول عمارة بن عقيل وقد سمع له أبياتاً من قصيدته : غدت تستجير الدمع خوف نوى غد : « لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه إليه ، حتى لقد حبب إلي الاغتراب ! » ؛ يقصد بذلك قول شاعرنا (ديوان خ ١٠٠ - ١٠١) :

وطول مُقام المرء في الحي مُخلق لديباجتيه ، فاغترب تتجدد .
فاني رأيتُ الشمس زيدت محبةً ، إلى الناس ، أن ليست عليهم بسرمد .

مطالعه وتخلصه وخواتيمه

في النقاد نفر يرون أن تكون مطالع القصائد بارعة جداً لأن المطالع أول ما يقرع الأذن من القصيدة ، ويسمون ذلك براعة الاستهلال وحسن الابتداء . ويرى هؤلاء أن المطلع إذا كان حلو الألفاظ واضح المعنى متين التركيب ترك في نفس السامع أو القارىء أثراً باقياً قد لا يمحي ولو جاء في القصيدة عدد من الأبيات الرديئة . ومطالع أبي تمام بارعة في الأكثر ، وخصوصاً في الحوادث الكبار ، فمن مطالعه الجيدة :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب .
- من سجايا الطلول ألا تجيبا فصوابٌ من مقلتي أن تصوبا .
- الحق أبلج ، والسيوف عوارٍ ؛ فحذار من أسد العرين حذار !
- كذا فليجل الخطبُ وليفدح الأمرُ ، فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ .

ولكن له أيضاً مطالع لم تستحسن لما فيها من التعقيد أو لنفرتها في الذوق أو لغموض معناها . من هذه مثلاً (ديوان خ ٣٢١) :

خشُنْتِ عليه ، أختَ بني خُشينِ ؛ وأنجحَ فيكِ قولُ العاذليْنِ[١] .

---

(١) الاصل في خشن كسر الشين ، ولكن الرواية في الديوان بضمها . وبنو خشين قبيلة من اليمن (راجع شرح التبريزي ٣ : ٢٩٧) . - يقول : قسوت عليه ، أيتها الفتاة ، وقد صدقت فيه قول العذال (اللائمين ، الاعداء) .

ومن خصائص الشاعر المجيد « حسن التخلص » : أيِ الانتقال في القصيدة من غرض إلى غرض (من الوقوف على الأطلال إلى الغزل فالى المدح فالحكم مثلاً) انتقالاً طبيعياً معقولاً سريعاً، لا ان يتعثر الشاعر في انتقاله هذا فاذا به يقف في غرض وكأنه انتهى من مَقْصِدِه ثم يبدأ فجأةً بالغرض التالي . وإذا كان التخلص من غرض الى غرض في بيت واحد كان ذلك احسن . ومما يُحمد لأبي تمام من التخلص قوله في بيتين يمدح بهما عبد الله بن طاهر ، وقد استغرب رفاقُه بُعْدَ سفره :

يقول في قَوْمَسٍ صحبي ، وقد أخذت ... منا السُرى وخُطى المَهْرِيةِ القُودِ [1] :
أمَطلعَ الشمسِ تبغي أم تَؤمّ بنا ؟ ... فقلت : كلا ، ولكن مَطلِعَ الجودِ ! [2]

ويرى الجرجاني [3] أن أبا تمام قد ذهب في التخلص كل مذهب واهتم به كل اهتمام . غير أن حسن التخلّص في ديوان أبي تمام قليل جداً ، ذلك لأن أبا تمام شاعر مصنوع مقتدر ، لا شاعر مطبوع يجري على السجية . تأمّل قوله مثلاً يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري (خ ١٠٨) :

تريدين المزيدَ ، وليس عندي ... وراءَ محلِّ حبك من مزيد .
أما ، وأبي الرجاء، لقد ركبنا ... مطايا الدهر من بيض وسود .
قلائصُ شوقهن يزيد شوقاً ... ويَمنَعْنَ الرُقاد من الرقود .
إذا انبعثت على أملٍ بعيدٍ ، ... فقد أدْنَتْ من الأمل البعيد .
أبَيْنَ فما يَزُرْنَ سوى كريم ؛ ... وحسبك أن يَزُرْنَ أبا سعيد !

فأبو تمام ينتهي من الغزل والنسيب فجأة ثم يبدأ وصف الراحلة . غير أنه يختصر الانتقال من وصف الراحلة الى المدح .

---

(١) خ ١٣٦ . — اخذت منا (نهكتنا، اتعبتنا). السرى (السفر ليلا) وخطى (خطوات ، سير ، سفر) المهرية (النياق من المهرة في جنوبي شبه جزيرة العرب) القود (جمع أقود وقوداء : الأبل الذلولة المعودة على السفر) .

(٢) أمطلع الشمس تبغي ؟ : لماذا هذا الامعان والايغال في السفر ...

(٣) الوساطة ٤٧ .

وأبو تمام يُحسن اختتامَ القصائد كما يحسن مطالعها . وخواتيم قصائد أبي تمام واضحةُ المعنى بيِّنة القصيد موجَزة القول ترسخ في الذهن بأدنى تأمّل . من ذلك قوله[1] :

كتبتُ ، ولو قدرتُ ـ هوىً وشوقاً   إليك ـ لكنتُ سطراً في الجوابِ !

وختم أبو تمام قصيدةً مدح بها أبا دُلَف العِجْليّ ببيتين هما[2] :

أقولُ لأصحابي : هو القاسم الذي   به شرح الجودُ التباسَ المذاهب .
وإني لأرْجو عاجلاً ان تردَّني   مواهبُه بحراً تُرجّى مواهبي .

مصادر معانيه

اذا تركنا المصدر الشخصي لهذه المعاني ، وما تعلمه ابو تمام ورواه فاستقى منه ، ككثيرين من الشعراء ، رأيناه يأخذ المعانيَ أيضاً من أفواه الذين لا يقصدون ان يخرجوا ادباً لأنفسهم .

جاء في الاغاني[3] : « مر ابو تمام بمخنّث يقول لآخر : جئتك امسِ فاحتجبت عني ؛ فقال له : السماء اذا احتجبت بالغيم رُجّي خيرها » ... قال من روى عنه الاصفهانيّ « فتبينت في وجه ابي تمام انه قد أخذ المعنى ليضمّنه في شعره ، فما لبثنا اياماً حتى أُنشِدت قوله :

ليس الحجابُ بمقصٍ عنك لي أملا ؛   ان السماء ترُجّى حين تحتجبُ .

وبجانب هذا النوع نوع آخر اختلف الناس في تسميته ؛ فقال بعضهم إنه سرقة ، وقال آخرون انه ابتداع .

يعتقد الآمدي[4] أن ابا تمام شُغف بالشعر ومطالعته « وانه ما من شيء كبير

---

(١) ديوان ٥٧ ؛ اعيان الشيعة ١٩ : ٢٣٢ .
(٢) ديوان ٤٣ ؛ اعيان الشيعة ١٩ : ٢٣٢ ؛ راجع المختارات
(٣) الاغاني ١٥ : ١٠٣ .
(٤) الموازنة ص ٢٣.

من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدَث الا قرأه واطّلع عليه » . لذلك تمكن من سرقة معانٍ كثيرة خَفِيَ اكثرها لقلة اطلاع الناس على ما اطلع عليه ابوتمام » . ويلي هذا القول اثنتان وثلاثون صفحة يردّ الآمدي فيها ابياتاً لابي تمام الى المصادر التي سرقت منها ، ويأخذه بها اخذاً شديداً ؛ مع ان الآمدي نفسه يقول حينما يعرض لسرقات البحتري[1] : « انه غير مُنكر ان يكون (البحتري) اخذ منه (من ابي تمام) لكثرة ما كان يرد على سمع البحتري من شعر ابي تمام فيعتلق معناه قاصداً الأخذ او غير قاصد ... » و (ان هناك) ما يشترك فيه الناس ، وتجري طباع الشعراء عليه ؛ ... ثم اضاف الى ذلك قوله[2] : « ان من ادركتُه من اهل العلم بالشعر لم يكونوا يرَون سرقات المعاني من كبير مساوىء الشعراء وخاصةً المتأخرين ، اذ كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر[3] ... »

ليس من المستغرب ان يكون ابوتمام قد أخذ عدداً من معانيه من غيره ، ولكن المستغرب أن يتتبع النقاد المتحاملون عليه ألفاظَه ثم يزعمون أن كل بيت شاكلت لفظةٌ من ألفاظه لفظةً في بيت شاعر آخر بيت مسروق[4] .

لكن هذا كله لا يعني أن أبا تمام لم يُلِمّ بمعاني الشعراء . لقد ألمّ أبو تمام بمعنى النابغة الذبياني في تحليق الطيور فوق الجيش الذاهب إلى الحرب : « إذا ما غزَوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طير .... »[5] فقال[6] :

وقد ظُلّلَتْ عِقبانُ أعلامِه ضُحىً   بعِقبانِ طيرٍ في الدماء نواهلِ[7] .
أقامت مَعَ الرايات حتى كأنّها   من الجيش إلاّ أنها لم تُقاتِلِ .

---

(١) الموازنة ص ٢٢ .
(٢) الموازنة ص ١٢٤ .
(٣) راجع في السرقات الشعرية الوساطة للجرجاني ١٧٨–٢٠٩ .
(٤) راجع الوساطة ٢٠٢ وما بعدها ، وخصوصاً ٢٠٥ وما بعدها ، ٢١٦ ، ٢٧٠–٢٧١ ، ٢٩٧ .
(٥) ديوان النابغة (بيروت ١٣٤٧هـ–١٩٢٩م) ص ١٠ ؛ ديوان مسلم بن الوليد ٣٠٨–٣٠٩ .
(٦) ديوان خ ٢٤٨ ؛ راجع تفصيل ذلك في أخبار أبي تمام ١٦٣ – ١٦٦ .
(٧) العقاب (بالضم) : طائر من الجوارح . والعقاب : الراية ، وجمعها عقبان (بالكسر).

وكان أبو تمام شديد الإعجاب بصريع الغواني مسلم بن الوليد وبأبي نواس ، وقد أقسم مرة ألا يصلي حتى يحفظ شعرهما[1] . ثم ان أبا تمام كان يتّبع مذهب مسلم بن الوليد في البديع[2] فليس بعجيب أن يكون قد ألمّ بمعان كثيرة له[3] . وكذلك ألم أبو تمام بمعان لأوس بن حجر الجاهلي[4] ولمسلم بن الوليد العباسي[5] ولأستاذه ديك الجن[6] ولغيرهم أيضاً .

لا يتسع المقام هنا لذكر عناصر السرقة في الشعر كما فصلها ابن رشيق عن المصادر التي استقى منها[7] ، فالقول متشعب والحكم نسبي ذاتي . غير أن ما لا يغتفر أن يأخذ الشاعر قول شاعر آخر بظله المخصوص ، ثم يسوقه في ألفاظ متّفقة أو مختلفة . أما إذا راقه معنى ورأى أن بعض نواحيه قد خفيت على صاحبه فجلا تلك المعاني فهو كأنه قد اخترع ذلك المعنى أو أبدعه . وأحسن مثال على ذلك ما رواه الأصفهاني[8] فقال :

« حدثني هارون بن عبدالله المهلبي قال : كنا في حلقه دِعْبل ، فجرى ذكر أبي تمام ، فقال : دِعبِل كان (أبو تمام) يتتبع معانيَّ فيأخذها . فقال له رجل في مجلسه : وأي شيء من ذلك ، أعزك الله ؟ قال : قولي :

وَإنَّ امرءاً أسدى إليَّ بشافع إليه ، ويرجو الشكر مني لأحمقُ .
شفيعكَ فاشكرْ في الحوائج ، إنه يصونك عن مكروهها وهو يخلَق .

---

(١) ديوان مسلم ٢٤٧ .
(٢) ديوان مسلم ٢٢٩ ، ٢٨٢ – ٢٨٣ الخ .
(٣) ديوان مسلم ٢١–٢٢،٢٦،٤٥،٦٠،٢٨٨،٢٩١،٢٩٨–٢٩٩ ؛ راجع أخبار أبي تمام ٧٨
(٤) أخبار أبي تمام ٥٣ – ٥٤ .
(٥) ديوان مسلم ٢٨٧ عن كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسرى الرفاء ؛ أخبار أبي تمام ١٧٣ .
(٦) العمدة ١ : ٦٤ .
(٧) العمدة ٢ : ٢١٥–٢٢٦ .
(٨) الاغاني ١٥ : ٩٧ – ٩٧ . اخبار ابي تمام ٦٣ – ٦٥ .

فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال : قال[1] :

فلقيتُ بين يديك حلوَ عطائــه ، ولقيتَ بين يديَّ مر سؤاله .
واذا امروٌ أسدى إليك صنيعةً من جاهه ، فكأنهــا من مالــه!

... فقال : والله لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك ؛ وإن كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه ... »

وقد اتفق أيضاً أنِ اختار أبو تمام في حماسته بيتين في الأدب لأحد الشعراء[2] نراهما في إحدى مقطوعاته ، ومطلعها (ديوان خ ٤٨٥) :

إذا جاريتَ في خُلُقٍ دنيئـاً فأنت ومن تجاريــه سواء ،

قيل قالها معرضاً فيها ببعض بني حُميد لأنه لم يستطع أن يَهْجُوَهُ لِما لآل حميد من الحب في قلبه والوفاء من نفسه ؛ ولا ريب في أن هذا نوع من السرقة صحيح ؛ ولو ظفر الآمدي بهذين البيتين لألف في مثالب أبي تمام كتاباً جديداً . ولقد فطن التبريزي شارح ديوان الحماسة إلى شيء من ذلك فقال ان أبا تمام اشتق معانيَ لنفسه من الشعراء الذين اختار لهم في « الحماسة » ، فقد أخذ معنى من الحارث بن همام الشيباني[3]

وحمل دعبل على أبي تمام متّهماً إياه بسرقة أجمل مراثيه «كذا فليجلّ » ، من مرثية لأبي مُكْنِفِ المُزَني ، من ولد زهير بن أبي سلمى ، في ذفافة بن عبدالعزيز العبسي[4] ، هي[5] :

أبعدَ أبي العباس يُستعتبُ الدهرُ ؛ وما بعده للدهر عُتبي ولا عذر ؟
ألا أيها الناعي ذُفافةَ ذا النـدى ، تَعِسْتَ وشُلت من أناملك العشر !

---

(١) ديوان خ ٢٤٠ ؛ شرح التبريزي ٢ : ٦٠ .
(٢) ٢ : ٢٠ .
(٣) شرح ديوان الحماسة ....
(٤) الوساطة ١٨٧ – ١٨٨ .

ولا مَطَرت أرضاً سماءٌ ، ولا جرت نجوم ، ولا لَذّت لشاربها الخمر .

كأن بني القعقاع ، بعد وفاته ، نجوم سماء خرّ من بينها البدر .

تُوُفّيَتِ الآمالُ بعد ذُفافةٍ فأصبح في شُغل عن السَفَر السَفْر .

يُعَزّونَ عن ثاوٍ تُعَزّى به العلى ، ويبكي عليه البأس والمجد والشعر .

وما كان إلاّ مالَ من قلّ مالُه ، وذُخراً لمن أمسى وليس له ذخر .

ثم نظم مرثيته في أبناء حُميدٍ الطوسي فقال :

كذا فَلْيَجِلّ الخطب ، وليفدح الأمر ،

فليس لعين لم يفِضْ ماؤُها عذرُ .

بعد ذلك أثبت البيت الرابع بعد وضع كلمة : نبهان مكان القعقاع ؛ وغير ذفافة في البيت الخامس فجعلها محمداً ؛ ثم أثبت البيتين : السادس والسابع من غير تغيير .

على أن دعبل بن علي الخُزاعي هو الذي لفّق هذه الرواية ، ونَحَلَ أبا مكنف هذا الأبياتَ التي زعم أبا تمام سرقها . ولا ريب في أن أدنى معرفة بالشعر والبلاغة تحيل الالتحام بين الأبيات الثلاثة الأولى وبين الأربعة الأخيرة . فالثلاثة الأبيات الأولى أشبه شيء بشعر عنترَ المنحول في القصص ، بينما الأربعة التالية تنطق بشاعرية فياضة وعبقرية لا شك فيها .

ولم يغب شيء من هذا على النقاد المعاصرين لأبي تمام ولا على رواة الأدب ، فقد قال علي بن الجهم الشاعر أن دعبلاً كان يكذب على أبي تمام ويضع عليه الأخبار . وقد ذكر الصولي[1] ذلك فقال : « وقد رأيت ، أعزّك الله ، بعض هؤلاء الجهلة يصحّف على أبي تمام ثم يعيب ما لم يقله قط » . ويبدو أن لذُفافة المزني هذا مرثية من بحر مرثية أبي تمام في محمد بن حميد وعلى رَوِيّها ، ولكن لا صلة لمرثية أبي تمام بها . ثم ان الأبيات التي زعم دعبل أن أبا تمام أخذها من

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٦١ .

مرثية ابي مكنف ثم حوّر فيها حتى توافق غرضه — وهذا مدار التهمة — غير موجودة في شعر ابي مكنف أصلا[1] .

والواقع ان نفراً من الناثرين والشعراء كانوا يأخذون من معاني أبي تمام إعجاباً بها . حتى أن إبراهيم الصولي[2] الذي ما اتكل يوماً على غير ما يجيش في صدره لم يملك إلا أن يَقتبِسَ من أبي تمام مَعانِيَ وردت في أبياته التالية[3] :

إذا مارقٌ بالغدر حاول غدرة ، فذاك حَرِيٌ أن تئيم حلائله[4] .

فان باشر الأصحار فالبيضُ والقنا قِراه، وأحواض المنايا مناهله[5] .

وان يَبْنِ حيطاناً عليه فانما أولئك عقّالاته لامعاقله[6] .

وإلاّ فأعلمه بأنك ساخط ودعه، فان الخوف لا شك قاتله .

فقال مقتبساً[7] : «وصار ما كان يُحرزهم يُبرزهم ، وما كان يَعقِلهم

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٠٠ – ٢٠١ ؛ هبة الايام ١٤٨ – ١٤٩ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٤١٩–٤٢٣

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٦ المطبعة الوطنية ١ : ١٥–١٦ ؛ والصولى هذا هو ابراهيم بن العباس ابن محمد بن صول ، توفي ٢٤٣هـ نصف شعبان (ابن خلكان ١ : ٢٨)

(٣) اخبار ابي تمام ١٠٢–١٠٣ .الاغاني ١٥ : ٩٧، ٩٨، الديوان ٢٣١–٢٣٢ .

(٤) اذا مارق (خارج من الدين ، مرتد ، لأنه ثار على الخليفة) بالغدر حاول غدرة (نكث بالعهد وخلع البيعة للخليفة من عنقه بالثورة) ، فذاك حرى ان (خليق به أن ، يجب ان) تئيم حلائله (ان تفقده نساؤه ، أن يقتل فتصبح حلائله أيامى) .

(٥) باشر : ولي الامر بنفسه . الاصحار : الخروج من المكان المسقوف الى المكان المكشوف او من المدينة الى الفضاء المحيط بها . البيض والقنا : السيوف والرماح. قراه : ضيافته، طعامه . المناهل جمع منهل : مكان الماء الذي يستقي منه الناس ويشربون . — اذا جسر ان يخرج بنفسه (ليلقى المسلمين في معركة مكشوفة ، فانه سيلاقي حتفه) سيموت : سيأكل من السيوف والرماح وسيشرب أحواض الموت .

(٦) وان يبن حيطاناً عليهم (اسواراً للامتناع وراءها من هجوم الجيوش الاسلامية ، فانما أولئك (تلك الحيطان) عقالاته (جدران، سجن حوله) . والعقالات (بضم العين وتشديد القاف) جمع عقال : داء في رجل الدابة اذا مشت ظلعت ساعة ثم انبسطت) (القاموس ٤ : ١٨ ؛ الديوان بشرح التبريزي ٣ : ٢٨) . والأليق ان يكون المعنى : ان تلك الحيطان تمسكه وتمنع حركته ، المعاقل جمع معقل : الحصن .

يعتقلهم .... فأنزلوه من مَعْقِل إلى عِقال » . أما الشعراء الذين أخذوا من معاني أبي تمام فكثيرون منهم البحتري والمتنبي وسواهما[1] .

وقد أعجِب أيضاً بهذه المعاني الشعراء حتى الأعداء منهم كدعبل[2] . وأعجبُ من هذا كله وأغرب أن أبا تمام ظل قوي الفكر طول حياته ؛ فانه « اختُرم (مات) وما استمتع بخاطره ، ولا نُزح ركيّ (بئر) فكره حتى انقطع رشأ عمره[3] (حبل عمره) » .

العروبة والاسلام في شعر أبي تمام

ولد أبو تمام رومياً نصرانياً ، ثم دخل في الإسلام قبل أن يبلغ من العمر سناً تستحكم فيها العقيدة في النفوس فهماً أو تقليداً . والصابئون من عقيدة إلى عقيدة ، والنازعون عن مبدأ إلى مبدأ ، والمنقلبون من سياسة إلى سياسة ، تعظم عصبيتهم للحال الجديدة التي صاروا إليها وتزيد نُفرتهم من الحال التي كانوا عليها . ثم هم يَحرِصون على أن يقنعوا جماعتهم الجديدة بأنهم قد اختاروا المذهب الجديد إيماناً واقتناعاً ورويّة . من أجل ذلك نرى لهم تلك الحمية الجاهلية ، وإن كانت حمية صادقة في كثير من الأحيان . انهم يريدون أن يُشهدوا قومهم الجدد على أنهم قد قطعوا ما بينهم وبين ماضيهم مرة واحدة . وأبو تمام مثل بارع على هذه القاعدة .

ولقد سبق لنفر من الشعراء ، منذ صدر الدعوة الإسلامية ، أن نثروا في شعرهم أقوالاً تدل على تعلقهم بالإسلام وشادوا بالعروبة أو العروبية من حيث اتصالها بالإسلام نفسه[4] . ولكنني لا أعرف شاعراً قبل أبي تمام جعل ذلك وُكده في ديوانه ثم أخرجه تلك المخارج المتعددة المنازع والصور . وأنا لن أشغل نفسي

---

(١) راجع الوساطة ٢٠١ وما بعدها .

(٢) الاغاني ١٥ : ١٠٣ س .

(٣) الاغاني ١٥ : ٩٨ .

(٤) Das Bild des Fruehislam ... 128-134.

(٦)

هنا باستقصاء أبياته التي أشار فيها إلى آيات القرآن الكريم وإلى الأحاديث الشريفة إشارة أو اقتباساً أو تضميناً [1] ، فان هذه كثيرة في ديوانه كثرةً تعيا على الحصر . وكذلك لن أتتبع في شعره تفاصيل العبادات ولا فنون علمه بالأديان ، فما ذلك كله من قصدي هنا . ولكني سأبسط رأي أبي تمام من الناحية السياسية القوميـــة .

من الصعب أن نفرق في ديوان أبي تمام ، وفي دواوين غيره من الشعراء إلى عهد قريب ، بين العرب والمسلمين ، أو بين مدرك العروبة ومدرك الإسلام . مدح أبو تمام حفصَ بن عمر الأزدي فقال (ديوان خ ١٣١) :

فأنتَ ــ وقد مجّت خُراسانُ داءها وقد نَغِلَتْ أطرافها نَغَلَ الجلدِ [2] ؛
وأوباشُها خُزْرٌ إلى العرب الأولى لكيما يكونُ الحر من خَوَلِ العبدِ [3] ؛
وراموا دم الإسلام لا مِنْ جهالةٍ ولا خطأٍ ، بل حاولوه على عَمْدِ ــ
ضممتَ إلى قحطانَ عدنانَ كلَّها، ولم يجدوا إذ ذاك من ذاك من بُدِّ .
ولما أماتت أنجمُ العرب الدُّجى سَرَتْ وهي أتباع لكوكبك السعد [4] !

وليس من المستغرب أن نرى أبا تمام يجعل العجم في الإسلام مثل العرب ، فان العصور الوسطى لم تعرف جامعاً سوى الدين . وهكذا قال أبو تمام يمدح

---

(١) الاستشهاد بآية من القرآن الكريم استشهاداً تاماً او استشهاداً جزئياً .

(٢) أنت مبتدأ خبره ضممت في البيت الرابع الذي يلي (راجع شرح التبريزي ٢ : ١٢١) . في ديوان خ ١٣١ : فأبت (رجعت) . مجت خراسان داءها : لفظته ، ظهر داؤها (عمت الفتنة فيها) . نغلت أطرافها : فسدت (بالعصبية اي بالقتال بين قيس واليمن) . نغل الجلد : فسد وانتن (بسوء الدبغ أو بإهمال الدباغ) .

(٣) الاوباش (جمع وبش بفتح ففتح) : الاخلاط من الناس والسفلة . خزر جمع أخزر : من ينظر من طرف العين (من المكر أو العداوة) . الخول (بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث) : العبيد والخدم .

(٤) أماتت أنجم العرب الدجى : تغلب العرب على خصومهم في الفتنة .

إسحق بن إبراهيم المصعبي ويذكر شجاعته وهمته (ديوان ع ٣٠٢) :

أطعت ربك فيهم ، والخليفة قد أرضيته ، وشفيت العُرب والعجما .

وكل صلة عند أبي تمام تتقطع سوى صلة المسلمين برسول الله[1] :

نرمي بأشباحنا إلى مَلِكٍ نأخذ من ماله ومن أدبه :
نجمُ بني صالحٍ ، وهم أنجم الـ ـعالم من عُجْمه ومن عَرَبه ؛
رهط النبي الذي تُقَطّع أسـ ـباب البرايا سوى سببه .
مهذّبٌ قُدّتِ النبوّة والإسـ ـلام قدّ الشراك من نسبه[2] .

من أجل ذلك كله كانت القدوةُ العظمى برسول الله وحدَه[3] وكان فضلَ المسلم ، خليفة أو أميراً أو قائداً أو فرداً من عامة الناس ، أن يكون في نصرة الإسلام[3] ، والمحاميَ عن الإسلام[4] ، وفارس الإسلام[5] ، وأن يوطد أعلام الهدى ويُقر عمود الدين[6] . فاذا استغاث الإسلام وجب على المسلمين أن ينجدوه[7] بما عرف عنهم من الشجاعة[8] ، لأن الإسلام لا يعز إلا بمقارعة أعدائه إذا همّ به أعداؤه[9] . والأسلام سيشكر ما يوليه إياه أهله من نجدة وظفر[10] . ولا يفرق أبو تمام في ذلك الشكر لأهل تلك النجدة بين الإسلام والدولة والعرب ، قال أبو تمام يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ويصف شيئاً من بطولته في هزم بابك الخُرَّمي ثم يحار في الإعراب عن الشكر له :

تالله أدري ، أألإسلام يشكرها ، من وقعة ، أم بنو العباس أم أدَدُ ؟[11]

---

(١) في الحديث المرفوع : « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي » (شرح التبريزي ١ : ٢٧٦) .

(٢) قدت النبوة والاسلام قد الشراك من نسبه : النبوة والاسلام ونسبه من معدن (أصل) واحد . الشراك زيق من الجلد يؤخذ من قطعة كبيرة من الجلد فهما لذلك مثيلان في النوع .

(٣-١٠) ديوان خ ٢٠، ١٠٩ و ٣٠٢، ١٣٨، ٢٦١، ٢١٨، ٢٦١، ٣٢٦، ٣٢٨ على التوالي .

(١١) ديوان خ ٩٩ . – والله (لا) أدري ، من احق بشكرك على هذه المعركة : الاسلام ام بنو العباس (اي الدولة) ام ادد (قبيلتك) لأن ظفرك فيها كان فائدة للدين وللدولة ولقومك .

يوم به أخذ الإسلام زينتـه بأسرها ، واكتسى فخراً به الأبد[1] .

يومٌ يجيء ، إذا قام الحسابُ ، ولم يَذمُمْهُ بَدْرٌ ولم يُفْضَحْ به أُحُدُ[2] .

لم تبق مشركة إلاّ وقد علمت ، إن لم تَتُبْ ، أنه للسيف ما تَلِدُ[3] .

وكان الإسلام لا يزال مهدداً من المشرق ومن المغرب : كان المشركون من الأعاجم يهددون الإسلام والمسلمين من الشرق ، وكان الروم اليونانيون يهددون الإسلام والمسلمين من الغرب[4] . ولم يستطع الإسلام أن يعيش ، في ذلك الحين ، في سلام مع أهل الشرك فاضطر اضطراراً إلى حربهم . قال أبو تمام في مديح أبي سعيد الثغري لمناسبة قتاله لبابك أيضاً[5] :

لما أبوا حُجج القرآن واضحة كانت سيوفك في هاماتهم حججا .

ولقد انتصر الإسلام على المشركين[6] وعلى الروم (خ ١٥١) . ولم يستطع أبو تمام أن يرى الحرب بين العرب والأعاجم في المشرق إلا في لباسها الديني[7] :

يا رُبَّ فتنة أمّة قد بزّها جبّارها في طاعة الجبار .

موتورة طلب الإله بثأرها ، وكفى بربّ الثأر مدركَ ثار[8] .

وبما أن نفراً من الذين كانوا يحاربون العرب في المشرق كانوا مسلمين ، فان أبا تمام سماهم منافقين[9] . أما أبرز مواقف أبي تمام في ذلك فموقفه في قصيدته « فتح الفتوح » ، وهي موجودة في المختارات .

---

(١) يوم : معركة . الابد : ما بقى من الدهر (سيبقى الفخر بهذا الظفر في تلك المعركة الى الابد) .

(٢) اذا قام الحساب : يوم القيامة . بدر : غزوة انتصر فيها الرسول على مشركي العرب (٥٢) . احد : جبل قرب المدينة جرت عنده معركة (٨٣) انهزم فيها المسلمون . – ان ظفرك في هذه المعركة قد زاد في وجاهة غزوة بدر ، ومحت هزيمة غزوة أحد .

(٣) ان لم تتب : ان لم تدخل في الاسلام . للسيف ما تلد : سيكون القتل في المعارك تصيب نسلها .

(٤) ديوان خ ٢٨، ١٨١، ٢٨٠، ٢٩٥ .

(٥) ديوان خ ٦٩ .

(٦ – ٧) ديوان خ ٢٦–٢٧، ٦٩، ١٤٨، ٢٠٢، ٢٥٩، ٢٨١، ٢٩٢، ٣٠٢، ثم ٣٢، ٢٣، ٢٩٧، وخصوصاً ٧ وما بعدها .

(٨) ديوان خ ١٥٢ وما بعدها .

٢ — خصائصه اللفظية

أول ما يطالعك في ديوان أبي تمام غرابةُ الألفاظ ، فأبو تمام مُغرَم أحياناً بالألفاظ الغريبة التي يقلّ ورودها عند غيره . ثم انه كان يحب تلك الالفاظ التي كانت تدور في الأدب القديم وفي البيئة البدوية ، إذ كان من الذين يحبون الاقتداء بالقدماء[١] . وكذلك نجد عدداً من الكلمات يتردّد في شعر أبي تمام : في البيت الواحد ، أو في أبيات من قصيدة واحدة ، أو في أبيات من قصائد مختلفة . لقد فعل أبو تمام ذلك كلّه ، بين الحين والحين ، « وأظهر التعجرف[٢] وتشبه بالبَدْوِ ونَسِيَ أنه حضري متأدّب وقرَوي متكلف »[٣] فجاء من الألفاظ الغريبة الحوشية بمثل قوله :

قد قلت ، لما اطلخمّ الأمرُ وانبعثت　　عَشْواءُ تاليةٌ غُبْساً دَهاريسا[٤] :

— فعَنيقهـــا يَعْضيدها ، ووَشيجُها　　سَعدانُها ، وزميلها تنّومها[٥] .

---

(١) الوساطة ١٨، راجع ١٩—٢١ .

(٢) تعجرف الرجل : أظهر الجفوة في الكلام ، وتكبر .

(٣) الوساطة ٧٠ .

(٤) الديوان خ ١٧١، الوساطة ٧٠ . — اطلخم : أظلم . عشواء : (ناقة) ضعيفة البصر . تالية : تابعة ، تتبع . الغبس (جمع أغبس) : ذئاب في لونها كدرة (كلون الرماد) . الدهاريس جمع دهرس (بفتح الدال والراء) : الداهية ، الخبيث . — المعنى : خان الناقة بصرها فتبعت ذئابا ضواري (في المصائب يشتبه الأمر على الانسان فيلقي نفسه في التهلكة من غير أن يدري) .

(٥) الديوان خ ٣١٢، الوساطة ٧٠ . العنيق : المعانق . اليعضيد : بقلة (قصيرة ، قريبة من الارض) . الوشيج : شجر تجعل من أغصانه الرماح . السعدان : نبت من أفضل مراعي الابل . الزميل : الرديف (اذا ركب شخصان على ناقة فالمتأخر منهما هو الرديف) . التنوم : شجر له ثمر يدخل في العلاج ، وهو يخرج الدود من البطن . — المعنى : يصف أبو تمام ناقة تقطع الصحراء في أحوال صعبة حتى أنهكها التعب فأصبح عنيقها يعضيدها (رأسها من التعب أصبح يمس الارض كأنها تعانق النبات النابت على وجه الارض) ، ووشيجها سعدانها . (أفضل طعام كانت تحصل عليه كان تلك الاغصان القاسية التي تصلح لتكون رماحاً) ، وزميلها

غير أن ذلك لم يكن عادة لأبي تمام ألزمها نفسه ، فان أبا تمام كان — كما يرى الجرجاني[1] — إذا أراد أن يجريَ على سجيته جاءت ألفاظ شعره فصيحةً مألوفة ، فاذا قصد التكلف كَثُرَتْ في شعره تلك الألفاظ الغريبة الحُوشيةُ النافرة . ومع هذا فان أبا هلالٍ العسكريَّ قد تحامل على أبي تمام وجانب الحقَّ لما قال[2] : « كان أبو تمام يتتبعُ وحشيّ الكلام ويُدخله في شعره » . ولكن مما لا ريب فيه أن أبا تمام قد جانب طريق الشعراء المطبوعين الذين يتقبلون ما يُملي عليهم طبعهم فيأتي شعرهم فصيح الألفاظ عذب التركيب . فاذا دلهم الطبع على لفظة جزلة أو كلمة غريبة أنزلوها موضعها لتُحْدث في نفس القارىء أو السامع أثراً مقصوداً أو لتبرز معنى ملموحاً أو لتُعين الشاعر على الإيجاز . أضف إلى ذلك كله أن للشعراء — في رأيِ ابن رشيق — ألفاظاً تدور في شعرهم ، قال ابن رشيق[3] : « وللشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يَعْدُوَها ولا أن يستعمل غيرها » . ومع ذلك فقد جاء عند جميع الشعراء شيء من الألفاظ الغريبة الحوشية[4] .

ومن التكرار القبيح للكلمة الواحدة في شعر أبي تمام قوله[5] :

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن ... يرضى المُؤَمِّل منك إلاّ بالرضا .

أو قوله[6] :

— تنومها (وقد فسد بطنها فأصابها إسهال — كانت تأكل الوشيج الجاسي ، القاسي ، فيؤلم بطنها ؛ ثم تأكل التنوم فتمشو بطنها) .

(١) الوساطة ٧١ .

(٢) كتاب الصناعتين (مستشهد به في أمراء الشعر ١٦٣) .

(٣) العمدة ٢ : ٨٣ .

(٤) سر الفصاحة ٩١ .

(٥) ديوان خ ١٨٧ ، الوساطة ٧٠ .

(٦) سر الفصاحة ١٨٦ . — الكلمات الثلاث في الشطر الاول : « اسلم ، سلمت ، سلمت » مكرورة . السلام (بكسر السين : جمع سلمة بفتح السين وكسر اللام) . الحجارة . سلمى : جبل في بلاد طيء . السلم : شجر نضار (بضم النون) ، لا يسقط ورقه .

فاسلَمْ ، سَلِمْتَ من الآفات ، ما سَلِمَتْ
سِلامُ سلمى ومهما أورق السلَم .

ان ترديد هذه الألفاظ في بيت واحد مكروه جداً ، وإن كان عدد منها يؤدي معانيَ مختلفة .

وكذلك لأبي تمام ألفاظ يحبّ أن يبني عليها جانباً من استعاراته ككلمة « أخدَع » (عِرق في جانب العُنُق) في مثل قوله[1] :

وضرَبتَ الشتاء في أخدَعيــه ضربةً غادرته قَوْداً رَكوبا .
— يا دهر، قَوِّم من أخدعيك فقد أضجَجْتَ هذا الأنام من خرَقِكْ .

وسوى ذلك . على أن ترداد لفظ بضع مرات في ديوان كبير ليس عيباً كبيراً ، وإن كنا نأخذ على أبي تمام أنه أجرى هذا اللفظ الواحد بضع مرات في استعارة واحدة .

أما التركيب عند أبي تمام فهو متين لا شك في ذلك . ولكنّ تكليف أبي تمام للمعاني البعيدة وغرامَه بالصناعة وتطلبَه الكلام الغريب أدخلت على شعره شيئاً من التعقيد أدّى إلى شيء من الغموض . ولعل تكلّفه للمعاني البعيدة هو الذي اضطره إلى القبول بالتركيب المعقد إذا لم يستطع الإتيان بتركيب أكثر وضوحاً للتعبير عن المعنى الذي تراءى له تعبيراً يحيط بجميع جوانب ذلك المعنى . من ذلك كله قوله[2] :

خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانَ أخــاً عنه فلم يتخوّن جسمَه الكمَدُ[3] .
— يا يوم شرّد يومَ لهوي لهــوُهُ بصَبابتي وأذلّ عزّ تجلّدي[4] .

---

(١) ديوان خ ٢١٠٤٢٧ . راجع ايضاً : « ولين اخادع الدهر الابي » (خ ٣٤٤٤ سر الفصاحة ١١٧) .

(٢) راجع الوساطة ١٨ ، راجع سر الفصاحة ١٥١ .

(٣) ديوان خ ٣٦٦ . — اذا نزلت مصيبة برجل فلم ينحل جسم صديقه بالحزن له ، فلتنزل تلك المصيبة بذلك الصديق .

(٤) ديوان خ ١١١ . — أيها اليوم الذي استخف بحبي وتلهى (بالتهكم علي) فأفسد علي تمتعي باللهو مع من أحب ثم فضح تصبري وأظهرني بمظهر الضعيف المسلوب الصبر (راجع ايضاً شرح التبريزي ٢ : ٤٥ مع الحاشية ٣) .

جرى لسان العربي ، منذ عهد بداوته ، بألفاظ متشابهة لفظاً متقاربة في لمعنى أو متقاربة في المعنى دون اللفظ ينتظر السامع أن تأتي معاً ؛ وبألفاظ متضادّة في المعنى . وقد كانت هذه الألفاظ تجري على لسان العربي بين الفينة والفينة لا يَقْصِدُ إلى تأليفها أو رصفها . ثم جاء القرآن الكريم فكان فيه منها شيء غير يسير ، ولكنه غير مقصود .

ثم أخذ الناس يفطنون لعذوبة هذه الألفاظ وطلاوتها إذا انتظمت في التركيب على نسق مخصوص . ثم قصد إليها الأدباء والشعراء منذ أواخر العصر الأموي واتسع القول فيها في صدر العصر العباسي . قال الخفاجي[1] : « وهذا إنما يحسن في بعض المواضع إذا كان قليلاً غير مُتَكَلَّفٍ ولا مقصودٍ في نفسه . وقد استعمله العرب المتقدمون في أشعارهم ، ثم جاء المحدثون فلَهِج به[2] منهم مُسْلِمُ بن الوليد الأنصاري وأكْثَرَ منه ومِنَ استعمال المُطابق والمُخالف .... حتى قيل عنه إنه أول من أفسد الشعر (به) . وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد على مسلم في استعماله والإكثار منه » .

وفي الأغاني[3] عن أبي تمام « وله مذهب في المطابق هو كالسابق فيه جميعَ الشعراء . وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فانَّ له فضلَ الإكثار فيه ، والسلوكِ في جميع طرقه » . وأنكر الآمدي على أبي تمام هذا الفضل البتةَ لأنَّ الناس سبقوه إليه ؛ ثم عد « استكثارَه منه وإفراطَه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه »[4] . أما ابن رشيق فيظهر لنا بجلاء انه أميل إلى الأصفهاني في تأكيد فضل أبي تمام ، فقد قال عن أبي تمام : « انه كان يُجيد باب التصنيع »[5] .

وأما الجرجاني فذكر أن أبا تمام كان يجمع أحياناً المعنى البديع إلى الصنعة

---

(١) سر الفصاحة ١٨٧٣–١٨٤ .

(٢) لهج به : أغرى به ، أغرم به ، ثابر عليه .

(٣) ١٥ : ٩٦ .

(٤) الموازنة ٨ . (٥) العمدة ٢ : ٣٢ .

اللطيفة[1] . وجعله مرةً ثانيةً هو وأبا نواس « سيّدي المطبوعين وإمامَيْ أهل الصنعة »[2] .

الجناس والطباق

كان أبو تمام يتكلف التجنيسَ والمُطابقة (الجِناس والطِباق) ويسوق فيهما المعانيَ البعيدة فتُغْلق على أفهام العامة وغير العامة أو تكاد ، ثم تنفر أحياناً في الذوق . وكان العرب قد استحسنوا الجناس في الجملة بعد الجملة ، وفي البيت بعد البيت ، كما استحسنوا أيضاً أن يكون التجنيس بين كلمتين فقط . إلا أن أبا تمام الذي تكلف كل شيء في شعره : تكلف ان يأتي بالتجنيس في كل بيت من أبيات قصائده وأن يجانس بين الكلمتين والثلاث والأربع ، وربما ملأ البيت بالكلمات التي يجانس بينها تجنيساً تاماً أو ناقصاً . وحَرَصَ أبو تمام على أن يأتي في شعره بجميع فنون التجنيس ، ومثل ذلك كله فعل في الطباق أيضاً . وبما انه يندر أن يأتي الجناس مستقلاً عن الطباق فانني أخترت أن أعالجهما هنا معاً .

لأبي تمام براعة في الجناس والطباق وقف أمامها أنصاره وخصومه مبهوتين . بعد أن حمل الآمدي على أبي تمام ، في شأن الجناس ، ما شاء أن يحمل عليه ، قال مُقراً له بالتقدم والبراعة[3] :

لو « اقتصر الطائي على ما اتفق له في هذا الفن من حلو الألفاظ وصحيح المعنى كقوله :

---

(١) الوساطة ٣١ .

(٢) الوساطة ٧٩ . قال الجرجاني : « وإنما خصصت ابا نواس وابا تمام لأجمع لك بين سيدي المطبوعين وإمامي أهل الصنعة » . ومن الاصوب عندي أن يقـال : « بين سيد المطبوعين وبين امام أهل الصنعة » (راجع الوساطة ٤٨) .

(٣) الموازنة ١١٧ ، وأتممت البيتين الاولين من الديوان (خ ٣١٢ ، ٣٥٦) . وقد ذكر الآمدي صدرهما فقط .

نثرتْ فريدَ مدامــع لم تُنظم ؛ والدمع يحمل بعض شجوِ المغرم[1].

– جفوفَ الردى ! أسرعتَ في الغصُن الرطب ؛

وخطبَ الرّدى والموت ! أبرحت من خطب[2] ؛

– قد يُنعم الله بالبلوى ، وإن عظمت ، ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[3] ؛

لسقط أكثر ما عيب عليه » . ثم ان هذه الأبيات وأمثالها هي التي سماها كتاب أمراء الشعر[4] « التأنق البديعي » . وإليك الآن بضعة أبيات فيها رونق وماء ، وهي في ابن الزيات[5] :

تُطلّ الطلولَ الدمعَ في كل موقف ، وتَمثُلُ بالصبر الديار المواثل .

دوارسُ لم يجفُ الربيع ربوعها ، ولا مرّ في أغفالها وهو غافل .

فقد سحبت فيها السحائب ذيلها ، وقد أخملت بالنَّور منها الخمائل .

مها الوحش ، إلاّ ان هاتا اوانس ؛ قنا الخط ، إلا أن تلك ذوابل .

هوى كان خلساً ، ان من احسن الهوى

هوىً جُلت في أفيائه وهو خامل !

واستحسن الجرجاني (الوساطة ٤٢) « التجنيس المستوفى » في قول أبي تمام :

---

(١) ديوان ٣١٢ . – الفريد : اللؤلؤ . الشجو : الحزن . – سال من عينيها دمع يشبه اللؤلؤ ، ولكن لا يجمع في سلك أو خيط حتى يصبح عقداً (يقصد : بكت) . والدمع يحمل (يدل على أو يخفف) شيئاً من حزن المحب .

(٢) ديوان ٣٥٦ . – يا أيها اليبس ، لقد أدركت الغصن قبل الاوان ؛ ويا مصيبة الهلاك والموت ، ما أعظمك من مصيبة (يقصد : أيها الموت ، أتيت على هذه المرأة باكراً في شبابها فكانت المصيبة بها عظيمة) .

(٣) ديوان ٣١٦ ، الموازنة ١١٧ .

(٤) ص ١٨١ وما بعدها .

(٥) ديوان ٢٥٥ – ٢٥٦ . – وقد مدح الجرجاني (الوساطة ٤١ ، ٤٤) البيتين الاول والرابع ، وقال عن البيت الرابع : « ومن أغرب ألفاظه وألطف ما وجد منه (من الطباق) قول أبي تمام : مها الوحش .... فطابق بهاتا وتلك ، وأحدها للحاضر والآخر للغائب ، فكانا نقيضين في المعنى وبمنزلة الضدين » .

ما مات من كرم الزمان فانــه   يحيا لدى يحيى بن عبدالله[1] !

« فجانس بيحيا ويحيى » ؛ وحروف كل واحد منهما مستوفى في الآخر . وإنما عُدَّ في هذا الباب لاختلاف المعنيين ، لأن أحدهما فعل والآخر اسم » .

واستحسن الجرجاني لأبي تمام « الجناس الناقص » في قوله (الوساطة٤٣) :

يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ   تصول بأسياف قواضٍ قواضبِ ؛

إذ أن « عواص » تنقص عن « عواصم » ، و« قواضٍ » تنقص عن «قواضب» .

على أن لأبي تمام شيئاً غيرَ قليل من الجِناس السيء تكلّف الجمعَ فيه بين الكلمات وخالف وجه البلاغة ، ثم ساق تلك الأبياتَ التي ورد فيها الجِناسُ سياقةً غامضة معقّدة . فمن تجنيسه السيء (ديوان خ ٣٠٢) :

قرّت بقرّانَ عينُ الدين وانشترتْ   بالأشترين عيونُ الشرك فاصطُلما[2] .

– ذهبت بمذهبه السماحة فالتوَتْ   فيه الظنون : أمذهب أم مذهب[3] .

---

(١) ديوان ٣٤١ ؛ الوساطة ٤٢ . – ان يحيى بن عبد الله يحيي (يعيد ذكرى) الكرم الذي كان في الزمن القديم ثم مات (نسي) .

(٢) قران بتشديد النون (لم يضبط الخياط القاف ، ص ٣٠٢ ؛ وضبطها التبريزي بالضم ، ٣ : ١٦٩ ؛ قران (بضم القاف وتشديد الراء) قرية باليمامة (القاموس ٤ : ٢٥٩ ؛ راجع ياقوت ، طبعة مصر ٤ : ٤٦) ، وليست المقصودة هنا . وقران (في ياقوت أيضاً) : قصبة البذين (بتشديد الدال) في أذربيجان حيث استوطن بابك .

انشترت العين : انقلب جفنها الادنى . اصطلمت الاذن : قطعت من أصلها . وقعة صيلمة (بفتح الصاد وسكون الياء وفتح اللام) : مستأصلة ، مبيدة . – قرت عين الدين (بردت ، اطمأنت ، رضيت ؛ انتصر الدين (الاسلام) . انشترت عيون الشرك : انقلبت ؛ هزم الشرك . الاشتران : مالك بن الحارث النخعي وابنه ابراهيم من أصحاب علي بن أبي طالب (وليسا المقصودين) . واشتر قرية من بلاد الجبل عند همذان (تاج ٣ : ٢٩٠) في ناحية بين نهاوند وهمذان (ياقوت ، مصر ١ : ٢٥٤ ، راجع ٢٥٥) .

(٣) خ ٣٩ ؛ شرح التبريزي ١ : ١٣٦–١٣٧ . – السماحة : الكرم . مذهب (بفتح الميم) : طريقة ، سبيل ؛ منصرف ، مخالفة . مذهب (بضم الميم) : ثوب محلى بالذهب (رياء ، تظاهر) . – ذهبت بمذهبه السماحة (غلبت عليه ، اتبعت طريقته لأنه عظيم الكرم جداً فأصبح الكرم تبعاً له). فالتوت فيه الظنون (اختلفت في عمله الآراء وحارت) : أهذا مذهب له حقاً (طريقة وخلقاً وسجية) أم مذهب (بضم الميم) : رياء وتظاهر بالكرم ؟

وكنا رأينا أن أهل الصناعة لا يقرّون التجنيس بين أكثر من لفظتين ، ولكنّ أبا تمام تعدّى ذلك مرات كثاراً ، فقد قال مثلاً :

فاسلم، سلمت من الآفات ، ما سلمت
سلام سلمى ومهما أورق السلم[1] .

شعره وأسلوبه

ليس أبو تمام من الشعراء المطبوعين الذين يجري الشعر على لسانهم عفواً وسليقةً ، بلا تكلفٍ ولا مُحاولةِ صَنْعةٍ ، وإن كان صاحب الأغاني قد قال (١٥ : ٩٦) عن أبي تمام « إنه شاعر مطبوع لطيف الفِطْنة » . وقد جار الأنباري على أبي تمام لما قال فيه[2] : « وكان يحب الشعر ، فلم يزل يُعانيه حتى قال الشعر وأجاده » . أما الآمدي فأبدى رأياً منصفاً لما قال[3] : « وان كنت تميل إلى الصنعة والمعاني التي تُستخرج بالغَوْص والفِكْرة ، ولا تَلْوي على غير ذلك ، فأبو تمام عندك أشعر (من البحتري) » .

وكذلك اتفق أكثر النقّاد – في نقل بعضهم عن بعض – على أن شعر أبي تمام مُتفاوِتٌ . ثم قال بعضهم إن شعر أبي تمام « لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا (هو) على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولّدة »[4] .

ومع كل هذه العيوب فقد عُدَّ أبو تمام أشعر أهل زمانه ؛ وعده الوزير الشاعر محمد بن عبدالملك الزيات أشعرَ الناس طُرّاً ؛ وكذلك فضّله صديقه الشاعر علي بن الجَهْم على سائر الشعراء[5] ؛ وفضّله البحتري على نفسه[6] .

---

(١) راجع ص ٧٩ (٢) نزهة الالباء ٢١٤ .
(٣) الموازنة ٣ .
(٤) الموازنة ٢ .
(٥) راجع اخبار ابي تمام ٦٢ .
(٦) راجع الاغاني ١٥ : ٩٦ ، ٩٧ ، ١٨ : ١٦٨ ؛ أخبار البحتري ٥٧ ، ٦٠ ، ١٤٧ – ١٤٨ .

وقد مر بنا شيء كثير من خصائصه التي تجتمع لتؤلف أسلوبه .

مذهب أبي تمام في الشعر

يقول بروكلمن : « إن أبا تمام يمثل بشعره شعراء المقاطعات تمثيلا صحيحاً ، وهو المثال المحتذى في ذلك » . وعلى هذا جعل بروكلمن شعراء العصر العباسي قسمين : شعراء بغداد خاصة وشعراء المقاطعات كالشام وخراسان[1] . وتأثر به جرجي زيدان[2] واتبعه في ذلك أحمد حسن الزيات[3] .

ومصدر هذا الحكم جملة وردت في الأغاني[4] عند الكلام على ديك الجن الحمصي من أنه « يذهب مذهب أبي تمام والشاميين » ؛ فكأنه جعل للشاميين خاصة مذهباً مخالفاً لمذهب أهل بغداد في الشعر ، ثم جعل أبا تمام المُتَّبَعَ ، مع أن ديك الجن أقدم من أبي تمام وعنه أخذ أبو تمام بعض شعره[5] .

أما مذهب الشاميين فالتصنيع في الشعر بتكلّف البديع ، ثم هو — فيما يبدو — تطلّب التشابيه والاستعارات البعيدة والمغالاة في التجنيس والطباق . وكان أولَ من تكلف البديع من المولّدين مسلمُ بن الوليد[6] وأفسد به الشعر[7] . ثم كثر التصنيع في شعر أبي تمام .

عمود الشعر والمذهب الشامي

لما قارن النقاد شعر أبي تمام وشعر البحتري بأشعار القدماء من الجاهليين

---

(١) Geschichte der arabischen Litteratur, Leipzig (C. F. Amelangs Verlag), 1901, SS, 79, 86 ff., (2. Ausg , 1909, ibidem); GAL I 71, 82, 83 ; Suppl. I 108, 133, 134.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، (القاهرة ١٩٣٠) ٢ : ٥٦ وما بعدها .

(٣) تاريخ الادب العربي (مصر ١٣٤٧ — ١٩٢٨) ، ص ١٩٣ و ٢١٧ وما بعدها .

(٤) ١٥ : ١٣٦ .

(٥) راجع فوق ، ص ٢٥.

(٦) العمدة ١ : ١١٠ .

(٧) سر الفصاحة ١٨٤ .

والإسلاميين وجدوا بين شعر الطائيَّين وبين شعر المتقدمين فرقاً ظاهراً. قال الآمدي عن أبي تمام إن « شعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا (هو) على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولّدة »[1]. أما البحتري فقال عنه الآمدي نفسه وعلى الصفحة الثانية من موازنته أيضاً: « البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل، ما فارق عمود الشعر قط. وكان يتجنّب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام ». على أن الطائيين كليهما شغلا أنفسهما بتصيّد الصناعة في شعرهما، من جناس وطباق وتوريات، ومن استعارات وتشابيه فيها من الإغراب فوق ما عرفه القدماء. ولكن البحتري كان أقل تكلفاً في إيراد أوجه البلاغة في شعره من أبي تمام.

وشغل الدكتور شوقي ضيف نفسه بدراسة التصنيع في كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي »[2]، وتتبّع في نطاق البحث الذي أخذ به نفسه « معاناة الشعر » منذ الجاهلية فكان يُلحّ على جانب « الصنعة » في دواوين الشعراء الذين جانبوا السجية والسليقة في نظمهم كثيراً أو قليلاً.

ووقف نجيب محمد البهبيتي جانباً كبيراً من كتابه « أبو تمام الطائي »[3] على « صُنّاع الشعر » وعلى العوامل التي أثرت فيهم ثم تكلم على « أصحاب المعنى » و« أصحاب اللفظ »، وخلص من ذلك إلى الكلام على عمود الشعر، مما كان المرزوقي قد وضّحه في مقدمته لشرح حماسة أبي تمام.

وفي عام ١٩٥١ أصدر الأستاذ عبدالعزيز سيّد الأهل كتابه « عبقرية أبي تمام »[4]، وعُني فيه بتوضيح المذهب الشامي وبالوقوف عند الصور البلاغية في الأبيات المفردة.

---

(١) الموازنة ٢.

(٢) الطبعة الاولى ١٩٤٣، الطبعة الثانية ١٩٤٥، الطبعة الثالثة ١٩٥٦.

(٣) القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥.

(٤) دار العلم للملايين بيروت ١٩٥١.

تاريخ المذهب الشامي

الأصل في الشعر أنه مطبوع ومصنوع : مطبوع يجري فيه الشاعر على السجية أو مصنوع يتكلّف فيه الشاعر شيئاً كثيراً أو قليلاً من التهذيب والتنقيح ومن التفنّن في إيراد المعاني والألفاظ ومن القصد إلى استجماع التشابيه والاستعارات [1] .

والأصل في الشعر العربي خاصة أنه جاهليّ ، أي أن خصائصه المعنوية واللفظية خصائص عربية بدوية غير متصلة بحضارة أجنبية . ثم ان النقّاد قسموا الشعراء الجاهليين أنفسهم قسمين : شعراء البدو وشعراء القرى (المدن) . وقلما حفل النقاد بشعراء القرى ، وقلما قدّموا أحداً منهم .

وبما أن الخصائص اللفظية أبرز للعين من الخصائص المعنوية فقد اهتمّ النقاد كثيراً بألفاظ الشعراء وتراكيبهم وبما دخل فيها كلها من اللهجات ومن الكلمات المهجورة والأجنبية . وكذلك اهتمّ النقاد بشكل القصيدة . وبما أن المعلقات كانت أشهر الشعر القديم فقد جعل النقاد « المعلقة » ميدان الشعر كله وقدموا الشعراء الذين يقتربون بقصائدهم من شكل المعلقة ومن خصائصها المعنوية واللفظية معاً .

وجاء الإسلام وانتشر العرب بالفتوح في الأرض ودخل في الإسلام شعوب ما عرفت الجاهلية ولا كانت العربية لسانها ولا التاريخ الجاهلي جانباً من حضارتها ، وكان في الموالي (المسلمين من غير العرب) والمولدين (المولودين من زواج عربي وغير عربي) ، وفي الذين احتكّوا بهم أيضاً ، شعراء جعلوا يجرون في نظم الشعر على السجيّة من فطرتهم وبيئتهم ، فجاء شعرهم مخالفاً للقصيدة الجاهلية أو للمعلّقة على الأصح .

وخصائص المعلقة هي التي تلي :

إنها قصيدة طويلة تتألف من أغراض متعددة ، غرض واحد منها مقصود

---

(١) راجع العمدة ١ : ١٠٨ وما بعدها .

لذاته ــ وقد يكون فيها غرضان مقصودان ــ وعدد من « الأغراض الممهّدة » تأتي قبل الغرض المقصود وبعده . وتبدأ القصيدة القديمة عادة ، أو المعلقة على الأصح ، بالوقوف على الأطلال ، ثم يتخلّص الشاعر إلى وصف راحلته والطريق التي سلكها ، ثم يطرق غرضاً آخر من الغزل أو الفخر أو الخمر قبل أن ينتقل إلى الغرض الأساسي المقصود الذي نظمت القصيدة من أجله . ويكون الغرض المقصود في بعض القصائد مديحاً (كما عند النابغة مثلاً) ، أو غزلاً (كما نرى عند امرىءالقيس) ، أو فخراً وحماسة (كما عند عمرو بن كلثوم وعنترة) . والواقع أن كل غرض من أغراض الشعر يصلح أن يكون غرضاً مقصوداً لذاته ، إذا قصده الشاعر من نظم قصيدته ثم عُني به وبسط فيه القول .

ولقد حرَص الشاعر القديم على ان يجعل كل بيت من أبيات قصائده تامّ المعنى في نفسه ، كما كان من المستحسن أن ينطوي البيت الواحد على معنيين أو أكثر .

وكذلك حرص الشعراء القُدامى على أن تكون **معانيهم شريفة** ، أي من المعاني الجميلة التي يُفتخر بها في العادة (كالكلام على الكرم والنسب والخمر والوفاء) لا من تلك المعاني المبتذلة التي تدور في أحاديث العامة أو في الحياة اليومية . أما **الالفاظ** فكان المختار فيها أن تكون **جزلة** (فخمة دالّة على معان مقصودة بها وحدها) ، مع الفصاحة ومتانة التركيب . وكانوا يحبون في **الوصف** أن يكون مطابقاً للموصوف ، مع التمييز بين الموصوفات حتى لا يقصّر وصف عن موصوفه ولا ينطبق على غير ما قصد به . وأما إذا وقع التشبيه فيجب أن يكون واضحاً بيّن الصلة بين المشبّه والمشبه به دالاً بنفسه على وجه الشبه. وأما الاستعارة فيجب أن تكون بارعة قريبة يدركها العقل بأدنى تأمّل مع الطرافة في الإشارة إلى المقصود . وكذلك كان الشاعر القديم يتخيّر الوزن المناسب ويتوخّى النظم السهل في التركيب العذب الذي يجري ليّناً على اللسان سهلاً في الأذن لطيفاً في القلب ثم يترك السبيل للقافية الشرود أن تنزل في بيته حتى ليخيَّلُ إلى القارىء أو السامع أن هذا البيت لم يكن ليتمّ إلا بتلك القافية وحدها .

ذلك كان « عمود الشعر » الذي أشار إليه النقاد . وتلك كانت « طريقة » العرب (أي القدماء) . وبهذا « العمود » كان النقاد ، في صدر العصر العباسي وأواسطه ، يقيسون أشعار الشعراء ويقدمون بعض الشعراء على بعض .

وقد كان الشعراء الذين سلكوا هذا المسلك يحككون شعرهم ، أي يرددون فيه النظر بالتنقيح والإصلاح وبالحذف . حتى رووا أن زهير بن أبي سلمى كان يقضي في عمل القصيدة حولاً (عاماً) كاملاً : ينظمها في أربعة أشهر ، ويردد نظره فيها أربعة أشهر ، ثم يعرضها على أهل الرأي من أصحابه أربعة أشهر . ولذلك سميت قصائده « الحوليات » ، وسمي هو « محبّراً » لحسن شعره ، ولكنه عُدّ بذلك أيضاً من عبيد الشعر الذين يتكلفون إصلاحه ويشغلون به حواسهم وخواطرهم [1] .

ويبدو أن نفراً آخرين من شعراء الجاهلية لم يكونوا يذهبون هذا المذهب ، بل كانوا ينظمون مقاطع قصاراً أو طوالاً ثم يقصرون تلك المقاطع على غرض واحد من الفخر أو الرثاء أو الهجاء أو الغزل أو الوصف أو الحكمة . وإذا كان

---

(١) قال المرزوقي في مقدمة شرح الحماسة (١ : ٨-١١) : « ... فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميز تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث .. ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع من المطبوع » . والشعراء الذين ساروا على عمود الشعر « كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف . ومن اجتماع هذه الاسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الابيات ؛ (ثم) المقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما (اقتضاء اللفظ والمعنى) للقافية حتى لا تكون منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل بيت منه معيار (مقياس) . فعيار المعنى العقل (أي يجعل المعنى) مستأنساً بقرائنه (من المعاني المتصلة به) وافياً (بها) . وعيار اللفظ الطبع ، فما سلم مما يهجنه فهو المختار المستقيم . وعيار الاصابة في الوصف حسن التمييز (أي انطباق الوصف على الموصوف حتى لا ينطبق الا عليه) . وعيار المقاربة في التشبيه حسن التقدير حتى يتبين وجه التشبيه بلا كلفة. وعيار التحام أجزاء النظم الطبع واللسان فلا يضطرب تركيبه ولا يتعثر فيه اللسان. فهذه الخصال هي عمود الشعر عند العرب ، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم . » .

نفر من الأدباء قد حفلوا بهؤلاء الشعراء واختاروا من أشعارهم مجاميع، كديوان الحماسة لأبي تمام. فان النقاد لم يحفلوا بهم كثيراً، **فتاريخ الشعر العربي في الجاهلية هو على الحقيقة تاريخ المعلقات وتاريخ شعراء المعلقات.**

ولما جاء العصر الأموي وأخذ الشعراء الموالي والمولدون يزدادون جعل « السائرون على عمود الشعر » يتجاهلونهم ويسخرون منهم. ولما بدأ عمر بن أبي ربيعة يفرض شعره على تاريخ الأدب قيل فيه: « ما زال هذا الفتى يهذي حتى قال الشعر » [1]. وهكذا فارق عمر بن أبي ربيعة عمود الشعر فقصر شعره كله على فن واحد. ثم قصر كل مقطوعة من شعره على حادثة واحدة، فكان بذلك زعيم ما سمي فيما بعد بالمذهب البغدادي — قبل أن تبنى بغداد بسبعين سنة —.

وسقطت دولة بني أمية في المشرق سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) وقامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، وكان الشعراء المولدون قد زادوا في العدد على الشعراء العرب، فأخذت الخصائص القديمة تختفي من القصائد شيئاً فشيئاً: أخذت القصائد تقصر والأغراض فيها تقل، وجعل نفر من الشعراء يفارقون الجدّ في الشعر إلى المَزحِ، والرصانةَ إلى البَطالةِ؛ ثم أخذ الأسلوب يضعف أو يَرِكّ لاهتمام الشعراء « المحدثين » باقتناص المعاني الجديدة وبالتعبير عما كان يختلج في صدورهم من الرغبات المتنافرة فقلّ لذلك اهتمامهم بالتركيب. واحتاج هؤلاء المحدثون أو المولدون في التعبير عن الأغراض الجديدة التي زخرت بها بيئتهم إلى ألفاظ جديدة أو إلى صيغ جديدة على الأقل، فتناولوا تلك الألفاظ من غير اللغة العربية الفصحى واشتقوا من الصيغ ما تمكنوا به من التعبير عن ظلال المعاني الجديدة التي كانت تزخر بها صدورهم [2]. هذه الطريقة الأدبية التي قامت على تفضيل المعنى على اللفظ عرفت في تاريخ الأدب باسم « المذهب البغدادي ».

ولما استطال النفوذ الفارسي في المجتمع العربي والسياسة العربية وفي الأدب

---

(١) راجع عمر ابن أبي ربيعة للمؤلف (الطبعة الثانية)، ص ٤٠ — ٤١.

(٢) راجع الوساطة ٢٣، ٢٤؛ العمدة ١: ١٥٠.

العربي أيضاً . خشيَ هرون الرشيد أن يزيل الفرس الدولة العربية فنكب وزراءه البرامكة سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) وأتى إلى الوزارة بالفضل بن الربيع لينهج في الدولة سياسة عربية . ولما كان الناس على دين ملوكهم فان الناس مالوا بعد نكبة البرامكة عن كل ما هو فارسي في السياسة وفي مظاهر المجتمع ، وفي الأدب أيضاً .

وهكذا عاد الشعراء العباسيون إلى عمود الشعر القديم ثم بالغوا في ذلك . وقد عرف هذا « المذهب المستأنف في العصر العباسي » باسم « المذهب الشامي » . فالشعراء الشاميون إذن هم المحافظون على عمود الشعر القديم ، وهم المحافظون ذوو العصبية العربية البدوية والسالكون في الشعر مسلك الشعراء الجاهليين من أصحاب المعلقات خاصة . على أن الشعراء الشاميين قد زادوا على الجاهليين في تكلف المعاني البعيدة وملأوا أشعارهم بالبديع . بالجناس وبالطباق، وأوغلوا في التشابيه والاستعارات . أما البغداديون فهم المجددون المتساهلون في أمر العصبية لأن معظمهم من الفرس . ثم إنهم ميالون إلى الحَضَر وما فيه من ترف كارهون للبادية . ثم إنهم مالوا في قصائدهم إلى المقاطع ووحدة المعنى فيها والتساهل في الألفاظ والتراكيب وتركوا التكلف وجَرَوْا على السجية . وقد كرهوا البديع إلا ما جاء في شعرهم عفواً .

والمذهب البغدادي والمذهب الشامي في الأصل تسميتان جغرافيتان ، إذ المفروض أن يكون الشعراء البغداديون من أهل بغداد والشعراء الشاميون من أهل الشام (سورية) . فبشارٌ وأبو نواس وابن الرومي هم من شعراء المذهب البغدادي المقدّمين ومن أهل بغداد . وكذلك ديك الجن الحمصي وأبو تمام والبحتري والمتنبي وأبو فراس والمعري كانوا من أتباع المذهب الشامي ومن أهل الشام . غير أن مسلم بن الوليد والشريف الرضي كانا بغداديين على المذهب الشامي . ومثلهما كان المتنبي عراقي الأصل من الكوفة ولكنه شامي المذهب . ثم ان أبا تمام و البحتري كانا من أهل الشام ومن أتباع المذهب الشامي مع أنهما قضيا الجانب الأوفر من حياتهما الأدبية في العراق .

موجز خصائص المذهب الشامي

في ما يلي موجز للآراء المبسوطة في الصفحات السابقة منسوقة نسقاً ظاهراً:

١ ــ شكل القصيدة : إطالة القصيدة وتعدد الأغراض فيها ، والقصيدة الشامية تبدأ عادة بالنسيب .

٢ ــ تثقيف الشعر : العناية بالأبيات بتنقيحها .

٣ ــ التأنق والتصنيع : العناية باللفظ والتركيب والإكثار من البديع ، مع الحرص على ألا تخلوَ قصيدة ولا بيت من أبيات قصيدة من هذا التصنيع ما أمكن[1] .

٤ ــ الايغال في التشبيه والاستعارات الى ما يشبه الرمز حتى ليكادُ يغمض المعنى وتخفى الصورة البلاغية .

٥ ــ جمع المعاني الكثيرة في الابيات القليلة ، والوقوف على المعنى الواحد بالتقليب له على وجوهه وبإقامة الادلة على صحته ، وبضرب الأمثلة .

٦ ــ لزوم الجد او التظاهر به على الاقل. فقلما يميل الشاعر الشامي الى اصطناع المرح واللهو وقلما يحسنهما في شعره .

٧ ــ إدخال فنون العلم في الشعر ، فالشاعر الشامي شاعر مثقف تظهر ثقافته في شعره وهو يطوي شعره على اشارات الى اغراض من اللغة والنحو والأدب والفقه والمنطق والفلسفة والفلك وما اليها .

٨ ــ يلتزم الشاعر الشامي في حياته وشعره مسلكاً معيناً يحاول ان يفرضه في صلاته بالناس ويصبر على المشاقّ ويتشدد في المصائب . وكان معظم الشعراء الشاميين يتشيعون لآل البيت .

٩ ــ الشاعر الشامي شاعر مقتدر ينظم الشعر في جميع الاغراض التي يريدها. اما الطبع عنده فقليل البروز .

---

(١) استشهد الجرجاني (الوساطة ٣١) بقطعة في الغزل لابي تمام « لم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة طابق (فيه) وجانس واستعار فأحسن » .

١٠ ـ يؤلف المديح الجزء الأوفر من ديوان الشاعر الشامي . ثم ان خصائص المديح تغلب عنده على سائر فنونه . وهو يجيد الفخر ، وربما اجاد الرثاء ووصف المعارك إجادة كبيرة . ثم إنه لا يجيد الهجاء : وقلما برع في الغزل . وكذلك تكثر الحكمة عند الشاعر الشامي كثرة ظاهرة . اما المجون فلا يكاد يظهر عنده .

١١ ـ الاكثار من الاعلام الجغرافية ، إما بالوقوف على الاطلال تقليداً لشعراء الجاهلية ، أو تملحاً بذكرها ، أو اعتماداً عليها لتبيان التنقل وتقييد الحوادث .

١٢ ـ الاكثار من ذكر الاشارات التاريخية : رجال التاريخ والحوادث والمعارك والانساب وما اليها .

ولا ريب أبداً في أن الشعراء الشاميين يتفاوتون في هذه الخصائص اقتصاداً وإسرافاً . وقد يشترك الشاعر الشامي والشاعر البغدادي في بعض هذه الخصائص .

نظم ابي تمام

كان في ابي تمام ابطاء [١] (في نظم الشعر) ، وكان يُكره نفسَه على قول الشعر اكراهاً ؛ فلا غرو ان ظهر ذلك على شعره [٢] ؛ كان يفعل ذلك ليقتسر المعنى البعيد او الاستعارة التي يتخيلها ، او التجنيس الذي يطلبه . وربما نصب القافية التي تروقه وجهد في سَوق البيت اليها . مع ان ذلك مخالف لمذهب الشعراء المطبوعين . ان البيت يجب ان يأتي بقافيته ؛ على ان الشعراء الذين يجمعون القوافي اولاً ثم يبنون عليها الابيات ليسوا قليلين .

وابو تمام من الذين يُعنَوْن بتهذيب شعرهم ؛ فمن شواهد ديوانه على ذلك :

ـ اليك أرَحْنا عازب الشعر ، بعدما تمهّل في روض المعاني العجائبِ [٣] .

---

(١) الاغاني ١٢ : ٦٧ .

(٢) العمدة ١ : ١٣٩ .

(٣) خ ٤٣ ؛ راجع المختارات .

– نشرٌ يسيرُ بــه شعرٌ يُهذّبــه فِكْرٌ يجول مجالَ الروح في الجسدِ [١] .
– أوْلى المديح بأنْ يكونَ مهذّباً ما كــان منــه في أغرّ مــهذبِ [٢] .

وهو يريد بذلك ان يُبلغ شعرَه الغاية :

– سأجهد حتى أبْلغَ الشعرَ شأوَه . وان كان لي طوعاً ولستُ بجاهــد [٣] .
– سيّرتْ فيــكَ مدائحاً فــتركتُها غُرَراً تروح بها الرُّواةُ وتغتدي [٤] .

نحن نعلم ان ابا تمام نصح للبحتري في اتباع خُطة في النظم تُخرج شعره مسبوكاً ، ولا ندري اذا كان قد اتبعها هو فكانت له مذهباً ؛ او انها موعظة محض . وعلى كل فان فيها أن ينهض الشاعر في السّحَرَ بعد ان يكون قد أخذ لنفسه قسطاً من الراحة ؛ ويكون خلياً من همّ أو غمّ . ثم ليجعل النسيب رقيق اللفظ رشيق المعنى . وليكن مدحه مُظهِراً مناقبَ الممدوح مشرّفاً مقامه ؛ وليجتنب في كل ذلك المعانيَ المجهولة والالفاظ الوزية [٥] ؛ ثم ليقصد الى ما استحسنه الماضون وليترك ما اجتنبوه . بعد ئذ خصه بهذه النصيحة الثمينة : « واجعــل شهوتك لقول الشعر الذريعةَ الى نظمه [٦] » .

هذه الوصية تصدق على ما نرى في قصائد شاعرنا ولكنها تخالف الرواية التي يتمسك بها ادباء كثيرون [٧] من انه رُوي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة احسن في جميعها الا في بيت واحد . فقال له : « يا ابا تمام ، لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب » ؛ فقال له : « انا والله أعلم منه مثل ما تعلم ؛ ولكنّ مثَلَ شعر الرجل عنده مثلُ اولاده : فيهم الجميل والقبيح ؛

(١) خ ٤٩٢ .
(٢) خ ١٤ .
(٣) خ ١٩ لست بجاهد : مجهد نفسي (متعبها) في قول الشعر .
(٤) ١٣٧ .
(٥) راجع المديح ، في ما يلي .
(٦) ملخصة ، راجع العمدة ١ : ١٣٩ .
(٧) الاغاني ١٥ : ٩٦ .

والرشيد والساقط ؛ وكلهم حلو في نفسه . فهو وان احب الفاضل لم يبغض الناقص ، وان هَوِيَ بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر » .

التصريع والتوشيح

لم يكن بنا حاجة الى ذكر التصريع هنا لولا انه سيقودنا الى البحث في التوشيح. لقد جرى الشعراء على تصريع قصائدهم : التزامهم القافية في العَروض والضَرْب من المطالع كقولهم :

– قفا نبك من ذكرى حبيب ومنز (ل)

بسقط اللوى بين الدخول فحوم (ل) .

– الا هُبّي بصَحنك واصْبَحِ (ينا) ولا تُبقي خمورَ الانـدر (ينا) .

– دع عنك لومي ،فاناللوم إغر (اءُ)، وداوني بالتي كانت هي الد (اءُ)

وعلى هذا سار ابو تمام في جميع قصائده المهمة الا قصيدة واحدة جعل مطلعها :

سلام الله عـدة رمل (خبت) على ابن الهيثم الملك (اللباب) [1] .

ومع ان « المصرّع ادخل في الشعر واقوى من غيره » [2] فقد تساهلوا في المقطعات احياناً لاعتقادهم ان القصائد فقط يجب ان تُصَرَّع . وعلى هذا ايضاً سار ابو تمام . ولكنه كان يصرّع احياناً مطلع البيتين والثلاثة [3] .

التوشيح

استحدث المتأخرون من شعراء الاندلس فناً « سمّوه بالموشح ينظمونه اسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصانا ، يكثرون من اعاريضها المختلفة ... ويلتزمون

---

(١) ديوان ، الاسود ١ : ١٤٦ ، خ ٥٥ .
(٢) العمدة ١ : ٩٩ ، وراجع ايضاً اختلاف العلماء على ما هي القافية الى ص ١٠١ ثم ص ١١٤ .
(٣) راجع الديوان خ ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ الخ .

قوافيَ عند تلك الاغصان [1] ... »

وقد ورد لأبي تمام أبيات فيها تقسيم أو تسهيم يشبه ما ورد في الشعر الذي يعد طليعة للتوشيح، قسم فيها أبو تمام الأشطر أقساماً متساوية أو شبه متساوية والتزم القافية في آخر كل جزء من أقسام الاشطر. وفي ما يلي أبيات لأبي تمام تجري هذا المجرى [3]:

- يقول فيسمعُ. ويمضي فيسرعُ، ويضرب في ذات الاله فيوجعُ.

- جبال طواليع، جبال فوارعُ. غيوث هواميع، سيول دوافع.

- انا الحسام، انا الموت الزؤام، انا الحرب الضرام، انا الضرغامة العتد.

ايام سيفك مشهور، وبحرك مسجور، وقرنك مقصور، له الطول.

ألا سبيل ندى، الا سبيل بلى؟ لو كان حياً لأضحى للندى سبل.

يعطي فيجزلُ، او يدعي فينزل، أو يُؤتى لمحمل اعباء فيحتملُ.

- ومن فاحم جعد، ومن قمر سعد، ومن كفل نهد، ومن نائل ثمد.

وألصق شيء بهذا الموضوع وزن جديد ليس من الابحر الستة عشرة في أبيات هي [4]

---

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٣) ٥٨٣.

(٢) للمؤلف دراسة حديثة في الموشح وتطوره أثبت موجزاً لها في كتابه «المنهاج في الادب العربي وتاريخه» (الجزء أ، ص ٢٦٣ - ٢٧٢)، ولكن لا سبيل الى المجيء بشيء منها هنا، ولا الاشارة الا بهذه الكلمة العارضة.

(٣) الابيات التالية ترد في الديوان خ، ص ١٩١، ٤٧٩، ٤٩٢، ٣٨٣، ٣٨٤ مرتين، ١٢٧ على التوالي.

(٤) الديوان ٤٤٣. - وقد وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس (مخطوطة برلين ٢٠١ أ) مع شيء من الاختلاف في الرواية. وكذلك ورد لأبي نواس نفسه ما يشبهها (مخطوطة برلين ٢٠٣، راجع ديوان أبي نواس، مصر ١٨٩٨ ص ٣٤٦):

سلاف دن كشمس دجن كدمع جفن كخمر عدن.

طبيخ شمس كلون ورس ربيب فرس حليف سجن.

وللشاعر معروف الرصافي (ت ١٩٤٥ م) قطعة هي (ديوان، مصر الطبعة الرابعة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م ص ٤٢٨)

سمعت شعراً للعندليب تلاه فوق الغصن الرطيب،

نلاحظ أنها من البحر نفسه ولكنها ليست موشحة من حيث القوافي.

ثقيل ردف دقيق خصر ؛ شقيق شمس نتيج بـــدر .
بديع حسن رشيق قـــد ، مليح خـــد نقي ثغـــر .
قضيب بـــان عليه بـــدر ، مثـــال حسن عروس خـــدر .
يا خصرُ ، قد كنتُ ذا اصطبار في الحب حـــتى هتكتَ ستري .
نمّت دموعي عـــلى عزائي . اذ غاب عـــني جميل صبري .

واحسبني لم اجد له غير بيت واحد فيه كلمة عامية [1] :

الا بـــكرت معذورة حين تعذل تعرّفـــني (ملعيش) ما لست اجهل .

وتستطيع ان ترى شيئاً من اللحن الذي اخذه عليه الآمدي في الموازنة [2] . ولعله ، اعجاباً منه بطائيته ، استعمل « ذو » الطائية بمعنى الذي مرتين :

اذا انتَ وجّهت الرِكابِ لـــقصدهِ تبيّنْتَ طعمَ الماء «ذو» أنت شاربُهُ [3]
ـ أنا « ذو »عرفتَ، فان عرتك جهالة فأنا المقيم مقامةَ العُـــذّالِ [4] .

---

(١) ديوان ٢٤٥ . ـ ملعيش أصلها « من العيش » نحت يلجأ اليه العامة تخفيفاً للفظ مثل «أيش» (أي شيء) و« لايش » (لأي شيء) . وقد يدخل الادباء عدداً من هذه الالفاظ في شعرهم ونثرهم تملحاً ، كما قال أبونواس (ديوان ٣٠١) :

كيف أصبحت ؟ لا عدمت صباحاً صالحاً ، يا محمد بن قريش .
أنت نفسي ، كيف استجزت اطراحي ؟ فيم ذا ، سيدي ، وذاك لأيش ؟

ويرى بعضهم أنها فصيحة ولكنها لغية ، مثل بلعنبر وبلحارث وبلهجيم مكان بني العنبر وبني الحارث وبني الهجيم .

(٢) الموازنة ١٢ وما بعدها ، أعيان الشيعة ١٩ : ٩٥ ـ ٩٧.

(٣) الديوان ٤٥ . ـ ذو الطائية معناها « الذي » ، وهي من بقايا اللهجة الحميرية (العربية الجنوبية ، لغة اليمن) ، راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة تأليف اغناطيوس غويدي ، ص ٦ . و « ذو » هذه تلزمها الواو في الرفع والنصب والخفض (شرح التبريزي ١ : ٢٣٣) .

(٤) الديوان ٢٤٦ .

المتعصبون له والمتعصبون عليه

لم يعرف الأدب العربي شاعراً أثار جدالاً صحيحاً في حياته كأبي تمام . اذ اندفع الادباء الى ديوان الشاعر ينشرون حسناته او سيئاته ، ويجادلون فيها حقاً وباطـــلاً .

عرفنا رواة الأدب يفضلون امرأ القيس على سائر شعراء الجاهليـــة ، او يرفعون زهيراً فوق النابغة ، او يحكمون لأبي نواس على مسلم بن الوليد او لمسلم على ابي نواس في جمل عارضة واحكام عامة قد تستهويك فتصدقها او لا ترضيك فتمر بها غير آبه ولا حافل ؛ وكذلك كان شأن الناس في الانتصار لجرير والفرزدق والاخطل . اما الصراع حول مقام ابي تمام فلا يمكنك ان تشهده مكتوف اليدين ولا تستطيع ان تقول إنّ الناس كانوا يتجادلون في لا شيء .

قد يسبق الى الذهن ان الناس انقسم رأيهم في المتنبي ، أو انه كان للمتنبي خصوم ، وأنه شغل الناس ؛ لكنا اذا درسنا الأحوال التي نشأت فيها خصومة الناس للمتنبي وجدناها تختلف عن تلك التي اثارت الجدل في شعر ابي تمام : وجدنا الذين يناهضون ابا تمام يناهضونه بشاعر معين هو البحتري ؛ ثم يجعلون الشاعرين مدار البحث ، ومثار الجدال .

المتحاملون على أبي تمام

اذا احببت ان تهتدي الى السر في شدة الحملة على ابي تمام بـــين الشعراء من

معاصريه خاصة فخذ رواية ابي الفرج الاصفهاني [1] « ما كان احد من الشعراء يقدر ان يأخذ درهماً بالشعر في حياة ابي تمام . فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذه ... » ولم يكن هؤلاء الشعراء نفراً لا عدد لهم او لا نبوغ فيهم ؛ فقد قال ابن رشيق [2] : « وليس في المولدين اشهرُ اسماً من الحسن ابي نواس ، ثم حبيب والبحتري . ويقال إنهما اخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ... » واما البحتري ، وهو اشهر المولّدين بعد ابي تمام فقد اعترف بتقديم صاحبه فقال : « ان ابا تمام لَلرّئيس والاستاذ . واللهِ ، ما اكلت الخبز إلاّ به » — « وكان اصل نباهة البحتري ان صار الى ابي تمام في حِمص فعرض عليه شعره فاستحسنه ابو تمام ، وكتب الى اهل معرة النعمان وشفع لـه اليهم ... » [3] — ثم لم تُعرف للبحتري نباهةٌ وشهرة حتى مات ابو تمام .. اما الآمدي فينكر ان يكون البحتري اتصل بأبي تمام اتصالَ من يستفيد او يتوصل الى وجاهة ونباهة [4] .

ثم ان العلماء ذلّلوا أشعارَ الأوائل ولم يحفلوا بالمحدَثين فجهلوا الاجابة عن أشعارهم فعمدوا الى الطعن عليهم ، وخصوصاً أبا تمام لأنه أقربهم عهداً وأصعبهم شعراً [5] .

ومن أشهر الذين ناصبوا أبا تمام العداء في حياته دِعبِل بن علي الخُزاعيّ (ت ٢٤٦ هـ) كان يثلبه ويكذب عليه ويضع عليه الاخبار وينسبه الى سرقة معاني الشعراء [6] . وقد ادّعي دعبل ايضاً أن أبا تمام كان يسرق منه [7] . وبلغ من تعصبه على أبي تمام انه أُنشد يوماً شعراً ثم سئل رأيَه فيه فقال : « هو ، والله ، أحسن من عافية بعد يأس » . فلما قيل له : « إنه لأبي تمام » ، قال : « لعله سرقه ! » [8]

---

(١) الاغاني ١٥ : ٩٨ .

(٢) العمدة ١ : ٦٣-٦٤ .

(٣) الاغاني ١٨ : ١٦٨،١٦٩ .

(٤) الموازنة ٣-٤ .

(٥) راجع اخبار ابي تمام ١٤-١٥ .

(٦) أخبار أبي تمام ٦١،١٨١-١٨٢،١٩٩-٢٠٠،٢٤٤، راجع ٢٠٢ .

(٧) أخبار أبي تمام ٦٣-٦٤؛ غ ١٥ : ١٠١-١٠٢ . (٨) غ ١٥ : ١٠٢ .

ولكن لما توفي أبو تمام عاد دعبل فمدحه [1] .

وكان من أعداء أبي تمام أيضاً ابراهيم بن المدبّر (ت ٢٧٠ هـ) ؛ كان يتعصّب على أبي تمام ويحطّه عن رتبته ، ويستجيد شعره ولكن لا يوفّيه حقه [2] . وكان ابن المدبر أديباً شاعراً ومن ذوي الجاه والمتصرفين في كبار الاعمال في الدولة العباسية . وقد كان صديقاً للبحتري معجباً به وبشعره ، وكان البحتري يمتدحه [3].

وكذلك كان ابن الاعرابي ، أحد أئمة اللغة ، شديد العصبية على ابي تمام ؛ قال مرة عن شعر أبي تمام : « إن كان هذا شعراً ، فكلام العرب باطل » [4]، يقصد لِما فيه من التكلف .

أنصار أبي تمام وخصومه المتأخرون

بعدئذ مضى الأدباء يؤلفون في فضائل أبي تمام وفي مثالبه . فمن الكتب التي أُلّفت في فضائل أبي تمام [5] كتاب أخبار أبي تمام للصولي ، وأخبار أبي تمام والمختار من شعره للسميسطاني ، وكتاب للمرزباني ، وأخبار أبي تمام ومحاسن شعره للخالديّين وكتاب سرقات البحتري من أبي تمام لأبي ضياء النصيبي [6]. ومن الذين ألّفوا في مثالب أبي تمام أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، وأبو العباس أحمد بن عبيدالله القُطْربلي [5] ورجل اسمه عبدالكريم .

وغير زمن لم يكن فيه بين يدي الادباء والدارسين سوى كتاب الموازنة للآمدي .

ولقد فطن بعض المؤلفين لتحامل الآمدي على ابي تمام ومحاباته للبحتري فقال

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٠٢ .

(٢) أخبار أبي تمام ٩٧، ١٧٥ .

(٣) أخبار البحتري ٧٦، ١١٣-١١٤، ١١٨، ١٢٤-١٢٦، ١٣٤، ١٥٧.

(٤) أخبار أبي تمام ١٧٥-١٧٦ ، راجع ١٧٧، ثم ٢٤٤ وأخبار البحتري ١٤٧ .

(٥) الفهرست (القاهرة) ١٩٠-١٩٢، ٢١٣، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٤٠، ٢٤١ .

(٦) الفهرست ٢١٣.

ابن النديم : « ان في الآمدي تحاملاً على ابي تمام » ، ونسبه الشريف المرتضى الى الغلو في انتقاد ابي تمام [1] . ويخبرنا ياقوت [2] ذلك بتفصيل واف فيقول : ولأبي القاسم (الامدي) تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها ، منها كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري ... وهو كتاب حسن وان كان قد عيب عليه في مواضع منه ، ونسب الى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على ابي تمام فيما ذكره ... فانه جد واجتهد في طمس محاسن ابي تمام وتزيين مرذول البحتري ... » وياقوت لا ينكر فضائل البحتري بل يقول : « لو انصف (الآمدي) وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من ابي تمام » .

وفي العام ١٩٣٧ صدر كتاب أخبار أبي تمام لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي [3] فأصبح بين يدي الدارسين لحياة أبي تمام وشعره — لحسن حظ أبي تمام وحسن حظ الأدب — مصدر يمثل وجهة نظر المنصفين لأبي تمام في وجه موازنة الآمدي .

دفاع أبي الفرج

لابي الفرج الاصفهاني دفاع عن ابي تمام يتكافأ فيه الأدب الرفيع والخلق النبيل . قال ابو الفرج [4] :

« وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ،

---

(١) الشهاب في الشيب والشباب (قسطنطينية ١٣٠٢هـ) ص ٤ وما بعدها .

(٢) معجم الادباء ٣ : ٥٩ .

(٣) نشره وحققه وعلق عليه خليل محمود عساكر ، محمد عبده عزام ونظير الاسلام الهندي (القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦هـ—١٩٣٧م) . حينما كنت في ألمانية عثرت على هذه المخطوطة في المكتبة العامة في برلين (رقم مخطوطات شرقية ١٩٣٢ - ٢٣) فاستخرجت لها صورة وعكفت على دراستها . ففي يوم من الأيام رأيت في القسم الشرقي من مكتبة برلين السيد نظير الاسلام يعمل على المخطوطة نفسها وأخبرني أنه يعمل على المخطوطة لجعلها أطروحة له ثم قص علي قصة أديبين مصريين عرفا بالمخطوطة وكادا يسبقانه في نشرها . بعدئذ سألاه أن يضم جهوده الى جهودهما .

(٤) الاغاني ١٥ : ٩٦ ؛ ١٢ : ٦٧ (بولاق ١٢ : ٧٠) .

ويستعملون القِحَّة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزَه الا بأدب فاضل وعلم ثاقب . وهذا مما يتكسب به كثير من اهل هذا الدهر ويجعلونه ، وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معائبهم . سبباً للترفع وطلباً للرئاسة . وليست اساءة من اساء في القليل واحسن في الكثير مسقطةً احسانَه . ولو كثرت اساءته ايضاً ثم احسن لم يُقل له عند الاحسان اسأت . ولا عند الصواب اخطأت ! والتوسط في كل شيء اجمل . والحق احق ان يتبع ...

« ... وقد فضل ابا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ولا يدركون ، — وان جدوا — آثاره ؛ وما رأي الناس بعده الى حيث انتهوا له في جده نظيراً ولا شكلا ... وكان في ابن مهرويه تحامل على ابي تمام لا يضر ابا تمام هذا منه ، وما اقل ما يقدح مثل هذا في مثل ابي تمام »[1] .

مهاجاته الشعراء

هجا أبا تمام شعراء كثيرون . فرد أبو تمام على بعضهم ولم يلتفت الى بعض. من هؤلاء جميعاً[2] دعبل بن علي ومخلد بن بكار الموصلي وعبدالصمد بن المعذل الشاعر البصري وشاعر اسمه الوليد . ومنهم خالد الكاتب وعبدالله الكاتب ومحمد بن يزيد ، ويوسف السراج الشاعر المصري وعتبة بن أبي عاصم ، ومحمد ابن وهب الحِميْري الشاعر ومحمد بن الحسن الشاعر .

---

(١) راجع أخبار أبي تمام ٢٤٥ ، ورثا ابن مهرويه آبا تمام (ص ٢٧٩) .

(٢) راجع في ما يلي كله : الاغاني ٢١ : ٣٤ ؛ وفيات ١ : ١٥٠ ؛ العمدة ١ : ٧٠ ؛ ديوان خ ٤٨٥ — ٤٨٧ ، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٤ الخ ؛ أخبار أبي تمام ٣٤ : ٢٣٥—٢٤٣، ٤٢١—٤٢٢ .

آثَارُهُ وَأَثَرُه

لا إخالني اعرف شاعراً مؤلفاً قبل العصر العباسي ؛ اما في العصر العباسي فقد كان من الشعراء المُقِلين كتّابٌ (في الدواوين) . من هؤلاء الشعراء : عبد الله بن المُقَفّع (الكاتب المنشىء) ، محمد بن عبدالملك الزيات ، سليمان بن وَهْب ، عمرو بن مَسْعَدَة ، احمد بن المُدَبّر ، احمد بن يحيى البلاذري المؤرخ ، والخالديان محمد وسعيد ؛ وغيرهم ممن هم اقل شهرة[1] ؛ ومن هؤلاء ايضاً بِشْر بن المُعْتَمِر[2] لأنه « نقل من الكتب من معانٍ شتّى الى الشعر » .

اما بعد ابي تمام فهنالك البحتري ، وابن المعتز ، والسريّ الرفّاء ، وابو العلاء المعري ؛ فهم مؤلفون بالمعنى الذي نفهمه اليوم .

وأشهر الشعراء المؤلفين ، حاشا أبا العلاء المعري الشاعر المكثر وعبدالله بن المقفع الشاعر المقلّ ، أبو تمام الطائي . ذكر ابن النديم[3] لأبي تمام أربعة مؤلفات هي : كتاب الحماسة ، كتاب الاختيارات من شعر الشعراء ، كتاب الاختيارات من شعر القبائل ثم كتاب الفحول. وقد عُني السيد محسن الامين[4] بتعداد

---

(١) الفهرست ٢٣٦-٢٣٩، ٢٤٠ وما بعدها

(٢) الفهرست ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٣) الفهرست ١٦٥ ؛ في أعيان الشيعة (١٩ : ٤٨٩) خمسة مؤلفات ، وذلك وهم (راجع تحت ، الكلام على الحماسة الصغرى).

(٤) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٨٦-٤٩٨ ؛ راجع أيضاً حركة التأليف عند العرب ١ : ٩٥-١٠٤ ، في ما يتعلق بكتاب الحماسة وحده .

هذه المؤلّفات وبأقوال مؤرّخي الأدب فيها وفي أمثالها عناية فائقة . وفي ما يلي وصف موجز لهذه المؤلّفات :

١ — ديوان الحماسة ، أو كتاب الحماسة ، أو الحماسة الكبرى [١] :

زار أبو تمام عبدَ الله بن طاهر واليَ خراسان، وكان يقيم في نيسابور ، ومدحه ثم عاد وشيكاً . وفي أثناء رجوعه اعترضه الثلج عند مدينة هَمَذان — وكان الشتاء في ذلك العام شديداً [٢] — فمال الى صديق له هنالك اسمه أبو الوفاء بن سلمة ريثما يذوب الثلج فيستطيع أن يتابع سيره الى العراق .

وكان عند أبي الوفاء بن سلمة خزانة كتب قيّمة فانصرف اليها أبو تمام وجمع من دواوين الشعر التي كانت فيها كتاب الحماسة وغيره فيما قيل . وقد أختار أبو تمام في « ديوان الحماسة » نحو سبعمائة وثمانين قطعة لنحو أربعمائة وخمسة وستين شاعراً من الشعراء المقلين ولا سيما المغمورين منهم ، سوى المجاهيل [٣] .

في « ديوان الحماسة » نحو عشر أبيات مفردة [٤] ، ثم هنالك بضع مختارات تتألف كل واحدة منها من ثلاثة أشطر من الرجز [٥] . ولكن معظم المختارات تتألف من مُقطّعات يتراوح عددها بين بيتين وبين عشرة أبيات . وفي الحماسة أيضاً مقاطع قليلة تزيد أبياتها على عشرة وتقل عن عشرين . أما المقاطع التي يزيد عدد

---

(١) راجع فوق، ص٣٢ ؛ هبة الأيام ٩ ، ١٣٨ ، أعيان الشيعة ١٩ : ٤٨٦—٤٩٠ ، حركة التأليف عند العرب ١ : ٩٥—١٠٢ . GAL. Suppl. I 136 ff.

(٢) اوائل ٢٢٢هـ = أوائل ٨٣٧م .

(٣) بعض مقاطع الحماسة منسوبة هكذا : قال بعض بني بولان من طيء — قال أعرابي قتل أخوه ابناً له — قال رجل من بني تميم — وقال آخر — قال بعض بني أسد — قالت امرأة من طيء — قالت غيرها — قال أعرابي — قال بعض المدنيين الخ . ويبلغ هؤلاء المجاهيل نحو مائة وخمسين شاعراً يمكننا أن ننسب نحو ثلاثين منهم على وجه الايقان أو الظن .

(٤) ديوان الحماسة ٢ : ٣٧٠، ٣٧٣، ٣٧٤.

(٥) ديوان الحماسة ٢ : ٣٦٦، ٣٧٢، ٣٧٧ .

أبياتها على عشرين فهي ست : قصيدة السموأل بن عاديا : « اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه »[1] وقصيدة المنخّل بن الحارث اليشكري : « ان كنتِ عاذلتي فسيري »[2] . وكل واحدة منهما اثنان وعشرون بيتاً. ثم هنالك قصيدة العُديل ابن الفَرْخ العجلي : « ألا يا اسلمي ، ذات الدماليج والعقد »[3] ، وقصيدة يزيد ابن الحكم الثقفي يعظ ابنه بدراً : « يا بدر ، والامثال يضربها لذي اللب الحكيم[4] » ، وكل واحدة منهما ثلاثة وعشرون بيتاً . وتأتي بعدئذ قصيدة تأبط شرا : « ان بالشعب الذي دون سلْع ...»[5] . وهي ستة وعشرون بيتاً . أما أطول مقاطع الحماسة اطلاقاً فهي قصيدة زياد بن حَمَل بن سعد[6] :

لا حبّذا أنتِ ، يا صنعاء . من بلد ولاشعوب — هوى مني — ولا نقم[7] ،

فانها أربعة وأربعون بيتاً .

واختار أبو تمام في الحماسة مقاطع لجميع الشعراء المقلين والمكثرين ، والمشهورين والمغمورين ، والقدماء والمحدثين ، وان كان جل اهتمامه بالمقلين المغمورين القدماء . أما المشاهير فضمت الحماسة منهم المهلهل وطرفة وعمرو بن كلثوم وعنترة والنابغة في الجاهليين . وحسان والخنساء والفرزدق والاخطل وجميل بن مَعمَر في الاسلاميين ، وأبا العتاهية والعباس بن الاحنف ومسلم بن الوليد ثم بكر بن النطّاح المعاصر لأبي تمام من المحدثين .

والمفروض أن يكون أبو تمام قد اختار في الحماسة مقطوعة واحدة لكل شاعر

---

(١) ديوان الحماسة ١ : ٣٦-٤٠ .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٢٠٨-٢١١ .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٣٠٨-٣١٣ .

(٤) ديوان الحماسة ٢ : ٤٠-٤٥ .

(٥) ديوان الحماسة ١ : ٣٤٨-٣٥٣ .

(٦) ديوان الحماسة ٢ : ١٤٤-١٥٤ .

(٧) صنعاء : عاصمة اليمن ، وشعوب بفتح الشين (القاموس ١ : ٧٨) مكان في اليمن ، قصر عال أو متنزه ذو بساتين ورياض في ظاهر صنعاء . نقم (بضم النون) : قرية في اليمن (القاموس ٤ : ١٨٣) ، بلدة في اليمن ، او جبل عال فيها — ليس فيك ، يا يمن ، شيء أحبه ، لا صنعاء ولا شعوب ولا نقم .

استجاد شعره . ولكن الذين اختار لهم قطعتين أو ثلاثاً لسيوا قليلين . أما الذين اختار لهم اربع مقطوعات أو خمساً أو ستاً فانهم قليلون جداً . فمن الذين اختار لهم ست مقطوعات حاتم الطائي وعروة بن الورد وهما جاهليان ؛ ثم موسى بن جابر الحنفي وهو شاعر اسلامي .

وتنقسم الحماسة عشرة أبواب . هي عشرة فنون من الشعر : الحماسة — المراثي — الأدب (الحكمة) — النسّيب — الهجاء — الاضياف والمديح — الصفات (الوصف الحسي) — السير والنعاس — المُلَح (النكت والفكاهة والاحماض والمجون) — مذمّة النساء . وقد سمى أبو تمام هذا المجموع كله باسم الباب الأول منه « الحماسة »[1] ؛ وهو أطول الأبواب وأهمها في هذا المجموع القيم .

واشتهر كتاب الحماسة لأبي تمام شهرة غطت على شهرة كل مجموع آخر شبيه به . فإذا قلنا اليوم « ديوان الحماسة » فإننا نعني ديوان الحماسة لأبي تمام . وقد دل ديوان الحماسة هذا على سعة اطلاع أبي تمام وغزارة علمه بالشعر وحسن ذوقه في الاختيار حتى قيل إن ابا تمام كان في اختياره لديوان الحماسة أشعر منه في شعره[2] . ومن أوجه الأهمية لديوان الحماسة أننا نجد فيه أشعاراً لا نعرفها في مكان آخر .

ولقد عد السيد محسن الأمين شروح ديوان الحماسة فوجدها أربعة وثلاثين شرحاً[3] بعضها شروح عامة كشرح الامام المرزوقي المتوفي سنة ٤٢١ للهجرة ، وشرح الخطيب التبريزي المتوفي سنة ٥٠٢ للهجرة . ومنها أيضاً شروح خاصة

---

(١) الحماسة ، في الاصل ، الشدة في الدين والقتال ، ثم هي الشجاعة (راجع القاموس ٢ : ٢٠٨) . والحماسة أيضاً هي الشعر الذي يقال في القتال وفي التجلد في المصائب والقسوة وقلة المبالاة وصلابة النفس في أي فن من فنون الشعر جاءت هذه الخصائص (راجع شرح الحماسة للتبريزي) .

(٢) خمسة شعراء جاهليون ، للمؤلف ص ٢٥ ، ٢٧ .

(٣) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٠—٤٩٤ ، راجع حركة التأليف عند العرب ٩٨—٩٩ . اما أحمد أمين وعبد السلام هارون فقد احصيا نحو ثلاثين شرحاً (شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ : ١١— ١٥ من التقديم) . ولعلهما كررا اسم الصولي مرتين (رقم ١ و ١٣ وجعلا وفاته مرة سنة ٣٣٥ هـ ومرة سنة ٤٧٦ هـ) .

تتناول أوجهاً معينة من هذا الديوان القيم . فهنالك المبهج في شرح أسماء رجال الحماسة لابن جني ، ومنها رسالة في ضبط أعلام الأماكن في ديوان الحماسة لأبي هلال العسكري .

٢ – الحماسة الصغرى وتعرف أيضاً باسم الوحشيات [١] :

جمع أبو تمام هذا الكتاب من شعر الشعراء العرب (أي القدماء) ورتبه على عشرة أبواب هي أبواب الحماسة الكبرى نفسها . ويبدو أن الحماسة الصغرى قصائد طوال . ووهم السيد محسن الأمين مرة [٢] فجعل الوحشيات كتاباً مستقلاً غير الحماسة الصغرى .

٣ – كتاب الفحول ، أو كتاب فحول الشعراء ، أو كتاب اختيار شعراء الفحول [٣] :

هذا المجموع مقاطع من شعر الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين على الانواع [٤] وينتهي بابن هرمة .

٤ – كتاب الاختيار من شعر القبائل . ويسميه السيد محسن الأمين «الاختيار القبائلي الأكبر ويذكر أنه رآه [٥] ، ولعله كتاب الاختيارات من شعر الشعراء [٦] .

٥ – الاختيار القبائلي الأصغر ، اختار فيه أبو تمام مقاطع من محاسن أشعار القبائل . ومعظمه لغير المشهورين [٧] .

٦ – اختيار المقطعات ، وهو مبوب على ترتيب الحماسة وفيه أشعار للمشهورين ولغير المشهورين من القدماء والمتأخرين . وهو يبدأ بأشعار الغزل [٨] .

---

(١) وفيات الاعيان ، مقدمة الحماسة (فرايتاغ) ،
الاغاني ١ : ٣٤٦ ، الحاشية ١ ، أعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٥ .

(٢) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٨٩ .

(٣) الفهرست ١٦٥ ، أعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٥–٤٩٦ ؛ وفيات (مطبعة الوطن) ١ : ٢١٤ .

(٤) الفهرست .

(٥) الفهرست ١٦٥ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٦ .

(٦) الفهرست ١٦٥ ؛ وفيات ١ : ٢١٤ .

(٧) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٦ .

(٨) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٦ .

٧ – كتاب مجرد في أشعار المحدثين [١] .

مقلدو أبي تمام

وقلد أبا تمام نفرٌ من الشعراء والأدباء والنقاد في جمع مجاميع من الشعر يُعرف كل واحد منها باسم « الحماسة » ايضاً : وقد وصل الينا من هذه المجاميع [٢] :

١ – حماسة البحتري – البحتري (ت ٢٨٤هـ=٨٩٧م) تلميذ أبي تمام وكان يتشبه به وينحو نحوه [٣] ، فألف « كتاب الحماسة » على مثال حماسة ابي تمام [٤] . على ان البحتري عني بالاغراض – بالمعاني المفصلة : حمل النفس على المكروه ، مجاملة الاعداء ... الانفة... ركوب الموت خشية العار ... مؤاخاة الكرام الخ [٥] ، لا بالفنون (الحماسة ، المراثي ، الهجاء ...) كما فعل أبو تمام .

٢ – حماسة الخالديين – الخالديان هما أبو بكر محمد وابو سعيد عثمان أبنا هاشم ، وكانا من احياء القرن الهجري الرابع ومن الذين كانوا في بلاط سيف الدولة [٦] ، « لهما من الكتب حماسة شعر المحدثين » .

٣ الحماسة العسكرية لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ – ١٠٠٥ م) .

٤ – حماسة أحمد بن فارس (٣٢٩ – ٣٩٥ هـ) الأديب اللغوي المشهور [٧] .

٥ – الحماسة لأبي السعادات هبة الله بن علي الشجري العلوي (ت ٥٤٢ هـ – ١١٤٧ م) ؛ وتعرف بمختارات الشجري . هذا المجموع يضم أبواباً يتناول بعضها فنوناً من الشعر كالمديح والمراثي ... ويتناول بعضها الآخر أغراضاً ومعاني

---

(١) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٦ .

(٢) راجع اعيان الشيعة ١٩ : ٤٩٤–٤٩٥ ، حركة التأليف ١ : ٩٩–١٠٤ .

(٣) معجم الادباء لياقوت ٧ : ٢٢٧ .

(٤) الفهرست ١٦٥ ؛ (مطبعة الوطن) ١ : ٢١٤ .

(٥) حركة التأليف ١ : ١٠٠–١٠١ .

(٦) راجع الفهرست ١٦٩ ؛ حركة التأليف ١ : ٩٨ ؛ « لها الاشباه والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين في الكتبخانة الخديوية المصرية (فهرست الكتبخانة ٤ : ٢٠٢) . وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة ، عام ١٩٥٨ (حققه وعلق عليه محمد يوسف) .

(٧) حركة التأليف عند العرب ١ : ٩٨ .

جزئية : فهو لذلك وسط بين حماسة أبي تمّام وحماسة البحتري [1] .

٦ ــ الحماسة [2] للأعلم الشنتمري الاندلسي (ت ٤٧٦ هـ) .

٧ ــ الحماسة لعلي بن الحسن المعروف بشميم الحِلّي(ت ٦٠١ هـ) ، وهي تتألف من أربعة عشر باباً .

٨ ــ الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري (قتل ٦٤٧ هـ ــ ١٢٤٩ م) .

٩ ــ الحماسة المغربية لأبي الحجّاج بن محمد الاندلسي البيّاسي (ت ٦٥٣ هـ ــ ١٢٥٥ م) ، وهي حماسة كبيرة تقع في مجلّدين . وقد كان تأليفها في تونس سنة ٦٤٦ هـ ــ ١٢٤٨ م) .

ديوان أبي تمام والشروح عليه

يبدو أن النسخة التي وصلت الينا من ديوان أبي تمّام هي النسخة التي صنعها علي بن حمزة الاصفهاني [3] ، وهي النسخة المتداولة في الطبع . هذه النسخة مرتّبة على الفنون [4] ، وكلّ فن فيها مرتب على الحروف .

وقد كانت العناية بشعر أبي تمّام كثيرة ، فقد شرحه نفر من المشاهير [5] .

ان أقدم الشروح التي وصلت الينا وافية كاملة شرح أبي بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) . كان الصولي من المُعْجَبين بشعر أبي تمّام ومن المتعصبين لـه جمع نخبة صالحة من أخباره وشعره ثم شرح ديوانه . وشرْح الصولي موجز مقتصر على معاني الابيات . ثم هو قليل التعرّض لمسائل اللغة والنحو ، الا أنه يورد أحياناً

---

(١) مثله ١ : ١٠٢-١٠٣ . وقد طبعت حماسة الشجرى في حيدر اباد (الدكن) بالهند ١٣٤٥ هـ .

(٢) يظن ابن خلكان أنه كان يملك شرحاً للحماسة بقلم الاعلم الشنتمري في خمسة مجلدات (وفيات ، مطبعة الوطن ٣ : ٤٢٧) .

(٣) يذكر محمد عبده عزام (ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ١ : ٤٤ من المقدمة) أن نسخة الاسكوريال تبلغ ١٣٦ ورقة مسطرتها ١٩ سطراً ، وهذا يجعل أبيات الديوان نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة بيت .

(٤) راجع مطلع الفصل التالي .

(٥) راجع مقدمة محمد عبده عزام لديوان ابي تمام بشرح التبريزي ١ : ٢٠-٣١ .

أشياء من الأخبار تعين القارىء على فهم الابيات التي تتعلّق تلك الأخبار بها من قرب أو بعد. وشرح الصولي يتناول النصف الأول من الديوان.

وبعد الصولي في الزمن يأتي الامام الخارزنجي المتوفى سنة ٣٤٨ هـ. وهو من شرّاح ديوان أبي تمّام المتقدّمين. غير أن أكثر شرحه قاصر على التفسير اللغوي.

ثم يأتي في هذه السلسلة أبو القاسم الآمدي (ت ٣٧٠ هـ)، وهو الذي نصب الحرب لأبي تمّام وشعره في كتابه «الموازنة». وقد كان الآمدي من أنصار البحتري. وفي شرح الآمدي كثير من النقد والجدل يحاول الآمدي أن يبرّر بهذا تحامله على أبي تمّام؛ وربما عمد الى تبديل رواية أو الى اختلاق رواية رأساً للحط من شعر أبي تمّام.

ثم يأتي أبو عليّ المرزوقي (ت ٤٢١ هـ)، وهو من المعجبين بأبي تمّام المتعصّبين له. والمرزوقي كثير العناية، في شرحه، بأسلوب أبي تمّام يعتمد الذوق في استخرج المعاني ويحاول ان يصحّح الروايات التي لا يرضاها بالمألوف من مذهب أبي تمّام أو من مذاهب الشعراء. وقلّما لجأ الى ما رُوِيَ في نسخ الديوان. وللمرزوقي كتاب الانتصار من ظالمة أبي تمّام[1].

وكان أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) في عصر المرزوقي. وهو من أشدّ المعجبين بأبي تمّام وبشعره، شرح ديوان ابي تمّام وسمّاه «ذكرى حبيب» اعجاباً بالتورية بين «حبيب» بمعنى المحبوب المعشوق وبين «حبيب» بن أوس (اسم أبي تمّام).

وشرح المعري لغوي في الدرجة الأولى، وفيه استطراد كثير في اللغة وفي تفسير المعاني. والمعري يريد أن يكون كل قول لأبي تمّام جميلاً، فهو يدافع عن معاني أبي تمّام بكل سبيل.

ثم يأتي الخطيب التبريزي (ت٥١٢ هـ) تلميذ المعري. و شرحُ التبريزي

---

(1) Hss. (Berlin), Ahlw. 7539 (GAL I 85).

لشعر أبي تمّام يقوم في الأكثر على الجمع بين شروح المتقدّمين والاتيان بشرح ديوان أبي تمّام كاملاً.

ومن هذه السلسلة في اعقاب الدولة العبّاسية أبو البركات المبارك بن أحمد المعروف بابن المستوفى الاربلي المتوفى في الموصل في ١٦ رمضان من سنة ٦٣٨ (١٢٤١ م) له كتاب النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمّام في عشر مجلّدات [١]. وابن المستوفى يجمع شروح الشرّاح على شعر أبي تمّام منذ أيام الصولي ، وهو عالم محقّق أمين ينسب كلّ قول من أقوال الشارحين الى صاحبه ، وقد يعقّب على هذه الأقوال [٢].

---

(١) وفيات الاعيان (مصر ، مطبعة الوطن ١٢٩٩هـ) ٢ : ٢٠٦–٢١٠ .

(٢) محمد عبدة عزام (ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزي ١ : ٣٩–٤٣) .

فنون أبي تمام وأغراضه

ليس ديوان ابي تمام كبير الحجم بالاضافة الى دواوين أمثاله من الشعراء كأبي نواس والبحتري وابن الرومي وغيرهم ممن لمعوا في سماء الأدب العربي وحازوا إمارته على الدهر ، واتصلوا برجالات العرب والاسلام في السياسة والاجتماع .
وابو تمام ككل الشعراء العرب — اذا استثنينا نفراً كالعباس بن الاحنف وعمر بن الفارض وأمثالهما — خاض في فنون الشعر جميعها ، ولكنه اكتسب شهرته بفنين منها : المديح والرثاء . ومع ان شعره في الرثاء اقل حجماً من شعره في المديح فانه لا يقل عنه قيمة ، بل ربما فاقه .

يحرص أصحاب الآثار على أن يجمعوا آثارهم في حياتهم . ومن الواضح أن آثارهم لا تتم عادة الا بتمام حياتهم . ومن هذا القبيل يجب أن نفهم الرواية عن عثمان بن المثنى القرطبي المتوفي سنة ٢٧٣ للهجرة (٨٨٦ — ٨٨٧م) أنه « رحل الى المشرق وقرأ على حبيب بن أوس ديوان شعره وأدخله الأندلس رواية عنه [١] » ولما بدأ ابن النديم [٢] تأليف كتابه « الفهرست » كان شعر أبي تمام لا يزال مفرقاً ، غير مجموع جمعاً منسقاً على طريقة ما ، فقدّره بنحو مائتي ورقة ، أي أربعة

---

(١) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس لمحمد بن يوسف الازدي المعروف بابن الفرضي ، جزءان ، القاهرة ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م ، ١ : ٣٤٦ .

(٢) انتهى ابن النديم من تأليف كتاب « الفهرست » سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧ — ٩٨٨م) ، وتوفي يوم الاربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ (أيلول ٩٩٥) .

آلاف بيت [١]. ثم جاء أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٠ للهجرة [٢] فعمله مرتباً على الحروف في نحو ثلاثمائة صفحة [٣]، أي ستة آلاف بيت. وكذلك صنعه علي بن حمزة الاصفهاني [٤] على الانواع.

وبمراجعة الديوان يتضح لنا أن تقدير ابن النديم كان قريباً من الصواب. فاذا نحن اعتبرنا الديوان [٥] وجدنا أنه يضم نحو ٦٧٣١ بيتاً موزعة كما يلي، على وجه التقريب: باب المديح ٤٣٤٧ بيتاً، باب الرثاء ٦٦٧ بيتاً، باب العتاب ٢٥٦ بيتاً باب الوصف ١٧٧ بيتاً، باب الغزل ٥٥٧ بيتاً، باب الفخر ١٥٥ بيتاً، باب الوعظ ٤٦ بيتاً، باب الهجاء ٥٢٦ بيتاً.

وأغراض أبي تمام المفرقة في الأبواب السابقة — ولا سيما في بابي المديح والرثاء — كثيرة جداً. فمما يدل على كثرتها والاجادة فيها ما ورد لأبي تمام من المقاطع المختلفة المنثورة في «كتاب الزَّهْرة» لأبي بكر محمد بن داوود الاصفهاني. وموضع الشاهد في ذلك أن كتاب الزهرة مؤلف في الحب والغزل وأحوالهما، وأبو تمام ليس من فرسان هذين الميدانين. فاذا كان شاعرنا قد تناول هذه الاغراض التي ليست من جوانب عبقريته بمثل هذا اليسر والسعة والاجادة، فما بالك بالاغراض التي تقوم عليها عبقريته!

اختار ابو بكر الاصفهاني في كتابه «الزهرة» مقاطعَ قصاراً تبلغ عشرة آلاف بيت نصفها في أحوال الحب وما يتصل بها لشعراء قدماء ومُحْدَثين

---

(١) الفهرست ١٦٥. يذكر ابن النديم (الفهرست ١٥٩) أن الورقة تضم عشرين بيتاً من الشعر.
(٢) الفهرست ١٥١.
(٣) الفهرست ١٦٥.
(٤) الفهرست ١٦٥.
(٥) فسر ألفاظه اللغوية، وقف على طبعه محيي الدين الخياط. طبع بمناظرة والتزام محمد جمال (بيروت ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م) — راجع تاريخ طبع الديوان بحساب الجمل على الصفحة «يو»، الشيخ عبد الرحمن سلام والشيخ حسين الحبال. وقد أغفل محيي الدين الخياط إيراد جانب من هجاء أبي تمام الذي يمس بالآداب (الديوان ٤٨٥). و يبدو أيضاً أن الأبواب الاخرى تنقص عدداً آخر من الابيات.

ثم فرّقها في مائة باب . ولكن لم يطبع الى اليوم من كتاب الزهرة الا نصفه فقط [1]. وكان الاصفهاني قد شرط على نفسه أن يورد المختارات مجردة من التعليق الا اذا كان فيها ما يزيد على غيره في الحسن والجودة زيادة ظاهرة [2] . ثم انه تشدد فلم يبد استحسانه الا عند ايراد ثمانٍ وأربعين مقطوعة كان لأبي تمام وحده تسع منها [3] . أما مجموع الأبيات التي اختارها الاصفهاني من شعر أبي تمام، في النصف الأول من كتاب الزهرة ، فتبلغ مائة واثنين وسبعين بيتاً تؤلف سبعاً وخمسين مقطوعة تتفرق في تسعة وعشرين باباً من أبواب الكتاب [4] .

١ – المديح

لا يستطيع دارس ان يعتمد في نقد « المديح » على مدائح الشاعر ابداً ؛ فهي لا تدل غالباً على المادح ولا على الممدوح دلالةً صادقة ، لأن حماسة الشاعر تزيد أو تنقص حسب زيادة امله او نقصه في نوال الممدوح . وكثيراً ما رأينا شاعراً يمدح شخصاً ثم يعاتبه ثم يهجوه ؛ ومن هؤلاء ابو تمام .

عرف ابو تمام كيف يصرّف مدحه ، فلم ينتفع في ايامه شاعر بدرهم [5] ؛ واذا علمنا ان المدح إرضاء الممدوح فحسب غفرنا كثيراً من ذنوب ابي تمام وأهملنا اكثر ما يأخذه به النقاد .

كان الناس في غمرة من الثقافة الفارسية يولّون اوجههم شطرها في أكثر امور دنياهم ، فلم يكن نصيب الأدب أقلَّ من نصيب غيره حتى أصبحت بغداد على الحقيقة قطعة من بلاد الفرس . ثم كانت نكبة البرامكة . وفورة الزندقة .

---

(١) النصف الاول من كتاب الزهرة ، تأليف أبي بكر محمد بن أبي سليمان داود الاصفهاني ، اعتنى بنشره الدكتور لويس نيكل البوهيمي بمساعدة الشاعر الاديب ابراهيم عبد الفتاح طوقان (طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩٣٢ م – ١٣٥١ هـ) .

(٢) كتاب الزهرة ٧ ، أشار الاصفهاني الى عدد من المعاني القبيحة في بابها ، ص ٢٦ .

(٣) كتاب الزهرة ٣٠، ٣٨، ٤٤، ١١٠، ١١٤، ١٩٢، ٢٠٣، ٢٢٣، ٣٢٦ .

(٤) راجع فهرس كتاب الزهرة ، ص ٣٧٥ .

(٥) الأغاني ١٥ : ٩٨ .

وصلَف الشعوبية ، وفتنة بابك ، ومجيء الأتراك فمال الناس – في الظاهر على الأقل – عن الفرس ميلةً واحدة واستيقظت فيهم الروح العربية وحنّوا الى البادية وأَلوانها من جديد ؛ مع أن الشعراء لم يكونوا قد انصرفوا عنها قط ، خصوصاً في أماديحهم .

يمتاز مديح ابي تمام بأربعة مظاهر احتاز بها حقوق الشعراء جميعاً .

(أ) الاشادة بالقومية العربية والدين الاسلامي : فهو يستمد منهما تاريخاً وعظمة وشهامة ينثرها في مدائحه ، وقد استطاع من اجل ذلك ان يفوز باعجاب بني العباس مع احتفاظه بحب آل البيت . ولا ننسَ ان الميل الى بني علي كان جريمة يومذاك .

من ذلك قوله في مدح المأمون :

لما رأيتَ الدينَ يخفُقُ قلبه ، والكفر فيه تغطرس وعُرام[1] .
أَورَيْتَ زَنْدَ عزائمٍ تحت الدُجى أسرجْنَ فِكرَك ، والبلادُ ظلامُ .
فنهضتَ تسحب ذيلَ جيش ساقه حسن اليقين . وقاده الإقدام ،
حتى نقضت الروم منه بوقعةٍ شنعاءَ ليس لنقضها إبرام ؛
في معركٍ ، أما الحِمام فمفطر في هبوتيه والكُماة صيام[2] .
ما كان للإشراك فورة مشهد والله فيه ، وانت ، والاسلام !
لم يُقْرَ هذا السيفُ هذا الصبرَ في هيجاءَ ، إلاّ عزّ هذا الدينُ[3] .

ومدح الواثق فقال :

يا ابن الخلائف : ان بردك ملؤه كرم ، يذوب المُزْنُ منه ، ولين :

---

(1) تغطرس : تكبر وتطاول وظلم . عرام : شدة وشراسة .

(2) الحمام : الموت . الحمام مفطر : يأكل من المحاربين بنهم . والكماة (الابطال ، المحاربون) صيام قائمون على حذر وممسكون عن كل شيء (عن الطعام وعن كل شيء غير القتال) . الهبوة : الغبار الذي يشبه الدخان ويكون في المعارك عادة .

(3) ما صبر الناس ، والسيوف بايديهم ، مثل هذا الصبر في حرب ما الا انتصر الاسلام .

نـور من الماضي عليك ؛ كأنــه　　نـور عليه ، مـن النبي ، مبـين .
يسمو بك السفاح، والمنصور ، والـ　　مهدي ، والمعصوم ، والمـأمون .
فرسانُ مملكـة ، أسود خلافـة　　ظل الهـدى غابٌ لهم وعـرين .
قوم غدا المـيراث مضروباً لهـم　　سُور عليه من القُران [1] حـصين .
قد اصبح الاسـلام في سلطانها ؛　　والهنـد بعض ثغورهـا والصين .

وليس أحسن في هذا المقام من الاكتفاء بالاشارة الى قصيدة « فتح الفتوح » [2].

وقريب من هذا قوله في مدح ابي سعيد الثغري بعد وقعة بابك :

تالله أدري أ ألاسلام يشكرهـا　　من وقعة ، ام بنو العباس ، ام أدَدُ [3]
يومٌ به أخـذ الاسلامُ زينتَه　　بأسرِها ، واكتسى فخراً به الأبـد ؛
يوم يجيء ، إذا قـام الحساب ، ولم　　يَذْمُمْهُ بدرٌ ولم يُفضَح به أُحُد [4] .
لم تبقَ مشركةٌ الا وقـد علمت ـ　　إنْ لم تتُبْ ـ أنـه للسيف ما تَلِدُ .
فاعذرْحسودَكَفيماقد خُصصتَ به؛　　ان العُلى حسنٌ في مثلها الحسد !

(ب) استخدام الحوادث القديمة والحديثة : اذا كان لها علاقة بالممدوح أو بآله او بقبيلته او بقومه ، ليرفع بها من شأنه ويشهّر مناقبَه ويُظهر مناسبه ويبيّن معالمه وشرف مقامه . ان أبا تمام لا يغفُل عن حادثة كبيرة يذكرها أو صغيرة يجلو أوجُهَها . وهذا يُمكّننا أحياناً من تعيين تاريخ قصائده .

مدح أبو تمام ابا دلف العجلي فقال مشيراً الى قومه [5] .

اذا افتخرتْ يومـاً تميمٌ بقَوْسِها ،　　وزادت على ما وطّدت من مناقبِ ،
فأنتم بذي قارٍ امالت سيوفُـكم　　عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب .

---

(١) القران (بتسهيل الهمزة) لغة في القرآن .

(٢) راجع في المختارات : السيف اصدق انباء من الكتب !

(٣) القسم المثنى تقديره (والله اني لا ادري ...) ، ادد : قبيلة الممدوح .

(٤) يوم الحساب : يوم القيامة ؛ بدر واحد غزوتان من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) راجع المختارات .

محاسنُ من مجدٍ متى تَقْرِنوا بها محاسنَ أقوامٍ تكنْ كالمعائب .

ومدح ابو تمام محمدَ بن عبدالملك بن صالح الهاشمي فقال فيه[1] :

نرمي بأشباحنا الى ملك نأخذ من ماله ومن أدبه .
نجمُ بني صالح ؛ وهم أنجم الـ عالم من عُجمه ومن عربه .
رهط النبي ، الذي تَقَطَّعُ أسـ باب البرايا سوى سببه !

وانظر الآن كيف يحاول ابو تمام ان يجلوَ نسب خالد بن يزيد الشيباني في اجمل إهاب ، ويكسوه من المجد أغلى ثياب (خ ٩٨) .

مطر ابوك ، ابو أهِلَّة وائل ؛ ملأ البسيطة عُدة وعديداً .
اكفاؤه تلد الرجالَ ؛ وإنما ولد الحتوف اساوداً[2] وأسودا .
ورثوا الأبوَّة والحظوظ ؛ فأصبحوا جمعوا جدوداً في العلى وجدوداً[3] .
ومَشَوْا أمامَ أبي يزيدَ وحوله مشياً ، يَهُدُّ الراسيات ، وئيدا ![4]
واذا رأيت أبا يزيدٍ في ندىً ووغىً ، ومبدىء غارةٍ ومُعيدا
أيقنتَ ان من السَماح شجاعةً تُدمي ؛ وأن من السماحة جوداً[5] .

(حـ) فخامة الألفاظ والتراكيب : يحبّ ابو تمام من الألفاظ ما ملأ الاسماع ومن التراكيب ما شَغَلَ الفِكْرَ . ثم يَحيك حولها أقوالاً وآراءً يستعيرها من قوى الطبيعة المختلفة كالمطر والبحر والنار والحياة والموت والحرب ... وبعدئذ يَحبِكها بحكمةٍ عرَفها أوِ اخترعها .

لما تغلب الجيش الاسلامي على بابَكَ مدح الشاعر احدَ قواده : ابا سعيد

---

(١) خ ٥٢ .
(٢) الاساود جمع اسود وهو الافعوان ذكر الافعى (الحية) .
(٣) الجدود الاولى : الاسلاف ، والثانية : الحظوظ .
(٤) الراسيات : الجبال . وئيد : الذي فيه صوت عال ، أو فيه رزانة وتأن .
(٥) السماح والسماحة : البذل ، وقصد الشاعر بالكلمة الاولى بذل النفس في الحرب ، وبالثانية بذل المال .

محمدَ بنَ يوسف الثغري فقال ٭ :

وفي ارشقَ الهيجاءِ ، والخيل ترتمي بأبطالها في جاحم متوقّـد[1]
عططت ، على رغم العدى ، انف بابك بعزمك عط الأتحمي المعضَّد[2] .
فإلاَّ يكن ولىّ بشِلو مقـدَّد هناك ، فقد ولى بعزم مقـدد[3] .
رآك سديد الرأي والرمح في الوغى تأزّرُ بالإقدام (فيها) وترتـدي .
وليس يجلّي الكربَ رمحٌ مسدد اذا هـو لم يُؤنس برأي مسدد !

وأفخم من هذا قوله في عبدالله بن طاهر ٭٭ :

اليك جزعنـا مغرب الملك كلمـا وسَطنا مَلا صلّت عليك سباسبُه[4]
الى ملك لم يُلق كلكـل بأسه على ملك الا وللذل جانبـه[5] ،
الى سالب الجبار بيضةَ ملكه ، وآمله غـاد عليه فسالبـه[6] .
فوالله لو لم يُلبس الدهـرَ فعلَه لأفسدت المـاءَ القَراح معائبـه[7] .

(٭) راجع المختارات ايضاً .

(١) ارشق حصن للمسلمين خرج اليه بابك ليسطو على مال ارسله المعتصم للافشين ؛ جاحم متوقد : جمر شديد الاشتعال .

(٢) شققت عزمه كما يشق الثوب المخطط طولا (لسهولة ذلك) .

(٣) ان لم تتركه مقطع الاعضاء (قتيلا) فقد تركته خائر العزم (مفلولة جيوشه)

(٭٭) راجع المختارات ايضاً .

(٤) قطعنا القسم الغربي من الامبراطورية العربية ، فكنا كلما نزلنا في ارض رأينا فيها من آثارك ما يستوجب الثناء عليك .

(٥) لم تحارب ملكاً الا ذل .

(٦) هو يسلب ملك الملك الجبار ؛ ومجتديه : طالب رفده (عطائه) يسلبه ماله .

(٧) لو لم تنتشر أفعاله في الدهر كله لكانت معائب الدهر قد افسدت كل شيء حتى الماء الصافي .

محمد بن يوسف الثغري فقال * :

وفي ارشق الهيجاء ، والخيل ترتمي ... بأبطالها في جاحم متوقد[1]

عططت ، على رغم العدى ، انف بابك ... بعزمك عط الأتحمي المعضد[2] .

فإلا يكن ولى بشلو مقدد ... هناك ، فقد ولى بعزم مقدد[3] .

رآك سديد الرأي والرمح في الوغى ... تأزر بالإقدام (فيها) وترتدي .

وليس يجلي الكرب رمح مسدد ... اذا هو لم يؤنس برأي مسدد !

وأفخم من هذا قوله في عبدالله بن طاهر ** :

اليك جزعنا مغرب الملك كلما ... وسطنا ملا صلت عليك سباسبه[4]

الى ملك لم يلق كلكل بأسه ... على ملك الا وللذل جانبه[5] .

الى سالب الجبار بيضة ملكه ، ... وآمله غاد عليه فسالبه[6] .

فوالله لو لم يلبس الدهر فعله ... لأفسدت الماء القراح معائبه[7] .

(*) راجع المختارات ايضاً .

(١) ارشق حصن للمسلمين خرج اليه بابك ليسطو على مال ارسله المعتصم للافشين ؛ جاحم متوقد : جمر شديد الاشتعال .

(٢) شققت عزمه كما يشق الثوب المخطط طولا (لسهولة ذلك) .

(٣) ان لم تتركه مقطع الاعضاء (قتيلا) فقد تركته خائر العزم (مفلولة جيوشه)

(**) راجع المختارات ايضاً .

(٤) قطعنا القسم الغربي من الامبراطورية العربية ، فكنا كلما نزلنا في ارض رأينا فيها من آثارك ما يستوجب الثناء عليك .

(٥) لم تحارب ملكاً الا ذل .

(٦) هو يسلب ملك الملك الجبار ؛ ومجتبيه : طالب رفده (عطائه) يسلبه ماله .

(٧) لو لم تنتشر أفعاله في الدهر كله لكانت معائب الدهر قد افسدت كل شيء حتى الماء الصافي .

يمدح ابو تمام أبا المُغيث موسى بن ابراهيم الرافقي [1] بخمس قصائد قوافي ثلاث منها ثاء وسين ، وضاد ويحشر فيها : نبيث ، دثوث ، ميث ، شثوث ، لويث ، قدموس ، شوس ، كردوس ، اريض ، نحيض ، قبيض دحيض ، انيض ... ؛ فالممدوح امير في الشام بدوي . ولا اظنك تعجب اذا رأيت هذه الكلمات الغريبة في مدحه لآل طوق من امراء عرب الشام [2] :

شجعاء جِرَّتها الذميل تلوكه أُصُلا اذا راح المَطِيُّ غِراثا [3] ؛

اجُد اذا ونت المهاري ارقلت رَقلا كتحريق الغضا حثحاثا [4] ؛

---

(١) كان ابو المغيث في أيام أبي نواس فتى يكتب الحديث ، وقد شبب به ابونواس (ديوان ابي نواس ، مخطوطة برلين ٢٤٣ أ: يا سمي المدعو من جانب الطور ... (راجع ديوان ، طبعة آصاف ، مصر ١٨٩٨ ، ص ٤١٠ في موسى :
يا سمي الذي كلم اللـ ... ، وأدنى مكانه تقريبا .

(٢) ديوان خ ٦٤، ٦٥ .

(٣) شجعاء : طويلة ، مبسوطة الجسم وذلك من الصفات الحميدة في الحيوان ، ثم هي نشيطة. الجرة (بكسر الجيم وتشديد الراء) : ما تخرجه الدابة من بطنها وتجتره (تعيد مضغه). الذميل : السير السريع . تلوكه : تمضغه ، تعض عليه وتديره في فمها . أصل (بضم الهمزة والصاد) جمع أصيل : العشية ، الزمن الذي يسبق غروب الشمس بنحو ساعتين . راح : رجع في المساء ، بلغ المساء . المطي جمع مطية : الدابة المعدة (بتشديد الدال) للركوب والاسفار . غراث (جمع غرثان وغرثى) : جياع . — هذه الناقة التي أركبها أنا في سفري مبسوطة الجسم نشيطة ، تسرع في السير . والاسراع في السير هين عليها لأنه طبيعة فيها (كالاجترار الذي هو طبيعة فيها أيضاً) ثم هي قادرة على السير الطويل تستمر في سيرها السريع طول النهار. فاذا جاء المساء ظلت هي تسير بنشاط ، بينما سائر المطي تكون قد تعبت (قد نفدت قوتها بنفاد ما في بطنها من الطعام الذي تجتره). والبيت التالي توضيح وتفسير لهذا البيت .

(٤) أجد : صلبة ، متينة البناء . ونى يني : تعب . المهارى : الخيل الفتية ، الصغيرة السن. أرقل : أسرع وهو يصعد في الجبل . الغضا : نوع من الشجر يصنع منه فحم جيد . حثحاث : سريع . — اذا تعبت المهار الفتية (من السير في السهل) فان ناقتي هذه تظل نشيطة قادرة على الاسراع في صعود الجبال . ويكون ارقالها هذا شديداً متوالياً كالاصوات التي يحدثها شجر الغضا وهو يحترق .

طلبت فتى جشم بن بكر مالكاً :

ضرغامها وهزبرها الدلهاثا[1] .

لولا اعتمادك كنت في مندوحة عن برقعيد وأرض باعيناثا[2] .

اما اذا قلبت الديوان ووصلت الى مدائح الوزير الشاعر محمد بن عبدالملك الزيات فترى أمثال « وصف القلم » او « ديمة سمحة القياد سكوب » . ولا احب ان اسير بك في الديوان بين مدائح الخلفاء والأمراء والقواد والفقهاء فنرى خصائصها معاً فترى ان ابا تمام كان يصرّف المديح حسب حاجته . ثم لا توقن ان ما قلته لك قاعدة محكمة . لا . انها ككل القواعد لها شواذها ، وانما الشذوذ برهان على القاعدة .

ممدوحو أبي تمام

يبلغ عدد ممدوحي ابي تمام ستين – اكثرهم من العرب[3] يتفرقون في الهيئة الاجتماعية بين الخلفاء : كالمأمون والمعتصم . وبين الكتاب : كرجل اسمه ابو زيد كان كاتباً لعبدالله بن طاهر . وترى هنا قائمة مفصلة بأسماء الممدوحين مع مقامهم الاجتماعي وعدد القصائد التي مُدحوا بها ، مثبتاً بعد

---

(١) طلبت : قصدت . الفتى : السيد البطل في قومه . جشم بن بكر قبيلة الممدوح . مالك هو مالك بن طوق الذي يمدحه الشاعر . الضرغام : الاسد الفحل الشديد . الهزبر : الاسد الضخم الشديد الصلب . الدلهاث : الاسد السريع .

(٢) لولا اعتمادك : لولا الاعتماد عليك والامل في عطاياك . كنت في مندوحة : كان لي غنى ، لم أحمل (بتشديد الميم المكسورة) نفسي مشقة هذا السفر الى برقعيد وباعيناثا (هذان موضعان في جزيرة ابن عمر ، في شمالي الشام والعراق) ، كنت في غنى عن كثرة التطواف في الارض .

(٣) انظر ايضاً امراء الشعر ص ٢٢٩ .

اسمائهم [1] .

(أ) آل البيت المالك وأسلافهم – علي بن ابي سالب وآله ١ المأمون (٢) . المعتصم (٩) . الواثق ٣ . احمد بن المعتصم ٢ : محمد بن عبدالملك بن صالح ١ ، الفضل بن صالح ١ .

(ب) وزراء الدولة – يحيى بن ثابت ١ ، الحسن بن سهل ٢ ، وهما من وزراء المأمون ، محمد بن عبدالملك الزيات ٦ .

(ح) القواد – خالد بن يزيد بن مَزيَد ٧ ، ابنه محمد ١ ، ابو سعيد محمد ابن يوسف الثغري ٢٩ . آل حُميد الطوسي ١ ، الافشين حيدر بن كاوس ١ . جعفر الخياط ١ ، وابو دلف العجلي (٥) .

(د) الأمراء ، ورجال الدولة والقبائل – عبدالله بن طاهر امير خراسان ٤ ؛ آل طوق امراء عرب الشام : مالك بن طوق ٨ ، عمر بن طوق ٨ ؛ ابو المغيث الرافقي ٥ ، اسحق بن ابراهيم المصعبي ٤ ، القاضي احمد بن ابي دؤاد ١٣ ، القاضي حُبيش بن المُعافى التنوخي ١ .

(ه) رجال الاسر الكبرى – آل وهب (ولوا الوزارة ، ولكن بعد ابي تمام) : سليمان (٣) والحسن (١٢) ؛ علي بن مرة وابنه الحسن ٢ ، احمد بن عبدالكريم الطائي ٢ ، داوود بن داوود الطائي ٢ ، عمر بن عبدالعزيز الطائي ١ محمد بن شقيق الطائي ١ ؛ عيّاش بن لهَيعة الحضرمي ٣ .

(و) الشاعر ابو العباس نصر بن منصور بن بسام ٢ ، الشاعر علي بن الجهم ١ ، محمد بن حسان الضبي ٤ ، غالب بن عبدالحميد الصغدي ٤ ، محمد بن الهيثم بن شبانة ٧ ، ...

---

(١) العدد المحصور بقوسين فيه شك ينشأ من نسبة القصيدة اليه او إلى غيره . قارن هذه بما ذكره الدكتور الاسود (١ : ٣١) وبقائمة الاستاذ المقدسي (امراء الشعر ١٧٥–١٧٧) ويزاد عليهما ما سيرويه الدكتور الاسود في الجزء الثاني وليس في طبعة الخياط .

أما سائر الممدوحين فهم متفاوتو المنزلة وقد خصهم الشاعر بقصيدة قصيدة ، ومنهم من كان نصيبه اثنتين ، او ثلاثاً في النادر .

٢ ــ الفخر

الفخر ان يمدح الشاعر نفسه او آله او قومه ثم يُشيد بذكرهم . وبضاعة ابي تمام في الفخر الخالص قليلة جداً واكثرها فخر بطيء . ولعله قال اكثره في مصر قبل ان تقبل عليه الدنيا . ولا اعتقد ان في فخره شيئاً لا ينطوي على شكوى مرة ؛ وهذا الباب يفيدنا تاريخاً اكثر مما يفيدنا فناً .

اقبلت الدنيا على ابي تمام وزادت ثقته بنفسه فانتقل بالفخر الى قصائد المديح ينثره عند المناسبات ، وخصوصاً اذا كان الممدوحون طائيين : كآل عبدالكريم وآل حميد الطوسي ؛ او من عرب الجنوب الذين منهم بنو طيء كالقاضي أحمد ابن ابي دُؤاد الايادي . وعياش بن لهيعة الحضرمي . وحسبك ما علمت من ذلك عند الكلام على خصائصه . ومن فخره ايضاً [1] .

وهل خاب من جذماه في اصل طيءٍ :	عديّ العديين القلمّس ، او عمرو [2] .
لنا جوهر لو خالط الأرض اصبحت .	وبُطنانها منه وظُهرانها تبر [3]
مقاماتنا وقفٌ على الحلم والحجى :	فأمردنا كهل ، واشيبنا حبر [4] .

---

(١) ديوان خ ٤٧٥ – ٤٧٦ .

(٢) جذماه من أصل طيء : أبوه وأمه كلاهما من قبيلة طيء . عدي : عدي بن نصر بن بيعة والد الملوك المناذرة ملوك الحيرة . عدي العديين : أصل العديين المنسوبون الى عدي هذا . عمرو هو عمرو بن عدي أول ملوك الحيرة من المناذرة وأمه رقاش (بفتح الراء) بنت جذيمة (بفتح الجيم) . القلمس : في القاموس (٢ : ٢٤٢) أن القلمس رجل كناني من نسأة الشهور (من الذين كانوا ينسئون الاشهر ويحرمون بعضها ، أي يحرمون الحرب فيها) .

(٣) الجوهر : أصل العناصر . ــ يقول أبو تمام : لو مزجنا نحن ، بني طيء ، بالناس كلهم لأصبح الناس كلهم أشرافاً عظماء (لو كان بنو طيء عنصراً طبيعياً ثم مزج هذا العنصر بمادة الارض كلها لأصبحت الارض كلها تبراً – ذهباً) .

(٤) الحلم : سعة الصدر والحكمة . الحجى : العقل . الحبر العالم ، الفقيه .

اذا زينة الدنيا من المــال اعرضت فأزْيَنُ منها عندنا الحمد والشكر .

فمن شاء فليفخَرْ بما شاء من ندىً ؛ فليس لحي غيرَنا ذلك الفخـــر .

وفخَر ابو تمام بقومه ونفسه فأنشد [١] :

انا ابن الذين استُرْضِــعَ الجودُ فيهمُ وسُمّيَ فيهم وهو كهلٌ ويافــعُ [٢] .

مضَوْا ، وكأن المكرُمات لديهمُ — لكثْرة ِ ما أوصوْا بهـــن — شرائع .

هم استودعوا المعروفَ محفوظَ مالِنا فضاع ؛ وما ضاعت لدينا الودائع [٣] .

اذا ما اغاروا فاحتوَوْا مالَ معشر اغارت عليهم — فاحتوته — الصنائع [٤] .

فكم شاعرٍ قد رامَني فَقَذَعْتُه بشعري ؛ فأمسى وهو خَزْيانُ ضارع [٥] :

كشفت قناع الشعر عن حُر وجهه فطيرته عن فــكره وهو واقع [٦]

بغُرّ يراها من يراها بسمعه ، ويدنو اليها ذو الحجى وهو شاسع [٧] .

---

(١) ديوان خ ٤٧٩ — ٤٨٠ .

(٢) استرضع الجود فيهم : بنو طيء أرضعوا الجود وربوه (فأخذ صفاته منهم) .

(٣) اورثنا أسلافنا مالا كثيراً وأوصونا بالمعروف (الكرم) فبالغنا نحن في الكرم حتى أنفقنا جميع المال ، ولكن الكرم بقي فينا بعد ذهاب المال .

(٤) على أن بني طيء أهل حفاظ وشجاعة اذا اضطروا الى غزو قبيلة فانهم يستولون على جميع أموالها ، فاذا عرف أصحاب الحاجات بذلك وفدوا على بني طيء فمنحهم بنو طيء كل ما كانوا قد غنموه في غزوتهم .

(٥) قذعته بشعري : ضربته به (هجوته) . خزيان : مقهور . ضارع : ذليل .

(٦) كشفت قناع الشعر عن حر وجهه : أظهرته على حقيقته (برهنت على أنه ليس شاعراً وانه هو يتكلف قول الشعر) . طيرته عن فكره : شتت فكره ، أذهلته . واقع : باق في أرضه لا يستطيع مبارحتها لشدة ذهوله .

(٧) الغر : البيض (يقصد : بقصائد غر ، أي بارعة جيدة) . يراها من يراها بسمعه : الذي يفهمها (اذا سمعها) يدرك معانيها الجياد . ويدنو اليها ذو الحجى وهو شاسع : تصل اليه وهو في المكان البعيد : تنتشر في كل مكان .

يودّ وداداً أن أعضاء جسمه اذا أنشدت ــ شوقاً اليها ــ المسامع[1] .

٣ ــ الرثاء

يجب أن اقدم البحث في رثاء ابي تمام بالرواية الآتية[2] : بعد ان فرغ ابو تمام من انشاد قصيدته في ابي دلف العجلي « على مثلها من اربع وملاعب » ، قال (له ابو دلف) : انشدني قولك في محمد بن حُميد (كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر) ... فأنشده (القصيدة) فقال : والله وددت انها فيّ ؛ فقال (ابو تمام) : بل افدي الامير بنفسي وأهلي ، واكون المقدّم . فقال : بل انه لم يمت من رُثي بهذا الشعر » .

• • •

رثاء ابي تمام اقل تكلفاً من مدحه وأرق عاطفة . وفي رثائه يظهر لنا ان ذلك الجبّار على الخطوب ، القاسي في الشدائد رقيق الحس ، وثيق الوداد . ثم هو لا يفقد رشده عند المصيبة ، ولا يشتبه رأيه فيمضيَ في التفجع ويصفَ ما يدل على التأوه في مبالغات لا جدوى تحتها . انه يبالغ ، ولكن في استعارات وكنايات وتشابيه كما يفعل في مدحه ؛ ثم يبقى على هدوئه فيستطيع طرق الأغراض على نحو ما ترى في بعض اماديحه . ألا تعجب حينما تسمعه يرثي ابنه بقوله[3] :

كنت عزيزاً به كثيراً ؛ وكنت صبّاً به ضنينا .
دافعت ــ الا المنون ــ عنه والمرء لا يدفع المنونا .
يُدير في رَجْعه لساناً يمنعه الموت ان يُبينا[4] .

---

(١) يطرب ذو العقل بهذه القصائد حتى يتمنى لو أن كل عضو في جسمه اذن حتى يسمع هذه القصائد بجميع أعضائه . الوداد تكون بفتح الواو وكسرها وضمها .

(٢) الاغاني ١٥ : ٩٩ــ١٠٠ ؛ ديوان خ ٤٠ــ٤٣ .

(٣) ديوان خ ٣٩١ .

(٤) الرجع : مرض الموت (راجع القاموس ٣ : ٢٨ س) . أن يبينا : أن يفصح ، أن يقول كلاماً مفهوماً .

وكثيرٌ مما ورد في ديوانه في الرثاء موسوم بهذا الطابع ، فمن ذلك قوله يرثي أبا نصر محمد بن حميد الطائي [1] :

أصَمَّ بكَ الناعي . وان كان أسمعا ، واصبح مغنى الجود بعدك بَلْقعا [2] .

فتى . كلمـا ارتاد الشجاعُ من الـردى مَفَرّاً — غداةَ المأزِقِ — ارتاد مصرعا [3] .

اذا ساء يوماً في الكريهة مـنظرٌ تصلاه ، علماً ان سيحسُن مَسْمعا [4] .

فان تُرْمَ عن عمر تدانى به المـدى — فخانك ، حتى لم تجد فيـه منزِعا — [5]

فما كنتَ الا السيفَ لاقى ضريبـةً فقطّعها ، ثم انثني فـتقطّعا [6] .

• • •

رثاء آل حميد الطوسي

اجاد ابو تمام في رثاء بني حُميد الطوسي خاصة حتى كان من أمر ذلـك الرواية التي بدأنا بها هذا البحث . ونحن نرى ان رثاءه لآل حميد يختلف من سائر

---

(١) ديوان خ ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٢) ان الذي نادى بنعيك (بخبر موتك) جعل الذين سمعوا صماً (لهول ما سمعوا منه) . مغنى الجود : مسكن الجود . بلقع : خراب . — اقفرت الارض من الجود .

(٣) اذا حاول الشجاع أن يفر من المعركة الشديدة مضى هو الى تلك المعركة بقدم ثابتة وهو مدرك أنه سيموت فيهـا .

(٦) هو يعلم أنه كلما كانت المعركة أشد كان ذكر الذي يخوضها في الناس أحسن . تصلى : تعرض للنار بجسمه . أن : مخففة من « ان » (انه) . يحسن : فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم .

(٤) ان ترم ، ان تقتل ، اذا قتلت . عمر تدانى به المدى : عمر قصير . المنزع : المكان في وتر القوس يوضع عليه السهم ثم يجذب قبل اطلاق السهم . — كانت المعركة أشد مما يستطيع المحارب ، مهما كان شجاعاً ومقتدراً في الحرب ، أن ينجو من الموت .

(٥) لقد كنت كالسيف الذي ضرب به جسم قاس جداً ، فقطع ذلك الجسم ولكنه ارتد من شدة الضربة على نفسه ثم انكسر .

رثائه . أليس عجيباً ألاّ يكون لأبي تمّام في بني حُميد سوى قصيدة واحدة في المديح[1] ثم يكون له في رثائهم ثماني قصائد اكثرها على قِصَرِ بعضها من عيون قصائده في الرثاء[2] ؟

يظهر ان علاقة ابي تمام بآل حُميد كانت صداقة اكثر منها منفعة ؛ وكانت إعجاباً بأعمالهم وإكباراً لحِفاظهم . وقد كانوا لذلك اهلاً . وما قصيدة «كذا فليجل» سوى صورة لنفس محمد بن حميد ؛ نعرف ذلك من كتب التواريخ . روى ابن الأثير في أخبار عام ٢١٤ هـ ما يلي[3] :

«... كمن رجال بابك بين الصخور ؛ فلما صار رجال محمد (بن حميد الطوسي) يصعّدون في الجبل . وصاروا على مقدار ثلاثة فراسخ ، انحدر بابك اليهم فيمن معه فانهزم الناس . فأمرهم أبو سعيد (الثغري) ومحمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم ، والقتل يأخذهم . وصبر محمد بن حميد مكانه وفر من كان معه غيرَ رجل واحد . وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى (محمد) جماعة وقتالاً ، فقصدهم فرأى الحرمية يقاتلون طائفة من أصحابه . فلما رآه الحرمية قصدوه لِما رأوا عليه من حسن هيئته ، فقاتلهم وضربوا سيفه ؛ ثم اكبّوا عليه فقتلوه » .

هذه هي الحادثة التي استحقت الخلود في قصيدة من قصائد ابي تمام فاذا هي[4] :

كذا فليجلّ الخطبُ ، وليَفدَحِ الأمرُ ؛ فليس لعين لم يَفضِ ماؤها عُذر .

ومن أجمل مقطوعات ابي تمام في الرثاء ثلاثة أبيات قالها في القائد الطائي جعفر الخياط ، هي (خ ٣٨٧) :

رَحِمَ الله جعفراً ؛ فلقد كا (م) ن أبيّاً ، وكـان شهماً رحيمـا .

---

(١) جعل امراء الشعر القصائد في مديح آل حميد ستاً (ص ١٧٦) ؛ ولم يذكر الدكتور الاسود شيئاً من ذلك (ص ٣١) عند الكلام على ممدوحي ابي تمام .

(٢) ديوان خ ٣٥٨، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٨١، ٣٨٧ مرتين .

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٦٨–١٦٩ في أيام المأمون .

(٤) راجع المختارات .

مثَل الموتَ ، بين عينيه ، والذ (م) لَ ، فكُلاً رأه خَطْباً عظيما .
ثم ثارت بـه الحميَّة قـدْماً فأمات العدى ، ومات كريما !

وكثيراً ما يذهب شاعرنا الى ضرب الأمثال واستجماع الحكمة في الرثاء ، كقوله في محمد بن الفضل الحِمْيري (خ ٣٥٣) :

جفَّ درّ الدنيا ، فقد أصبحت تك (م) سـال ارواحَنا بغير حساب .
لو بدت سافراً أهينتْ ، ولـكن شغَفَ الناسَ حسنُها في النِقاب .
ان ريبَ الزمـان يُحسن ان يُه (م) دي الرزايا[1] الى ذوي الاحساب !

او قوله في رثاء ابنين لعبدالله بن طاهر ماتا في يوم واحد (خ ٣٨٠) :

ان الفجيعةَ بالرياض ، نواضراً ، لأجـلُّ منها بالرياض ، ذوابلا .
لهَفي على تلك الشواهد منهما لو أُمْهِلت حتى تكونَ شمائلا[2] .
واذا رأيتَ من الهلال نمـوَّه ايقنت أنْ سيصيرُ بدراً كامـلا !

• • •

لم يرثِ ابو تمام من الذين مدحهم الاّ خالد بن يزيد بن مَزْيد ، واسحق بن ابي ربعي ، وعبدالحميد بن غالب ، والاّ بني حميد [3] . وقد عزى ابا سعيد الثغري بولد له [4] . اما الذين رثاهم من غير هؤلاء الذين لم يمدحهم فبضعة عشر شخصاً منهم أقارب بعض الممدوحين . ولم يرث ابو تمام المعتصم بقصيدة مستقلة ، بل ادخل رثاءه في تهنئة ابنه الواثق بالخلافة .

تمر في ديوان ابي تمام بطائفة من الأبيات رثى الشاعر بها بعض آله واخوانه ، فإذا قرأتها لم تشك قط في أن الشاعر تسيل نفسه لوعة وأسى ، وان الاسى كان من نفسه في قرارتها . اما رثاؤه لغيرهم فكان قسم منه يشبه ما تقدم ويشفَّ عن

---

(١) الرزايا جمع رزيئة : المصيبة . ذوو الاحساب : اصحاب الاعمال المجيدة .
(٢) الشواهد : العلامات ، الدلائل . الشمائل : الخصال ، العادات .
(٣) ديوان خ ٣٤٧،٣٦٣،٣٥٤ ؛ وراجع ايضاً رثاء بني حميد .
(٥) خ ٣٥١،٣٧٩،٣٧٧ .

عاطفة متأصلة ، وقسم منه يشف عن عاطفة مكتسبة تكاد تعرفها من قوله في رثاء خالد بن يزيد بن مزيد :

وكنا جميعاً شريكَيْ عِنانٍ ، رضيعَيْ لِبانٍ ، خليلي صفاء .
وكنت اراه بعين الجـلال وكان يراني بعين الإخـاء [1] .

وكثير من شعره في الرثاء على هذا النمط ؛ وقد أجاد في سائر مراثيه اظهارَ الأسى ، وان لم يكن يحسه احساسَه في رثاء ولده الوحيد . اما انه «كان يتخذ موت الميت سبباً ليعرب عن أحزان نفسه لأنه من اولئك الذين صحب الحزن نفوسهم [2] » ، فحكم يصيب هوى من نفوس الذين تعمقوا في دراسة ابي تمام ، ولكن يعترضهم في سبيل اعتقاد ذلك قلة الرثاء في ديوان الشاعر . ثم اذا نحن كابدنا وجاهدنـا واستشهدنا لاثبات هذا الرأي لم نخرج بغيرما ألفناه عند جميع الشعراء المداحين الرثائين من انهم يتصنعون الأسى احياناً ، وكان بعضهم يعد قصائد المديح والرثاء قبل امد ، فاذا فوجئوا بإنعام على رجل او بموته لم يحتج احدهم الا الى بضعـة أبيات فيها اسم الممدوح او المرثي وفيها ذكر المناسبة ... ثم لنختم هذا البحث بقول ابن رشيق : وابو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء [3] .

٤ ــ العتاب

يختلف عتاب ابي تمام من عتاب ابي نواس [4] ، فان ابا تمام لم يعاتب الا على تأخر رفد؛ لذلك كان من المنتظر ان تكون معاتباته كلها ، على قلتها [5] ، في الذين مدحهم . ولكن قد شذ له عن ذلك نحو ثلاث قطع : واحدة عاتب رجلاً فيها في نبيذ ــ وهو رفد ايضاً ــ واخرى عاتب فيها الحسن بن وهب لأنه يميل

---

(١) خ ٣٤٧، ٣٥٠ .
(٢) مردم ، شعراء الشام ص ٥٣ .
(٣) العمدة ٢ : ١١٩ .
(٤) ابونواس ٦٤ .
(٥) ديوان خ ٣٩٤–٤١٢ .

الى غلامه ، وثالثة في صديق قطعه ...

يتّبع ابو تمام في عتابه طريقته في مدحه فهو فيه خشن الملمس . والعتاب يحتاج الى نعومة ؛ وهو فظّ في سوْقه ، والعتاب يحتاج الى مناسبة ؛ فشاعرنا يقول مثلاً :

ابا دُلَفٍ [1] ، لم يبق طالب حاجة — من الناس غيري ، والمحل جديبُ .
يسرك اني أُبْتُ عنك مخيّباً ، — ولم يُرَ خَلْقٌ من جَداك يخيب [2] !

ولا اظنك تجهل مقام ابي دلف من ابي تمام وقصيدته فيه « على مثلها من أربُعٍ ملاعب » . وعاتب أبو تمام القاضيَ أحمد بن ابي دوءاد بقوله [3] :

اعلم ، وانت المرء غير معلَّم ؛ — وافهم – جعلت فداك – غير مفهَّم .
ان اصطناع المرء ما لم تُولِهِ — مستكملاً كالبُرْد ليس بمُعْلَم [4] !

فعتابه ، على ما ابصرت ، منفّر يزيد في الصد ولا يبقي على الود ، الا ما كان من مثل عتابه لأبي سعيد الثغري ، وهو نادر ، نحو قوله :

انما البِشْر روضةٌ ؛ فإذا كا (م) — ن ببذلٍ فروضةٌ وغديرُ [5] .
فاقسُم اللحظَ بيننا ، ان في اللحـ (م) — ظ لَعنوانَ ما يُجِنّ الضمير [6] .

٥ – الوعيد والهجاء

يعاتب الشاعر الممدح تذكرة بصلته واستدراراً ليديه ، فاذا قنط من نواله انقلب اليه يهجوه . الا ان نفراً من الشعراء يميلون في أولَ الأمر الى الوعيد والانذار قبل ان يخطوا الى الهجاء : يفعلون ذلك في اثناء مدح او عتاب . من هذا القبيل ما

(١) راجع ديوان خ ٣٩٥ .
(٢) آب : رجع
(٣) ديوان خ ٤٠٨ .
(٤) البرد : ثوب من حرير . معلم : فيه علامات او نقوش . ليس بمعلم : قليل القيمة .
(٥) البشر : البشاشة وطلاقة الوجه ، السرور بالذين نلقاهم .
(٦) جن : ستر .

انهى به ابو تمام قصيدتين له في مدح ابي المغيث الرافقي [1] :

وكن كريماً تجدْ كريمـــاً في مدحه ، يا ابا المـــغيث .

– وغداتبيّنَ كيف غِبّ مدائحي ان ملن بي هِمّتي الى بغداد .

ومن العجائب شاعرٌ ضاعت به هِمّاته ، او ضاع عند جواد !

اما تعريضه في اثناء العتاب فمنه : (خ٣٩٤ : ٤٠٨)

وانك لا تسر بيوم حمـــد تسر به ، ومالُك لا يُساء .

فان المدح في الأقوام ما لم يشيعْ بالجزاء هو الهجـــاء .

– سأقطع ارسان العتاب بمنطق قصيرُ عِناء الفكر فيه طويلُ

وان امرأ ضنّت يداه على امرىء بنيلِ يد من غيره لبخيل .

أفتشكّ بعد ذلك في ان هذا تحفّزٌ للهجاء ؟

تناول الشاعر بهجائه نحو عشرين شخصاً فيهم ستة أشخاص كان قد مدحهم ؛ منهم عياش بن لهيعة ، وقد اختصه باثنتي عشْرة قطعة قال واحدة منها بعد موته ؛ ومنهم ابو المغيث الرافقي هجاه بخمس مقطعات ؛ وله قطعة قطعة في مالك بـــن طوق ، وصالح بن عبدالله الهاشمي واسحق بن ابراهيم المصعبي . وقيل عرض بهجاء احد بني حميد ولم يهجه لمكان اسرته .

اصطدم ابو تمام بشعراء كثيرين في مصر وفي العراق بعضهم مشهور كدعبل ومحمد بن ابي يزيد ، وبعضهم اقل شهرة . وهنالك بضع قطع أخرى في اشخاص مختلفـــين .

• • •

لا أعتقد ان ابأ تمام نال بهجائه منالاً قريباً أو بعيداً ، فبعض شعره في هذه الناحية عاديّ ، وسائره أدنى مرتبة . انه لم يتّبع طريقاً معروفاً يصل به الى غايته فهو لم يعمد الى ما يترك هجاءه اعلق بالقلب وألصق بالنفس وأسرع الى الحفظ .

---

(١) ديوان خ ٦٧ : ١٣٥ .

ولا بلغ به من الحقيقة والمرارة ما يوجع حقاً ، وان كان قد افحش وأقذع في بعضه . لذلك ترى كثيراً من هجائه اشبه بالمديح . حتى انه لو كان مديحاً لما انحطّ عن شعره الراقي ، تأمل ذلك في هجائه عتبةَ بن ابي عاصم [1] :

دِمَنٌ تجمعت النوى في رَبعها وتفرقت فيها السحاب الفُرَّق [2] .
فترقرقت عيني دماً فيها الى ان خِـلت مهجتيَ التي تترقرق .
هِممُ الفتى في الأرض اغصان المنى غُرِست ، وليست كل حين تورق .

فهذه من أعلى طبقات المعاني ، ولكنها لا تصلح في معرض هجاء . ومثل ذلك قوله [3] :

يكفيك حزناً أنّ عقلك ذاهب يبكي عليك . وان جهلك يضحك !

ويندر في ديوانه مثل قوله في عياش بن لهيعة ، هجاءٌ يطويه على تهكم صحيح ومعان قريبة وصور بارعة [4] :

صدّق مقالته ان قال ، مجتهداً : « لاوالرغيفِ ! »فذاك البُرُّ من قسميه [5] .
وان هممتَ به فافتِكْ بخُبزته ؛ فانها قطعة من لحمه ودمه .
قد كان يعجبني ، لو ان غَيرته على جَرادقه كانت على حُرمه [6] !

هذه احدى نواحي هجاء ابي تمام لأن له في الاقذاع بضاعة غير قليلة [7] ؛ ولكن هذه البضاعة ليست في الدواوين التي بين ايدينا فقد أغفل الخياط ما يمس

---

(١) ديوان خ ٤٩٩ .
(٢) « اماكن كثر فراق اهلها مرة بعد مرة منذ زمن طويل .. »
(٣) ديوان خ ٥٠١ .
(٤) ديوان خ ٥٠٦ .
(٥) البر (بالضم) : القمح . يقول : عياش بن لهيعة يقدر البر (القمح ، الطعام) قدراً عظيماً ويقدسه حتى أنه يقسم به .
(٦) الجردقة : الرغيف . الحرم بضم فتح جمع حرمة بالضم : الاهل ، الزوجة ، المرأة ...
(٧) لقد غفل الخياط فاثبت في نسخته ابياتاً تلمح فيها الاقذاع لحا لاشك فيه . راجع ص ٤٨٦ س ٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ؛ هجاء عبدالله الكاتب ؛ ٤٩٣ س ١٥ — ١٨ ؛

الآداب [1] ، وكذلك لا نطمع ان نراها في « شرح ديوان ابي تمام » [2] .

٦ – الوصف

يجب ان نقسم هذا البحث قسمين : الوصفَ الخـــالص اي الذي قيل في الوصف خاصة ؛ والوصف الذي جاء في اثناء المديح . ثم يجب ان نعلم ان باب المديح و ان اسلوب ابي تمام فيه يغلبان على كل باب من ابواب الديوان .

تجيش نفس ابي تمام بصورة من صور الطبيعة او بمشهد من مشاهد الاجتماع فلا يكاد وصف ذلك يخرج من فيه الا مقيداً بالصناعة اللفظية ، ممزوجاً بعناصرَ من الشكوى والفخر وما اليهما ؛ فوصفه هنـــا حقيقة ولكن بلا ألوان جذابة ولا صدق في النقل عن الطبيعة . فمن ذلك قوله في غمامة ممطرة [3] :

كالشيعة ألتفّت على النقيبِ ، آخذة بطاعـــة الجنوبِ [4] .
لما بدت للأرض من قريب تشوقت لوَبلهـــا السكوب [5]
تشوقَ [1] المريض للـــطبيب ، وطـــرب المحب للــحبيب ؛
لذيذة الريق مـــع الصبيب ، كأنمـــا تهمي على الـــقلوب ! [6]

---

(١) ديوان ٤٨٥ .
(٢) للدكتور ، الاسود ، راجع ص ٣١ ؛ ولم يصل طبع ديوان ابي تمام بعد الى باب الهجاء .
(٣) ديوان خ ٤١٤ .
(٤) الشيعة : أتباع مذهب اسلامي يقال له المذهب الامامي أو المذهب الاثنا عشري . يرى الشيعة أن الامام علياً ، كرم الله وجهه ، كان يجب أن يكون الخليفة الاول بعد الرسول مباشرة وأن تستمر الخلافة بعده في عقبه . وهم يجعلون هذا الرأي أصلا من أصول المذهب . النقيب : نقيب الاشراف العلويين : منصب أحدث في العصر العباسي ، وصاحبه هو الرئيس الديني للشيعة (يريد أن يقول : ان هذه الغيمة متراكمة كثيفة مجتمعة كما يجتمع الشيعة حول نقيبهم) . آخذة بطاعة الجنوب : مطيعة للريح الهابة من الجنوب ومتجهة من الجنوب الى الشمال (مملوءة بالمطر) .
(٥) تشوق : اشتاق ، مال برغبة شديدة . وربما كانت الكلمة « تشوف » : تطلع وتطاول لينظر . الوبل : المطر الغزير . السكوب : المنصب باستمرار .
(٦) لذيذة الريق : طيبة (تشربها الارض بسرعة مع الصبيب : مع كثرة انصبابها وهطولها =

اما النوع الثاني فصور بلاحقيقة ابدع فيها الشاعر لما رقّشها به من الجناس والطباق وبعيد التشبيه او قريب الاستعارة تبعاً للقصيدة التي استقرت فيها، كوصف لخمر أو وصف القلم خاصة فإنّ فيه شيئاً من الحقيقة في كثير من بعيد الخيال ولطيف التجنيس .

وأما الاوصاف التي يجيدها شاعرنا فأوصاف المعارك والحروب . هناك تشعر حقيقة ان شعور ابي تمام يغمرك ويستولي عليك فتتصل نفسك بنفسه . ولا بدع ان وصف ابو تمام معركة عمورية وأجاد، فلقد شاهدها بنفسه . وإذا قرأت له وصفه الخيل في الحرب[1] :

واذا كان عارضُ المـوت سحاً	خضِلاً بالردى اجشَّ هزيمـا[2] ،
في ضِرام من الـوغى واشتعال	تحسب الجـو منهما محمومـا ،
واكتست ضُمَّر الجيـاد المذاكي	من لباس الهيجا دمـاً وحميما[3]
في مَكرٍّ تلوكهـا الحرب فيه ،	وهـي مقورَّة تلوك الشكيما[4]

= (لأن الأرض عطشى محتاجة الى المطر) . كأنما تهمي (تسقط) على القلوب : تدخل الاطمئنان على القلوب لثقة القلوب بأن تلك الغيمة ستقضي على القحط وتأتي بالخصب .

(١) ديوان خ ٢٩٣ .

(٢) العارض : السحاب المقبل . عارض الموت : هول المعركة . سحا : غزيراً متصلا (شديداً) . خضلا : مبتلا (المعركة تحمل معها موتاً أكيداً للذين فيهـا) أجش : خشن الصوت (ذو رعد قوي = يدخل الرعب على القلوب) . الهزيم : صوت الرعد الشديد الذي ينبجس معه المطر من الغيم (يقصد : هذه المعركة تحمل الى المحاربين الخوف الشديد مع الموت الاكيد) .

(٣) الجياد جمع جواد : الحصان . الضمر جمع ضامر : النحيل الخصر ، وفي القاموس (٢ : ٧٦) الضامر : الفرس الدقيق الحاجبين . المذاكي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها (بعد جراحها التي أصيبت بها في المعارك) سنةاوسنتان(كناية عن اختبارها في الحرب) . الحميم : الماء الحار (العرق المتصبب من الخيل) .

(٤) مكر : مجال الهجوم في المعركة . تلوكها الحرب فيه : تعلكها (الخيل تحارب في مكان ضيق والسلاح يعمل فيهـا تقطيعاً فكأن الحرب تمك المتحاربين بأضراس لها) . مقورة : منثنية على نفسها (لضيق المكان) . تلوك الشكيم : تعلك (تعض على) الشكيم (الحديدة التي في طرف اللجام والتي تكون في فم الحصان (كناية عن الغضب والشدة في القتال) .

ايقنت انك ترى تلك الجياد تخوض الغمار امام عينيك وقد ضاقت حومة الوغى بالفرسان وصبر الفريقان ، والموت يتناول الأبطال غير آبه للنتيجة ! ..

وصف القلم

من قصيدة يمدح ابو تمام فيها محمد بن عبدالملك الزيات[1] :

تك القلمُ الأعلى . الذي بشَباتــه

تُصاب ، من الأمر ، الكُلى والمفاصلُ[2] .

لُعابُ الأفاعي القاتــلاتِ لُعابُه ،

وأرْيُ الجنى أشتارتْهُ ايدٍ عواسلُ[3] .

له ريقة طلٌّ ، ولكنَّ وقعَها ،

بآثاره في الشرق والغرب ، وابل[4] .

فصيحٌ اذا استنطقتَه وهو راكب[5] ؛

واعجمُ ان خاطبتَه وهو راجل .

اذا ما امتطى الخمسَ اللطافَ، وأفرغت

عليه شِعابُ الفكر وهي حوافل[6] ،

اطاعته اطرافُ القنا ؛ وتـــقوّضت

لنجواه ، تقويضَ الخيام ، الجحافل[7] .

---

(١) راجع صرخ ٢٥٧–٢٥٨ (٢) الشباة : الحد ؛ اصاب الكل والمفاصل : احكم الاصابة.

(٣) اللعاب : الريق ؛ الاري : العسل ؛ الجنى : القطف او ما يقطف ؛ اشتار : استخرج العسل خاصة ؛ العواسل : المستخرجة العسل – انقلمك ينفثمرة سماً ، ومرة يأتيبالشهدوالعسل.

(٤) ريقه طل : قليل الرطوبة (بالحبر) ولكن اثره وابل (مطر شديد) .

(٥) اذا ركب الاصابع (تناولته الاصابع) كان فصيحاً (كتب الانسان ؛ ونظم الشعر الخ)

(٦) صورة لتناول القلم بالاصابع وتزاحم الافكار في رأس الاديب وهو يكتب .

(٧) الاوامر التي تصدر مكتوبة الى الآفاق تطيعها الرماح (تبدأ الحرب او تنتهي) ، وبها تتقوض (تنهزم) الجحافل (الجيوش) .

اذا استعزرَ الذهنَ الذكيّ واقبلت اعاليه، في القرطاس ،وهي أسافل [1] .
وقد رفدته الخنصران ، وسددت ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامل [2] .
رأيت جليلا شأنُه، وهو مُرْهَفٌ ضَنى ؛ وسمينا خطبُه وهو ناحل [3].

٧ – الغزل والنسيب [4] :

لا ريب في ان هذا الباب في ديوان ابي تمام ادنى فنونه مرتبة عن مستوى مديحه . « ولم يكن لأبي تمام حلاوة توجب له حسن التغزل ، وانما يقع له التافه اليسير في خلال القصائد » [5] لما علمت من خصائصه واسلوبه . واذا كانت الصنعة قد اكسبت مديحه فخامة واصابة مرمى فانها قد افسدت وصفه وغزله ونسيبه . وسواء عليك أرأيت غزله البحت او غزله في ثنايا المديح . فانما الذي يروعك منه تلك التشابيه والاستعارات التي قنص بها معانيه الغريبة ، أما العاطفة فلا . وأحسن الغزل ما أثار العاطفة لا ما أجهد العقل .

* * *

لابي تمام غزلان : مؤنث يكاد يقصره على مطالع قصائده في المديح ؛ ومذكر لا تكاد ترى سواه في باب الغزل عنده . فهو اذن ، ان تكلف الغزل أتى به مؤنثاً لقبح الغزل المذكر في المدائح ؛ وان جرى على هواه اكثرَ من الغزل المذكر حتى تنكر ان يكون سبيله غير ذلك . وكيفما قلبت في غزله الخالص فلا ترى فيه سوى شهوة تحرقه يَوَدُّ أن لو يطفئها عند كل حبيب . وكل عزة نفس في حياته العامة وفي مديحه يضيعها في حياته الخاصة وفي غزله .

لم يُعرف ابو تمام بحبيبة لها اسم معين ولا عُرفت له من لها اسم معين . وكذلك

---

(١) اذا استعان القلم بالذهن ثم انحنى على الورق .

(٢) رفد : سند

(٣) رأيت امره عظيماً مع انه هو قصبة دقيقة (رفيعة من السقم) .

(٤) راجع الفرق بين الغزل والنسيب في « ابو نواس » للمؤلف (منشورات الشرق الجديد ، اعلام الفكر العربي ، رقم ٤) ص ١٣٦ .

(٥) العمدة ٢ : ٩٥ .

نجـد في غزله المذكر بضعة اسماء له نحو اصحابها عاطفة عارضة لا تلبث ان تستقر حتى تنتقل ثائرة تبحث عن لهو جديد .

اما نسيبه ، او غزله ايضاً ، في اثناء ابيات المديح فيجب ألاّ نشك ساعة في انه صناعة اكثرَ منه عاطفةً ؛ وان كان يستهويك كقوله [1] :

السالبات امرأً عزيمتـــه بالسحر ، والنافثات في عُقَده [2] .
لبِسْن ظِلّين : ظلَّ امنٍ من الدهـــر ، وظلاً من لهـوه ودَده [3] .

أو قولـــه [4] :

– كأن الدمع يُنثر من نظام على تلك المحاجر والخدود [5] .
تريدين المزيد ؛ وليس عنـــدي –
وراء محل حبـك – من مزيـــد !

ومع انه لم يحسن النسيب فقد أحسن التخلص منه الى المديح احياناً .

واذا كانت اخلاق ابي تمام على ما ذكرنا فمن البديهي ان يكون له مُجون ، سوى ان ناشري ديوانه قد اهملوا ذلك البتة [6] .

نموذج من غزله

لا آكلُ التفاح ، عمري ، ولو جنيتَه لي من جِنانِ الخلود .

---

(١) ديوان خ ٩١ .
(٢) النافثات في العقد : الساحرات . كانت الساحرة تمسك خيطاً بيدها وتتمنى ما تشاء ان يصيب المسحور من ضرر ثم تعقد في الخيط عند كل امنية لها عقدة وتنفث فيها (وتنفخ عليها) . راجع القرآن الكريم ايضاً (سورة الفلق ، السورة ١١٣) .
(٣) الدد : اللعب .
(٤) ديوان خ ١٠٨ .
(٥) يشبه الدموع المنحدرة على الخدين كاللؤلؤ الذي ينتثر اذا انقطع النظام (الخيط الذي يسلك فيه اللؤلؤ) . المحجر (موضع العين في الوجه) .
(٦) ديوان خ ٤٨٥ .

والله لا أتركُه للقِلى ؛ لكنني اتركه للخدود !

• • •

عفّت محاسنُه عندي [1] إساءتَهُ ، حتى لقد حَسُنت عندي مساويه .
هذا مُحبك أدمى الشوقُ مهجتَه ؛ فكيف تُنكر ان تَدمى مآقيه ؟

• • •

اي شيء يكونُ احسنَ من صبٍ اديب مُتيّمٍ بأديب؟
كادَ ان يكتُبَ الهوى بين عينيه كتاباً : « هذا حبيبُ حبيبٍ ! [2] »
غيرَ أني لو كُنت اعشقُ نفسي لتَنَغّصْتُ عيشَها بالرقيب .

• • •

قد قصَرنا دونكَ الابصار خوفاً ان تَذوبا .
كلما زِدناكَ لحظا زِدتنا حُسناً وطيبا .
مرضت ألحاظُ عينيك فأمرضتَ القلوبا .
ما نُريد الشمسَ والبدر اذا كنت قريبا ؟

• • •

اجعلي في الكرى لعيني نصيباً ، كي تَنالَ المكروهَ والمحبوبا .
أشركي بين دمعِ عيني ونومي ، واجعلي لي من الرُقاد نصيباً .
كُنت أهوى البيضَ الحسانَ ، فقد اصبح حُبي عن غيرها محجوبا .
قرّبتها المُنى ، وباعدَها النأيُ ، فأضحت مني بعيداً قريبا .
ان تكن مقلتي ، اذا غبتِ ، تستولي عليها الدموعُ (حتى توُوبا) .
فلكم نظرة ، تُسَرّ بها منك ، لها روعةٌ تشقُ القلوبا .

---

(١) في كتاب الزهرة (ص ٥٤) : عفت محاسنه عني .
(٢) حبيب الاولى : محبوب ؛ والثانية اسم ابي تمام .

الحكمـــة :

كوّن حكمةَ أبي تمّام ثلاثةُ أمور :

أ ــ علمه وسعة اطّلاعه ،

ب ــ كثرة تجوالـــه ،

ج ــ الثقافة الراهنة .

فأما علمه وسعة اطلاعه فقد مكّناه من ان يجيل فكره في تراث الأولين وآراء الشعراء فيستخرج أحسنها ، او يصقل بعضها او يشتق منها نواحيَ جديدة . من أجل ذلك اتّهمه الآمدي بسرقات كثيرة [1] . والحق ان ابا تمام حاول ان يزيد هذه المعاني التي أخذها إما بالغوص على اوجهها ، او بكسوتها من الصنعة حلة مجيدة ، وقد احسن في كثير منها : وبعض حكم أبي تمّام تجري مجرى الأمثال . ولعلّ الأبيات التي تضرب أمثالاً من شعر أبي تمّام لا تقل في عددها عن الأبيات التي تضرب أمثالاً من حكم المتنبي [2] ، مع العلم بأن أبيات المتنبي الحكيمة أشهر في الآفاق وأسير على الألسنة . ومع أن أبا تمام لم يعش سوى ثلاث وأربعين سنة قمرية (١٨٨ ــ ٢٣١ هـ) ، فانه بلغ من النضج مبلغاً عظيماً مما جعل حكمه تقع موقع الصواب وترزق شيئاً من السيرورة على الألسن. فمن حكمه الجياد المشهورة :

وإذا تأمّـلتَ البـلاد رأيتهـا ... تُثْري كما تُثري الرجال وتُعدم .

ــ فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ، ... ولا المجد ــ في كف امرىءٍ ــ والدراهمُ .

ــ لا شيء ضائرُ عاشقٍ ، فاذا نأى ... عنه الحبيب فــكل شيء ضائــره .

ــ اني تأملت النوى فوجدتهـا ... سيفاً على صبر الهوى مسـلولا .

ــ ما ابيضّ وجه المرء في طلب الغنى ... حتى يسودّ وجهــه في البيـدِ .

ــ ومما كانت الحكمـاء قالت ... لسان المرء مــن خدم الـفؤاد .

---

(١) الموازنة ص ٢٣ ــ ٥٤ ، راجع ص ٤٧ .

(٢) راجع اعيان الشيعة ١٩ : ٢١٣ . وقد جرد محسن الامين عدداً كبيراً من حكم ابي تمام وامثاله (اعيان الشيعة ١٩ : ٢١٤–٢٣٠) .

– وقد تألَفُ العينُ الدجى وهو قيدها . ويرجى شفاء السمِ والسمّ قاتل .
– لا تنكري عَطَلَ الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكـــان العالي .
– وزعمت ان الرزق يطلب اهله لكن بخيلة مُتعَب مـــكدود .
– اذا عُنيت بشأو قلت إنيّ قـــد ادركته ادركـــتني حرفة الأدب .
– ما آب من آب لم يظفر بحاجتـــه . ولم يغب طالـــب بالنجح لم يخب .

ولا ريب أبداً في أن هذا النوع اعلى انواع حكمه ، وأي حكمة تبلغ في اصابة المرمى وسهولة التعبير إلى قوله :

نقّلْ فؤادك حيث شئت من الهوى ، ما الحب الا للحبيب الأول !
كم منزل في الأرض يألفـــه الفتى ، وحنينـــه ابداً لأول مـــنزل .

فهذه تستحق ان تسير على وجه الدهر ، اذا استعملنا تعبير ابن رشيق . وامـــا حكمه المستمدة من الثقافة الراهنة فكثيرة الصنعة كثيرة التكلف بعيدة عن اسس « المثل السائر » . لا يفهمها الا النحاة ، أو الفقهاء ، او العلماء او الفلاسفة . ومن أجل ذلك ايضاً كان يُتهم بقول ما لا يُفهم كقوله في الخمر مضمناً اشارة نحويـــة :

خرقاءُ يلعب بالعقـــول حبَابها كتلاعب الأفعـــال بالاسماء .

وقوله في العطاء ، وفيه إشارة الى آي من القرآن الـــكريم [1] :

الود للقربى ، ولـــكن عُرفه للأبعـــد الأوطان دون الاقرب .

وعندي ان هذه لا تدعى حكمة ولكنها مجاراة لزمن شهد الثقافات المختلفة من عربية اسلامية او فارسية ويونانية وهندية فأراد ان يقيد معرفته لها بأبيات شعره ؛ فكان يضربها أمثالاً ، ولكنه لم يصب دائماً .

غير ان من أحسن اقواله في الحكم واختراعه في المعنى قولَه الذي اكتسبه من اختباره الخاص لا من الثقافات الشائعة ، والـــذي ساقه في ألفاظ فصيحة

---

(١) الشورى (٤٣) : ٢٣ ؛ البقرة (٢ : ٨٣ ، ١٧٧ ، النساء (٤) ٣٦ : وغير هذه .

وتراكيب سهلة جداً ، بالاضافة الى أسلوبه العام ، فأكسبه بذلك سيرورة على الألسن :

– واذا اراد الله نشرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ ، اتاح لها لسانَ حَسود .
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرف العود[1] .
– وطول مُقام المرء في الحي مُخلق لديباجتيه ، فاغترب تتجدّد[2] .
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ، انْ ليست عليهم بسرمد .
– لا تنكري عطل الكريم من الغنى .
فالسيل حرب للمكان العالي .
وتنظّري خبَب الركاب ينُصّها محيي القريض الى مميت المال[3] .
– ليس الغبي بسيد في قومه ، لكنّ سيد قومه المتغابي[4] .
– سكن الكيد فيه ، إنّ من أعظم إربٍ ألاّ تُسمى اريبا[5] .
– واذا رأيت من الهلال نموّه أيقنتَ أن سيصيرُ بدراً كاملاً .
– ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ، ويُكدي[6] الفتى في دهره وهو عالمُ .
ولو كانت الأرزاق تأتي على الحجى هلكْنَ ، اذن ، من جهلهن البهائم .
– أولى البريّة حقاً أن تواسيه وقتَ السرور الذي واساك في الحزَن .

(١) العود خشب ذكي الرائحة (له رائحة طيبة شديدة) .
(٢) راجع شرح البيتين في المختارات .
(٣) لا تستغربي أن يكون الكريم فقيراً ، فان السيل يجرد رؤوس الجبال من التراب ويجمع ذلك التراب في الاودية (شبه الرجل الكريم بالجبل العالي بين قومه وبين الناس ، ثم شبه السائلين وطالبي الحاجات بالسيل لكثرتهم وتتابعهم) . ولكن انتظري الغنى لي ولك حينما تخب (تركض) بي الركاب (الابل) ينصها : يجهدها في السير والسفر . محيي القريض : باعث الشعر (أقدر الشعراء ، يقصد الشاعر نفسه) . مميت المال : باذل المال بكثرة (أكرم الكرماء) .
(٤) المتغابي : المتظاهر بالغباء وهو شديد الذكاء .
(٥) الارب (بكسر الهمزة وسكون الراء) : الدهاء .
(٦) يكدي : يفتقر .

ان الكرام اذا ما أيْسروا ذكروا　　من كان يألفهم في الموطن الخشِنِ [1].

وبدأ الجرجاني مقدمته في كتاب « الوساطة » بالكلام على التنافس والتحاسد والتحامل فلم ينكرها ، بل عدها من أسباب ما يكشف عن الفضل ويلفت النظر اليه. ثم ذكر قول ابي تمام — من غير ان يذكر أبا تمام — :

وإذا اراد الله نشر فضيلة　　طُويت أتاح لها لسان حسودِ !

واتبع هذا البيت بقوله : « صدق ، والله ، وأحسن ! »

ثم علق على هذا كله بسبعة أسطر شرح فيها المعاني التي تدور في فلك هذا الموضوع والتي أوجزها ابو تمام كلها في بيت واحد [2] .

الزهد

كان الشاعر احياناً — أما في العصور المتأخرة فدائماً — ينظم في ابواب الشعر من جميع ابحره وعلى جميع قوافيه . فاذا رأينا زهداً لأبي تمام فليس معنى ذلك انه تزهد، فهو لم يبلغ السن التي تلجىء الانسان الى أن يحاسب نفسه على اعماله السالفة ، فقد مات في أوائل كهولته او في اواسطها على اكبر تقدير . ولم نعلم عارضاً اتفق لابي تمام يدفعه الى الزهد كما كان شأن ابي نواس . وليس لابي تمام في هذا الباب جيد ولا جديد .

وأما الأبيات الستة والأربعون التي اثبتها الخياط [3] فهي ركيكة جداً لا يعقل ان تصدر عن مثل ابي تمام كقوله (ديوان خ ٤٨٣) :

وأخلصْ لدين الله صدراً ونية ،　　فان الذي تخفيه يوماً سيظهر .
فلا بد يوماً ان تصير لحفرة　　بأثنائها تطوى الى يوم تنشر .

---

(١) الموطن الخشن : أيام الضيق والفقر .

(٢) الوساطة ١ .

(٣) ديوان خ ٤٨٢ — ٤٨٤ .

ومن كلام أبي تمام على كهولته [1] وانتشار الشيب في رأسه [2] مما دعا الغواني الى النفرة من بعد طول الانس [3] :

جرت في قلوب الغانيات لشَيْبَتي قُشَعْرِيرة من بعد لين وإيناس .

نرى انه قال هـــذه الابيات القليلة في أواخر ايامه ، وان كان اسلوبها يدل على انها يجب ان تكون من أول عهده بمعاناة الشعر . على ان الذي لا شك فيـــه ان اسلوب هذه الابيات ركيك جدًّا بعيدة عن اسلوبه في آخر حياته الأدبية وفي مطلعهـــا .

• • •

هذا مجمل ما يمكن ان يقال في شاعر ملأ عصراً ، وترك بعده دوياً : شاعرٍ مثّل الاسلام والقومية أجمل تمثيل ، ووقف ديوانه على جلو عظمتهما الحقّ في شعر متين .

حُقّ لشعر ابي تمام ان يُحبّ فهو شعر مملـــوء بالمعاني ، مزدحم بالصور الجميلة ، مرصوف رصفاً متقناً يدل على براعة لم يظفر بها كل شاعر ؛ بل لمّ يظفر بها احد سوى حبيب بن اوس . انك لا تجد قصائد ابي تمام مُزجاة ترفض ابياتاً جوفاء عن معان تافهة ؛ ولا أصواتاً مختلفة عن افكار غير مؤتلفة .

قد لا يطيب لك ان تحمل ديوان ابي تمام في نُزَهك ، او ان تقرأ منه في سمَرك ؛ ولكن اذا اعتزلت ضوضاء العالم ، وترفعت عن سفاسف السوقة ، ومحاقر الجهال ثم اردت ديوان شعر تُسرّح طرْفك في ابياته وفكرك في ارجائه فليس لك الا بضعة دواوين ، احدها — وقد يكون اعظمها شأناً في ذلك — ديوان ابي تمام .

---

(١) ديوان خ ٣٨٤ ، البيت ١٥ .
(٢) ديوان خ ٤٨٣ البيت ١٤،٧،٥ .
(٣) ديوان خ ٤٨٣ .

قد يأنف بعض الناس من مجالسة السوقة والشُطّار والعيّارين كي يميز نفسه منهم امام الناس ولكنه يشركهم في كل ما يميلون اليه من لهو وحديث وقصص . فهو من أجل ذلك على الحقيقة منهم ، تربطه بهم آصرة الذوق . وتلفه بنبعتهم عُلاقة النشأة الأولى . ومن الناس من لا يستسيغ شعر ابي تمام واضرابه احتجاجاً بصعوبته وتعقيده ؛ ولو نسب ذلك الى تنافر الفطرة ومعاصاة الفكرة لكان قوله أقرب الى الصواب ، وأجدر بالاعتبار .

مختارات من شعره

مديح عبد الله بن طاهر

تولّى عبدالله بن طاهر الشام للمأمون (٢٠٥ ـ ٢٠٧ هـ) ثم تولّى الـري (٢٠٧ هـ) . وفي الخامس من المحرم من سنة ٢١١ (١٧ ـ ٤ ـ ٨٢٦ م) تولّى مصر الى أن عيّنه المأمون على خراسان في رجب سنة ٢١٣ (خريف ٨٢٨) . ولمّا اشتدت ثورة بابك الخرّمي ، وجّه المأمون عبدالله بن طاهر الى قتال بابك (٢١٤ هـ) .

ويبدو أن هـذه القصيدة كانت أول قصيدة مـدح أبو تمام بها عبدالله ابن طاهر (خ ٤٣ ـ ٤٦ ، ت ١ : ٢٢٣ ـ ٢٣٩) :

أهُنّ عوادي يوسفٍ وصواحبُهْ ! فعزْماً ! فقِدماً أدركَ السُّؤْلَ طالبُهْ[1] .

---

(١) العوادي جمع عادية : العدو ، المعتدى ، المبتدىء بالعداوة . والعدى والعادية في القاموس (٤ : ٣٦٠ ، السطر الثالث) : جماعة القوم يعدون (بفتح الياء وسكون العين : يركضون يسرعون) لقتال ، أو أول من يحمل (يهجم) من الرجالة . يوسف : يوسف بن يعقوب ، والاشارة الى يوسف هنا وقعت على ما ورد من قصة يوسف في القرآن الكريم (السورة الثانية عشرة). الصواحب جمع صاحبة : الصديقة ، المحبة ، المتحببة . عزما : ثباتاً على ما تطلب ! قدماً : في الزمن القديم ، طالما . السؤل : المطلب . ـ يقول : هؤلاء اللواتي يتعرضن لي (من مصائب الدهر ومغرياته) يشبهن عوادي يوسف (عدواته على الحقيقة) وصواحبه (المتحببات اليه ، وهن في الواقع أيضاً عدوات له ، لأنهن يردن منه ما يغضب الله).ـ

اذا المرءُ لم تستخلصِ الحزمَ نفسُه فذُروته للحادثات وغاربه [١] .
أعاذلتي ، ما أخشنَ الليلَ مركباً ! وأخشنُ منه في المُلِمّات راكبه [٢] .
ذريني واهوالَ الزمانِ ، أفانها ! فأهوالهُ العُظمى تليها رغائبه [٣] .
ألمْ تعلمي ان الزّماعَ علـى السُّرى اخو النُّجح عند الحادثات وصاحبه [٤] ؟ .
دَعيني على اخلاقيَ الصُّمِّ للتي هِيَ الوَفرُ ، أوسِربٌ تَرِنَ نوادبه [٥] .
فإنّ الحُسام الهِنْدوانيّ إنّما خُشونتُه ما لم تُفَلّلْ مضاربه [٦] .
وقلقل نَأيٌ من خُراسانَ جأشُها فقلت : أطْمَئِني ، أنضرُ الروض عازبه [٧] .

* * *

— والهمزة في أول البيت زائدة وليست للاستفهام . فاصبر فقد طالما أدرك الصابرون المثابرون من أولي العزم ما كانوا يطلبون .

(١) استخلص الرجل الحزم : بت في الأمور بعزيمة وحكمة معاً . فذروته (رأسه) للحادثات (للمصائب) وغاربه (كتفه) : فان أمره جميعاً سيؤول الى الخيبة وسيؤدي به ذلك الى التلف والهلاك .

(٢) العاذلة : التي تلوم الانسان على فعل لا يرضيها . ما أخشن الليل – مركباً : ما أشق (أصعب) السفر في الليل (كناية عن الزمن الشديد القاسي) . الملمات : الاحداث الشديدة والمصائب .

(٣) ذريني (دعيني ، اتركيني) وأهوال الزمان (مع أهوال الزمان) أفانها (أقاتلها وأقتلها : أتغلب عليها واحداً بعد واحد) . تليها : تتبعها . الرغائب جمع رغيبة : الامر المرغوب فيه .

(٤) الزماع (بفتح الزاي وكسرها) : المضاء في الأمر . والزماع (بفتح الزاي) : الشجاع الجيد الرأي المقدم على الامور . أخو النجح وصاحبه : الذي ينجح .

(٥) الأخلاق الصم هي التي لا تسمع قول العاذل واللائم . التي هي : حتى أنال التي هي .... الوفر : الغنى . سرب ترن نوادبه : جماعة النساء يبكين في المأتم (الموت) . – سأصم سمعي عن كل لوم حتى أنال الغنى الذي أطلب أو أهلك .

(٦) خشونة السيف : مضاؤه وشدة الضرب به (القطع والقتل) . تفلل مضاربه : يتشقق حده فلا يقطع كما ينتظر من السيف . – اتركيني أقاسي الأهوال في السعي الى الغنى والمجد ما دمت شاباً (كالسيف الذي لم يتشقق حده بعد) .

(٧) قلقل نأي من خراسان جأشها : أقلق بعد خراسان قلب (امرأتي ، او عاذلتي الشفيقة علي) . فقلت لها : اطمئني ، أنضر الروض (أحسنه واكثره عشباً = اكثر تكسباً للمال بالشعر) عازبه (البعيد عن المرعى لأنه لا يذهب اليه أناس كثيرون بقطعانهم – لا يذهب اليه شعراء كثيرون) .

ورَكْبٍ كأطراف الأسنَّةِ عرَّسوا ... على مِثلها ، والليلُ تسطو غياهبه [1]

لأمرٍ عليهم أن تَتِمَّ صدورُه ، ... وليس عليهم أن تَتِمَّ عواقبه [2]؛

على كلِّ رَوّادِ المِلاطِ تهدَّمت ... عريكتُه العَلياء وانضمَّ حالبه [3]،

رَعَتْهُ الفيافي بعد ما كان حِقْبةً ... رعاها وماء الروض يَنْهَلُّ ساكبه [4]؛

فأضحى الفَلاقد جَدَّ في بَرْيِ نَحْضِه ... وكان زمانا قبل ذاك يُلاعبه [5].

فكم جَذْعِ وادٍ جَبَّ ذِروةَ غاربٍ ، ... وبالأمس كانت أتْمَكَتْه مَذانبه [6]!

• • •

---

(١) الركب : الجماعة المسافرون معاً . أطراف الاسنة : نصال الرماح (الحديدة التي في رأس الرمح) . عرسوا : قضوا الليل . على مثلها : على (ابل) مثل (أطراف الاسنة) . تسطو غياهبه : يشتد سواده فيغطي على كل شيء . — كنا نحولا من طول السفر ومشاقه ، ومع ذلك فقد كنا نقضي الليل على ظهور الابل (بدلا من أن ننزل مرة بعد مرة لننام ونأخذ قسطاً من الراحة — كان سفرنا متصلا) ، وكذلك كانت الابل التي نركبها نحيلة من طول السفر ومشاقه .

(٢) صدوره : أوائله . عواقبه : نهايته ، الغاية منه . — كنا في سفرنا الشاق نقصد أن نحقق هدفاً ، ولكننا لن نلام اذا لم يتحقق ذلك الهدف .

(٣) رواد الملاط : متحرك أعلى الكتف ذات اليمين وذات الشمال في السير (وذلك من صفات الابل) . تهدمت عريكته العلياء : انخفض سنامه وذاب من السفر والتعب . وانضم حالبه ، يقصد : انضم حالباه: قرب أحدهما من الآخر (كناية عن النحول والهزال) . والحالب عرق في جانب البطن .

(٤) رعته الفيافي : اهزله السفر في الفيافي (القفار والاراضي الخالية) فكأن الفيافي أكلت لحمه . الحقبة : المدة من الزمن . رعاها وماء الروض ينهل ساكبه (يكثر فيه المطر) ، بعد أن كان قد رعى العشب في الاماكن المخصبة فسمن .

(٥) وقد جدت الصحارى (لطول هذا السفر) في تذويب نحض (لحم) هذا الجمل . يلاعبه : يلعب فيه ويرتع (كان هذا الجمل من قبل يلاعب العشب في ذلك الروض لأنه كان شبعان لا يحتاج الى أكل ذلك العشب ، ثم هو مرتاح لايسافر احد عليه ، فكان يقضي وقته في ذلك الروض يلاعب عشبه .

(٦) جذع الوادي : منعطفه ، طرفه . جب : قطع ، قص قطعة من الشيء . أتمك : أسمن . المذانب—

اليكَ جزَعنا مَغربَ المُلْكِ ، كلّما وسَطنَا مَلاً صلّت عليك سَباسبه[١] .
فلو أن سَيراً رُمْنَهُ فاستَطعْنَهُ — لَصاحَبْنَنا شوقاً اليك — مَغاربه[٢] .
الى مَلِكٍ لم يُلقِ كَلكَلَ بأسهِ على مَلِكٍ ، إلاّ وللذلّ جانبُه[٣] .
الى سالبِ الجبّارِ بيضة ملكه ؛ وآملُه ، غادٍ عليه ، فسالبُه[٤] .
وأيّ مَرام عنه يَعدو نياطُه عدا أو تَفُلّ الناعجاتُ أخاشِبُه[٥] .
وقد قرّبَ المرمى البعيدَ رجاؤه ، وسهلتِ الأرضَ العزازَ كتائبُه[٦] .

= جمع مذنب (بكسر الميم وفتح النون) : مسيل الماء . — رب سفر من طرف من واد (مخوف) الى طرف آخر يهزل جملاً كان بالامس قد سمن من خصب هذا الوادي .
مما يلاحظ أن أبا تمام قد كرر معنى واحداً في بضعة أبيات .

(١) جزع : قطع . مغرب الملك : الاقطار الغربية من الخلافة العباسية ، بلاد الشام في الاكثر . وسطنا : أصبحنا في وسط ، وصلنا الى . ملا : الارض الواسعة . السبسب : الارض القاحلة . صلت عليك سباسبه : شكرتك الاراضي التي كانت سباسب ثم أصبحت بفضلك عامرة.

(٢) لو كانت الاراضي تستطيع أن تسير لرافقتنا أراضي المغرب وجاءت معنا اليك الى المشرق لما سبق من احسانك اليها (كان عبد الله بن طاهر والياً على الشام وعلى مصر أيضاً — راجع مقدمة القصيدة) .

(٣) الكلكل : الصدر . بأسه : بطشه .

(٤) الجبار : الملك العظيم . بيضة ملكه : عاصمة بلاده . والبيضة كل شيء يدافع صاحبه عنه . آمله : الشخص الذي يأتي اليه يطلب معونة . غاد : آت باكراً (اذا جاء باكراً) . سالبه : مستول على أمواله . — انه بقوته وبطشه يسلب الملوك ممالكهم ، ثم هو حليم كريم اذا جاءه في الصباح الباكر شخص عادي يطلب منه معونة يسيرة أعطاه كل ما يملك (فكأنه سلبه كل شيء يملكه) .

(٥) المرام : المراد ، الغاية ، الهدف . يعدو بالشيء : يتجاوز به عن قصده ، يصرفه عن قصده . النياط : العلائق . تفل : تقطع ، وهنا معناها : تذلل . الناعجات : النياق السراع . الاخاشب جمع أخشب : الارض الغليظة . — ليس (في الارض) مرام تقوم دونه العوائق أو تهلك الابل قبل أن تصل اليه يمكن أن يصرفنا عن البلوغ اليه (جميع أنواع العوائق ، بعد المكان ووعورة الطريق وسوى ذلك لا يمكن أن يصرفنا عن زيارة عبد الله بن طاهر لمدحه) .

(٦) العزاز : الصلب من الارض . الكتائب (هنا) : الجيوش . — رجاؤه (الثقة بكرمه) قد قرب علينا كل بعيد ، كما أن جيوشه كانت قد ملكت جميع السبل وأمنتها فأصبحت الاسفار كلها سهلة على جميع الناس.

اذا انت وجّهتَ الركابَ لقصده تبيّنْتَ طعمَ الماءِ ذو أنت شاربه [1].
جديرٌ بأن يَستحيي اللهَ بادياً به ، ثم يستحيي الندى ويراقبه [2].
سما للعلى ، من جانبَيْها كليْهما ، سموَّ عُبابِ الماء جاشت غواربه [3]؛
فنوّلَ حتى لم يجد من يُنيله ، وحارب حتى لم يجد من يحاربه [4].
وذو يَقَظاتٍ مستمرٍ مريرُها اذا الخطبُ لاقاه اضمحلت نوائبه [5].
وأينَ بوجْهِ العزمِ عنهُ . وانّما مَرائي الأمورِ المُشكلاتِ تَجارِبُه [6].
أرى الناسَ منهاجَ الندى بعدَ ماعفَتْ مَهايعُه المُثلى ومَحّتْ لَواحِبه [7].
ففي كل نَجدٍ في البلاد ، وغائرٍ ، مواهبُ منه ، وهي ليست مواهبه [8].

---

(١) ذو : الذي (بلهجة طيء ، وهي مبنية على السكون ، تلزمها الواو في جميع حالات الاعراب) . تبينت طعم الماء ذو أنت شاربه : أدركت أن الماء الذي ستشربه عذب (قبل أن تصل الى عبد الله بن طاهر تعلم سلفاً أنك ستنال عنده حظوة وستنال منه خيراً كثيراً) .

(٢) باديا : مبتدئا . الندى : الكرم . يراقبه (يراقب الندى) : يخاف أن يغضب الندى . لم ينصب الفعل « يستحي » في المرة الثانية لضرورة الشعر . — يخطر في باله أن يدفع لسائله مبلغاً كبيراً جداً ثم يرى أن هذا إسراف قد يغضب الله . غير أنه يرى بعد ذلك أنه إذا دفع أقل من المبلغ الذي خطر له أساء إلى الكرم والمروءة .

(٣) عباب الماء : الماء الكثير المتسع . جاشت : هاجت واضطربت. الغوارب : جمع غارب : ما علا من الموج .

(٤) نول : أعطى .

(٥) المريرة : الفتلة من الحبل إذا فتلت فتلا شديداً . ذو يقظات مستمر مريرها : هو دائم اليقظة . اضمحل : تلاشى .

(٦) مرائي جمع مرآة . — ان الحزم يوجب ألا يذهب أحد إلا إليه ، وذلك لأن تجاربه واسعة جداً تعرف حلول جميع المشاكل (كأن تجاربه مرايا تظهر فيها الأمور على حقيقتها) .

(٧) عفا : امحى ، ذهب أثره . المهيع : الطريق الواسع المطروق (الذي يسير عليه الناس) . المثلى : الظاهرة المفضلة على كل شيء آخر . (مح الثوب : تهرأ وذهبت معالمه) . اللاحب : الطريق الواضح الظاهر . — أرى الناس منهاج الندى : دلهم على طريق الكرم .

(٨) النجد : ما ارتفع من الأرض ، الهضبة . الغائر : ما انخفض من الأرض : الوادي (أي في كل مكان) . مواهب ليست منه وهي مواهبه : أنواع من الإحسان لم يفعلها هو ولكن فعلها أناس تعلموا فعلها منه ، فكأنها أصبحت من فعله هو .

لتُحدِثْ له الأيام شكر خَناعةٍ تطيبُ صَبا نجدٍ به وجَنائبه [1] .
فواللهِ ، لولم يلبس الدهرَ فعلَه لأفسدتِ الماءَ القَراحَ معائبه [2] .
ويا ايها الساري فسِر غيرَ حاذرٍ جَنانَ ظلامٍ ، أو ردىً أنتَ هائبه [3] ؛
فقد بثَّ عبدُ الله خوفَ انتقامه على الليل ، حتى ما تدبّ عقاربه [4] .
يقولون : « إن الليثَ ليثُ خَفيّةٍ نواجذهُ مطرورةٌ ، ومخالبه » [5] ؛
وما الليثُ كلَّ الليثِ إلاّ ابنُ عَثْرة يعيش فَواق ناقة ، وهو راهبه [6] .

• • •

ويومٍ امامَ الموتِ دَحْضٍ وقَفتَه ، ولو خرَّ فيه الدينُ لأنهال كاثبه [7] .
جَلوتَ به وجهَ الخليفة ؛ والقنا قد اتّسعتْ ، بين الضلوع ، مذاهبه [8] .

---

(١) لتحدث له الأيام شكراً : فلتشكره الأيام . شكر خناعة : أي وهي (الأيام) خانعة ، ذليلة ، مجبرة على هذا الشكر ، إذ لولاه لما كان كرم ولا كانت الأعمال المجيدة ، حتى أن فضله وإحسانه تعديا البشر إلى الموجودات كلها ؛ فطيب الصبا (الريح الشرقية) وطيب الجنوب (بفتح الجيم : الريح الجنوبية) من إحسانه هو أيضاً .

(٢) القراح : الخالص الصافي . معايبه : معايب الماء .

(٣) الساري : المسافر في الليل . حاذر : هائب ، خائف . جنان ظلام : قلب الظلام ، شدته .

(٤) لقد صارت العقارب تهاب سطوة عبدالله بن طاهر فلا تخرج من أوكارها لا نهاراً ولا ليلا .

(٥) يزعمون أن الأسد (الحقيقي ، الصحيح) هو الأسد (الذي يسكن) خفية (غابة كثيفة الشجر) ، وتكون له أنياب ومخالب مطرورة (محددة) ......

(٦) والواقع أن الأسد الذي يستحق هذا الاسم هو الذي يذنب (وهو في ملك عبدالله بن طاهر) ثم يستطيع أن يعيش بعد ذلك فواق ناقة (مدة ما بين حلبتين) ، يقصد « مدة يسيرة » . ان الخوف من عبدالله بن طاهر سيقتل ذلك المذنب من غير أن يتعرض عبدالله بن طاهر له .

(٧) دحض : زلق (بفتح الزاي وكسر اللام) تزلق فيه القدم ، يصعب الثبات فيه . أمام الملك : للدفاع عن الملك . الكاثب : الكثيب (الرمل الكثير المجتمع) . — لو خر فيه الدين : لو انهزم فيه جند الخليفة . لانهال كاثبه : لزال الدين كله .

(٨) جلوت : بيضت . اتسعت مذاهب القنا (الرماح) بين الضلوع : كثرت الجراح الكبيرة الواسعة (كثر القتل) .

شَفَيْتَ صَداه ، والصفيحُ من الطَّلى رُواءٌ نَواحيه عِذابٌ مَشاربه [1] ،

ليالِيَ لم يقعُدْ بسيفِك ان يُـرى هو الموتُ ، إلاّ ان عفوَك غالبه [2] .

فلو نَطقَت حربٌ لقالت ، مُحقَّةً : « الا هكذا فليَكسبِ المجدَ كاسبه » .

ليُعْلَمَ ان الغُرَّ من آل مُصعَبٍ ، غَداةَ الوَغى ، أهلُ الوغى واقاربه [3] :

كواكبُ مجدٍ ، يعلَم الليلُ انهـا اذا نجمَت باءت بصُغْرٍ كواكبه [4] .

ويا ايهـا الساعي ليُدركَ شأوَه ، تزحزحْ قصيًّا ، اسوأُ الظن كاذبه [5] .

بحسبِك من نيل المراتب ان تُـرى عليماً بأنْ ليست تُنال مناقبـه [6] .

اذا ما امرُؤٌ ألقى برَبعِك رَحلَـه فقد طالبته بالـنجاحِ مطالبه [7] .

---

(١) شفيت صداه (عطشه) : شفيت ما في نفسه ، بلغته أمنيته . والصفيح جمع صفحة (السيف العريض) . رواء نواحيه (قد كثر الماء السائل على أطرافه : أكثرت القتل في الأعداء) عذاب مشاربه : حلو ماؤه (ان انتصارك على بابك الخرمي أدخل السرور على النفس فكأنها بعد العطش تشرب ماء عذباً حلواً) .

(٢) لم يقعد بسيفك أن يرى هو (أي سيفك) الموت : لم يكن يمنع سيفك مانع من قتل بابك الخرمي (وقد سنحت لك الفرصة إلا أن عفوك غلب سيفك) سوى أن عفوك تغلب في اللحظة الأخيرة على قدرتك . — يرى : فعل مضارع مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر يرجع الى « سيفك » . هو : توكيد للضمير المستتر في « يرى » . الموت : مفعول به ثان حقه النصب . ولكن الموجود في النسخة المطبوعة (خ ٤٦ ، ت ١ : ٢٣٩) الموت بالرفع . واظن أن الناشرين قد قدرا (بتشديد الدال) « هو » بمعنى « انه » .

(٣) الغر جمع أغر : أبيض (ذو مجد وحسب) . آل مصعب : أسلاف عبدالله بن طاهر . غداة الوغى : يوم الحرب . آل الوغى وأقاربه : القادرون الأبطال في الحرب .

(٤) ان الليل نفسه يعلم أنه إذا برزت كواكب آل مصعب في المجد ، فان نجومه هو تبدو صغيرة (مجد آل مصعب أبرز وأوضح وأشهر من نجوم الليل) .

(٥) الشأو : المضمار ، الغاية . تزحزح قصياً : ابتعد عن منافسته .

(٦) يكفيك من الفضل أن يعلم الناس عنك أنك تعرف أن فضائل عبدالله بن طاهر لا تنال (ليس بامكان أحد أن يصل إليها) .

(٧) إذا نزل إنسان عندك فقد أصبح واثقاً من فوزه بما يطلب .

رثاء محمد بن حُميد الطوسي[1]

في سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ، في أيام المأمون :

كذا فَلْيَجِلِّ الخطبُ ، وليفدحِ الأمرُ ، فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ[2] !

تُوُفِّيَتِ الآمالُ بعد مُحَمَّدٍ ، وأصبح في شُغْلٍ عن السَفَرِ السَفْرُ[3] .

وما كان إلاّ مالَ من قلَّ مالُه ، وذُخراً لمن أمسى وليس له ذخر[4] .

وما كان يدري مُجْتدي جودِ كفّهِ ، اذا ما استهلتْ ، أنه خُلِق العُسر[5] .

• • •

الا في سبيل الله من عُطِّلت له فِجاجُ سبيل اللهِ وانثغر الثَغر[6] .

---

(١) راجع فوق ص ١٢٥-١٢٦ .

(٢) جل : عظم . الخطب : الشأن ، الأمر (المصيبة) . الأمر : الحادث ، الشأن . فدح : ثقل حتى يعجز الإنسان عن حمله أو احتماله . — إذا لم تكن المصيبة عظيمة كمقتل محمد بن حميد الطوسي فلا يقال لها : خطب جليل أو أمر فادح . لم يفض ماؤها : لم يكثر بكاؤها .

(٣) توفيت الآمال : فقد الناس الأمل في تحقيقها . وأضرب المسافرون عن سفرهم الذي كانوا قد عينوه في ذلك اليوم وفي ما بعده .

(٤) كان مالاً حاضراً للفقير ، وثروة مجموعة للذين سيحتاجون في المستقبل .

(٥) وكان إذا طلب أحد منه مالا أعطاه مبلغاً كبيراً ينسيه أن في الدنيا فقراً .

(٦) اننا نحتسب في سبيل الله (نرضى ما شاءه الله من موت محمد بن حميد) رجلا عطلت له سبيل الله (توقف الجهاد بعد موته) . انثغر الثغر : أصبحت حدود البلاد الإسلامية مهددة (غير محروسة) . الفج : الطريق الواسع . الثغر : المكان الذي يخشى منه هجوم العدو .

فتىً ، كلما فاضت عيونُ قبيلةٍ دماً : ضحكت عنه الأحاديث والذكر [1] .

فتى دهرُه شطرانِ فيما ينوبُـه : ففي بأسه شطرٌ وفي جودِه شطر [2] .

فتىً مات ، بين الطعن والضرب ، ميتةً تقومُ مقامَ النصرِ إنْ فاته النصر [3] .

وما مات حتى مات مَضرِبُ سيفه من الضرب ، واعتلّت عليه القنا السُمْر [4] .

وقد كان فَوتُ الموت سهلاً : فردّه اليه الحفاظُ المُرّ والخُلُقُ الوَعْر [5]

ونفسٌ تَعافُ العارَ حتى كأنما هو الكفرُ يومَ الرَّوْع ، او دونَه الكفر [6] .

فأثبتَ في مُستنقَعِ الموتِ رِجلَه ، وقال لها : «من تحتِ أخْمَصِكِ الحشر» [7] .

غدا غُدوةً والحمدُ نَسجُ رِدائه ، فلم ينصرفْ الا وأكفانُه الأجر [8] .

---

(١) فاضت عيون قبيلة دما : نزل بتلك القبيلة مصيبة . ضحكت عنه الأحاديث والذكر : واسى تلك القبيلة بنفسه وماله حتى يتحدث الناس بحسن أخلاقه وبكثرة كرمه .

(٢) ينوبه : يصيبه (يتعلق به) . — نصف أيامه في الحرب (الانتصار على الأعداء) ونصف أيامه في الكرم والإحسان إلى الناس ......

(٣) تقوم مقام النصر إن فاته النصر : إن الميتة النبيلة التي ماتها تعد نصراً أكبر من النصر العادي المألوف عند الناس .

(٤) ذلك لأنه لم يسقط في المعركة قتيلا إلا بعد أن تشقق حد سيفه وبعد أن تكسرت رماح كثيرة وهو يقاتل بها .

(٥) قد كان من السهل عليه أن ينجو من الموت (وكان هو قد انصرف فعلا من المعركة ، ولكنه عرف أن الحرمية يقاتلون جماعة من رجاله فرجع ليدافع عنهم ، وكان وحده) . الحفاظ : الدفاع عن المحارم (عما يدخل في واجب الإنسان أن يدافع عنه من الدين والشرف). الوعر : الصعب . الخلق الوعر : الخلق المستقيم الذي لا يتزحزح صاحبه عن موقفه واعتقاده .

(٦) ورده أيضاً إلى الموت نفس تخاف أن يلزمه العار (العيب طول حياته) إذا لم ينجد بني قومه في القتال . وتخلف العربي عن نجدة أخيه في الحرب يعد كفراً ، بل الكفر أقل منه .

(٧) فأثبت في مستنقع الموت رجله : أدرك أنه مقتول لأنه وحده والأعداء كثيرون ، فصمم على أن يموت وهو يقاتل . وقال ، يا رجلي ، الحشر (البعث من الموت ودخول الجنة) تحت باطنك : قريب جداً .

(٨) غدا غدوة (هجم هجمة واحدة). والحمد نسج ردائه (لأنه كان مخلصاً في هجمته جاداً —

تردّى ثيابَ الموتِ حُمراً ؛ فما دجا
لها الليل إلاّ وهي من سُنْدسٍ خُضر[1] .

* * *

كأنَّ بني نَبْهانَ ، يومَ وفاته ، نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدر[2] .
يُعَزَّوْنَ عن ثاوٍ تُعَزَّى به العُلا ، ويبكي عليه البأسُ والجود والشعر[3] .
وأنّى لهم صبرٌ عليه ؟ وقد مضى الى الموتِ حتّى استُشهِدا ، هو والصبر[4] .
فتىً كان عذبَ الرُّوحِ لا من غَضاضةٍ ، ولكنَّ كِبْراً أنْ يُقال به كِبر[5] .
فتىً سلبته الخيلُ ، وهو حِمىً لها ؛ وبزّته نارُ الحرب ، وهو لها جمر[6] .

ـ فلم ينصرف (لم يتوقف عن هجمته) إلا وأكفانه الأجر (إلا لما مات ونال أجر شهيد في سبيل الله ، والشهادة في سبيل الله تدخل صاحبها إلى الجنة) .

(١) تردى ثياب الموت حمراً : مات مقتولا (صبغ الدم الأحمر ثيابه) . دجا لها الليل : اسود الليل لها : جاء عليها الليل (لما صار الليل) . ألا وهي من سندس خضر : الا أصبحت من حرير أخضر (دخل الجنة لأنه مات شهيداً) . والثياب السندس الخضر من لباس أهل الجنة (سورة الكهف ١٨ : ٣١) .

(٢) بنو نبهان قومه . كأنهم نجوم فقدت بدرها (أشدها نوراً : أعظمها) . يحسن أن نفهم هذا البيت فهما بلاغياً لا فهماً فلكياً ، لأن البدر إذا غاب عن السماء كانت النجوم أشد لمعاناً .

(٣) ثاو : مدفون (ميت) . البأس : القوة والشجاعة في الحرب . جعل الناس يعزون به قومه . والصحيح أن الشجاعة والكرم والشعر (الذي فقد أعظم الممدوحين وأكرمهم) يجب أن تعزى به لأن موته كان مصيبة على هذه أكبر من المصيبة على أهله .

(٤) وكيف يستطيع أهله أن يصبروا عليه (يسلونه ، ينسون المصاب به) وقد مات الصبر معه في المعركة . قد مضى إلى الموت : ذهب وهو عازم على أن يموت .

(٥) عذب الروح : حسن المعاشرة متواضعاً . غضاضة : ذل وضعف في النفس . ولكن كبراً أن يقال به كبر : كانت نفسه تأبى عليه أن يقال عنه أنه متكبر فيتواضع قصداً ومن عند نفسه اختياراً .

(٦) سلبته الخيل : سلبته خيل العدو روحه (قتلته) . وهو لها حمى : كانت الخيل في الحرب تحتمي به . بزته (غلبته) نار الحرب ، وهو لها جمر (هو الذي يسعر الحرب ، ولولاه لما كانت حرب) .

وقد كانت البيضُ المآثيرُ في الوغى بواترَ ، فهي الآنَ من بعده بُـتر[1] .

أمِنْ بعد طيِّ الحادثاتِ محمداً يكونُ لأثواب النّدى أبداً نشر[2] ؟

اذا شجرات العُرف جُذّت أصولُها ، ففي ايِّ فرعٍ يُوجد الوَرَق النّضر[3] ؟

لئن أبغضَ الدهرُ الخؤونُ لفقْده ، لَعهدي به ممن يُحبّ له الدهر[4] .

لئن غدرَت في الرّوع ايامُه به فما زالت الأيام شيمتُها الغدر[5] .

لئن ألبست فيه المصيبةَ طيّءٌ ، فما عَريتْ منها تميمٌ ولا بكر .

كذلك ما ننفكّ نفقدُ هالكاً يشاركُنا في فقْده البدْوُ والحضْر[6] .

سقى الغيثُ غيثاً وارتِ الأرضُ شخصَه ، وإن لم يكن فيه سَحابٌ ولا قطر[7] .

وكيف احتمالي للغُيوثِ صنيعةً بإسقائها قبراً وفي لَحْده البحر[8] ؟

مضى طاهرَ الأثواب ، لم تَبقَ روضةٌ غداةَ ثوى الا اشتهت أنها قبر .

---

(١) البيض : السيوف . المآثير جمع مأثور : الذي في متنه علامة (دالة على جودة صنعه ، أو أنه ملك لقوم معينين فهم يتوارثونه لجودته) . بواتر : قاطعة ، ذات فعل في الأعداء (لأنه هو الذي كان يضرب بها في الحرب) . فهي الآن من بعده بتر (جمع أبتر) : مقطوعة ، مفلولة (إذ ليس في الناس بعده من يحسن القتال بها مثله) .

(٢) الحادثات : الاحداث العظام ، المصائب . طي الحادثات محمداً : اخفاؤه ، قتله . أثواب الندى : الكرم . نشر : اظهار (ليس بعد محمد بن حميد من يدعى كريماً جواداً بحق) .

(٣) اذا قطعت الشجرة من كعبها ييبس الورق في جميع أغصانها (محمد بن حميد كان شجرة الجود ، وجميع الاجواد كانوا فروعاً من تلك الشجرة ، فلما مات هو ذهب الكرم منهم أيضاً) .

(٤) اذا كنا الآن نبغض الدهر لأنه خانه وغدر به وقتله ، فلقد طالما كنا نحب الدهر لأنه جاء به الى الدنيا .

(٥) الروع : الحرب .

(٦) يشاركنا في فقده : يشاركنا في الحزن عليه .

(٧) الغيث الاولى : الماء الساقط من الغيم . والغيث الثانية : الرجل الكريم . وارت : سترت . شخصه : شبحه ، صورته المادية . وان لم يكن فيه (في الغيث الثاني) سحاب (برق ورعد) ولا قطر (ماء حقيقي) .

(٨) الاحتمال : الامكان . صنيعة : فضل . - كيف يمكن للغيوم (الامطار الحقيقية) أن تسقي قبراً فيه بحر . البحر : الرجل الجواد الكريم .

ثوى في الثّرى من كان يحيا به الثّرى ، ويغمُرُ صرفَ الدهر نائلُه الغَمْرُ [1].
عليك سلامُ الله وقفاً ، فإنني رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليسَ له عُمْرُ [2].

(١) ثوى في الثرى : مكث في التراب ، دفن . الثرى الثانية : التراب الذي ينبت فيه النبات . صرف الدهر : مصائب الدهر . النائل العطاء . الغمر : الكثير الذي يغرق كل شيء في نفسه . – كان عطاؤه وإحسانه يغمران الفقر والمصائب حتى تختفي المصائب ويختفي الفقر .
(٢) وقفا : عليك وحدك .

مديح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي الحَميدي

كان ابو سعيد الثغري هذا من الشجعان والقوّاد في أيام المعتصم ، ومن قوّاد حُميد الطوسيّ . وقيل له أيضاً المروزي لأنه كان من أهل مرو . غير أنه اشتهر بلقب الثغري لأنه لزم الحرب في الثغور ، في الشام وخراسان ، فيما أحسب . وهو عربي من طيّ .

أما هذه القصيدة التي مدحه أبو تمّام بها فقد قيلت — فيما يبدو — بعد مقتل محمّد بن حميد ، كما نلاحظ في البيت العاشر ، وقبل مقتل بابك الخرّمي ، كما نرى في البيت الحادي والعشرين وفي الابيات التي تليه .

غدت تستجيرُ الدمعَ خوفَ نوى غدٍ ،	وعاد قَتادا عندها كلُّ مرقَدِ [1] .
وأنقذهــا من غَمرةِ الموتِ أنــه	صدودُ فراقٍ لا صدودُ تعمُّدِ [2] .
فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً مُورَّداً ،	من الدَّمِ ، يجري فوق خدّ مورّدِ [3] .
هِيَ البدرُ يُغنيها تودّدُ وجههــا	الى كلِ من لاقت، وان لم تَوَدّدِ [4] .

---

(١) غدت (نهضت باكراً) تستجير الدمع (تستنجد بالدمع : تبكي) خوف نوى غد : خوفاً مما سيجره عليها الفراق في اليوم التالي (في يوم قريب) . القتاد : شوك . وأصبح كل فراش لها شوكاً (امتنع عليها النوم من الحزن) .

(٢) ولكن الذي انقذها من الموت (حزناً) أن صدود المحب (ابتعاده عنها وفراقه لها) كان اضطراراً ولوقت قصير ، لا هجراً مقصوداً دائماً .

(٣) أجرى الاشفاق (الخوف من الفراق) دمعاً ممزوجاً بالدم (غزيراً مؤلماً) فوق خدها المورد (الجميل) .

(٤) التودد : التحبب الى الناس . وجهها جميل يحبها الناس لجماله من غير أن تتكلف هي التحبب اليهم .

ولـكنّني لم أحوِ وَفراً مجمّعاً ، ففزتُ به ، الا بشَمل مُبـدَّد [١] .
ولم تُعطني الأيامُ نومـاً مُسكّناً ألَذُّ به ، الا بنومٍ مشرَّد [٢] .
وطولُ مُقام المرءِ في الحيّ مُخلِق لديباجتيه ، فأغترِبْ تتجدَّد [٣] .
فاني رأيتُ الشمسَ زِيدت محبةً الى الناس ، ان ليست عليهم بسَرمَد [٤] .
حلفتُ بربِّ البيضِ تدمى متونُها ، وربِ القنا المُنآدِ والمتقصَّد [٥] :
لقد كفَّ سيفُ الصامتيِّ محمدٍ تباريحَ ثأرِ الصامتيِّ محمد [٦] .
رمى الله منه بابكاً وولاتَه بقاصمةِ الأصلاب في كل مشهد [٧] :
باسمَحَ من صَوبِ الغَمام سماحةً ، وأشجَعَ من صَرف الزمان وانجد [٨] .
اذا ما دَعَوناه بأجلحَ أيمنٍ دعاه ، ولم يَظْلِمْ ، بأصلعَ أنكد [٩] .

(١) الوفر : الغنى . المبدد : المفرق . — لا يستطيع الانسان ان يجمع ثروة الا اذا فارق أهله ووطنه .
(٢) ولا أستطيع أن أنام مرة نوماً هادئاً هانئاً مريحاً الا اذا كنت قد قضيت قبل ذلك ليالي (وقتاً طويلا ، مراراً) لا أذوق فيها النوم (لسفري المتواصل الشاق) .
(٣) ان طول مكث المرء في بلده يجعل العيون تألفه فيبطل اهتمام الناس به ، فتغيب عن بلدك مدة ، فانك اذا رجعت بعد ذلك اهتم بك أهل بلدك (لأنك ستبدو لعيونهم كأنك شخص جديد عليهم) . الديباجتان : الخدان .
(٤) السرمد : الدائم . — الناس يحبون الشمس لأنها تغيب وتطلع ، ولأن غيوم الشتاء تسترها حيناً فيتشوق الناس اليها والى حرارتها .
(٥) البيض : السيوف . تدمى متونها : يجري الدم على جوانبها (لكثرة الضرب بها في الحرب) . القنا : الرماح . المنآد : المنحني (لأن الرمح الجيد لين ، فاذا طعن به شيء قاس ، كالدرع مثلا فانه ينحني) . المتقصد : المتكسر (اذا زاد انحناء الرمح من الطعن فانه ينكسر) .
(٦) الصامتي محمد الاول : أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي ، وهو من بني الصامت . الصامتي محمد الثاني : محمد بن حميد ، وهو منسوب الى بني الصامت أيضاً . — انتصر أبو سعيد الثغري على بابك الخرمي فأخذ بثأر محمد بن حميد الذي كان قد قتل في حرب بابك .
(٧) الولاة : الانصار والاتباع . قاصمة الظهر : المصيبة العظيمة . المشهد (هنا) : الموقعة ، المعركة .
(٨) السماحة الكرم . أشجع من صرف الزمان : لا يهاب شيئاً ولا يجبن عن خطر . أنجد : عظيم النجدة (الاسراع الى معونة الذين يطلبون معونته) .
(٩) الجلح : انحسار الشعر عن مقدم الرأس خلقة ، وكان محموداً عند العرب يتفاءلون به . والصلع =

فتىً يوم بذَّ الخُرَّميّة لم يكن   بهيّابةٍ نِكسٍ ولا بمعرَّدِ[1] ،
قفا سندبايا والرماحُ مُشيحةٌ   تُهدّى الى الرّوح الخفيِّ فتهتدي[2] .
عدا الليلُ فيها عن معاويةَ الرَّدى ،   وما شكَّ ريبُ الدهرِ في أنه رَدِي[3] .
لعمري ، لقد حرّرتَ يوم لِقائهِ ،   لو أنّ القضاءَ وحدَهُ لم يُبرِّدِ[4]
فإنْ يكنِ المقدارُ فيه مُفنَّداً ،   فما كان في أشياعِه بِمُفنَّدِ[5] !
وفي ارشقِ الهيجاءِ ، والخيلُ ترتمي   بأبطالها في جاحمٍ متوقّدِ[6] ،

= سقوط الشعر من معظم الرأس ، وكان مذموماً ويتشاءمون به . – نحن كنا ندعو أبا سعيد الثغري « أجلح » تيمناً بذلك (وكنا على حق لأن أبا سعيد انتصر على بابك وأتباعه ورد عن المسلمين هزائم كثيره) . وكان أعداؤه (أتباع بابك وأنصاره) يدعونه « أصلع » تشاؤماً بصلعه ، وكانوا أيضاً على حق لأنه هزمهم وقضى على آمالهم .

(1) بذ : غلب . الخرمية : أصحاب بابك . الهيابة : الكثير الهيبة (الخوف) لغيره . النكس : الضعيف . المعرد : الهارب (ليبتعد عن الاخطار) .

(2) قفا : خلف ، وراء (لعلها فعل ماض) . سندبايا : موضع في أذربيجان بالبذ . المشيح : المقبل عليك المانع لما وراء ظهره (كناية عن جرأة الهاجمين وكثرتهم) . تهدى (الرماح ، أي تصوب ، يشار بها) الى الروح (الى نفس المحارب حيث مقتله) . الخفي : الغائب ، المستور المختفي (وراء جدار أو في درع ، وبشجاعة صاحبه) . فتهتدي : تصيب (المقتل) وتقتل (كناية عن بصر أولئك المقاتلين بالحرب وتمرنهم عليها) .

(3) عدا الليل فيه عن معاوية الردى : صرف الليل في سندبايا الموت عن معاوية (هرب معاوية من معركة سندبايا مستتراً بظلام الليل فنجا من القتل) . معاوية (= بابك ؟) . وماشك ريب الدهر في أنه ردي : وما كان ريب الدهر (شدة تلك المعركة) يشك في أنه سيقتل في تلك المعركة .

(4) لعمري : أقسم بعمري (بديني) . لقد حررت (لقد كان بامكانك أن تقتله وتجعل في قلوب أتباعه حرارة ، أي حزناً عليه) يوم لقيته (في معركة سندبايا) . لو أن القضاء (علم الله السابق بطول حياة بابك) وحده (ولا شيء آخر غير القضاء والقدر) لم يبرد (لم يدخل البرد أو الاطمئنان على قلوب أتباعه لأنه نجا من القتل المنتظر له في تلك المعركة) .

(5) اذا كان حسابنا نحن للقضاء والقدر (في مقتل بابك) مفنداً (خاطئاً) ، فان حسابنا في ذلك وفيما يتعلق بأشياع (بجنود) بابك لم يكن مفنداً .

(6) أرشق : حصن للمسلمين خرج اليه بابك ليسطو على مال كان الخليفة المعتصم قد أرسله الى الافشين (ان معرفة بابك بمجيء ذلك المال من الادلة على أن الافشين كان يمالىء بابك ، وذلك مما دعا

عطَطتَ على رَغم العِدا عزمَ بابَكٍ   بعزمك عطَّ الأتحميِّ المعضَّد [١]
فإلاّ يكن ولّى بشِلو مقدَّد   هناك ، فقد ولّى بعزم مقدَّد [٢] .
وقد كانتِ الارماحُ أبصرْنَ قلبَه ،   فأرمدها سترُ القضاء الممدَّد [٣] .
وموْقانُ كانت دارَ هجرته ، فقد   توردتَها بالخيل كل تورُّد [٤] .
حططتَ بها ، يومَ العروبة ، عزه ؛   وكان مُقيماً بين نسر وفرْقَد [٥] .
رآك سديدَ الرأي والرمح في الوغى ،   تأزَّرُ بالإقدام (فيها) وترتدي [٦] .

ـ المعتصم الى أن يرسل أبا سعيد الثغري الى حرب بابك عوناً للافشين في الظاهر ورقيباً عليه في الحقيقة . أرشق الهيجاء على الاضافة للمبالغة في شدة المعركة التي دارت حول أرشق . الجاحم : الجحيم (النار العظيمة اذا كانت في مهواة أو مكان منخفض ، المكان الشديد الحر) . المتوقد : الشديد الاشتعال مع خروج لهب منه .

(١) عط : شق . الاتحمي : الثوب المخطط (المنسوج بخيوط تختلف قوة) . المعضد : الملموح أنه الثوب الذي فيه خطوط نافرة في أصل نسجه . - يقول أبو تمام : « وفي معركة أرشق شققت عزم بابك (كسرت قوته المعنوية) بعزمك أنت ، على رغم العدا (على كثرة أتباعه) شق الاتحمي المعضد (كما يشق الثوب المخطط في أصل نسيجه، أي بسهولة) .

(٢) الشلو : كل جسم قطع منه شيء وبقيت منه بقية . مقدد . مقطع . هناك (أي في معركة أرشق). - فالا (ان لا) يكن ولى (مات ، قتل) بشلو مقدد (بجسم مقطع في المعركة) فقد ولى (انهزم) بعزم مقدد (بهمة مكسورة لا يفكر ان يعود بعدها الى قتالك) .

(٣) وكانت رماح المسلمين قد أبصرت قلب بابك (صوبت الى مقتله) ، ولكن القضاء (طول عمر بابك المكتوب له في سابق علم الله) أرمد عيون تلك الرماح (جعلها مريضة رمداء لا تبصر ، اذ حال قضاء الله بين تلك الرماح وبين قلب بابك كأنه ستر حاجز) .

(٤) موقان : مكان في أرمينية . دار هجرته : المكان الذي هاجر (ابتعد اليه) حتى لا يصل اليه أحد . توردتها بالخيل : دخلت اليها بخيل كثيرة من كل جانب .

(٥) حططت عزه : خفضت عزه ، أنزلته من أعلى الى أسفل . يوم العروبة : يوم الجمعة . وكان (عزه من قبل) بين نسر وفرقد (النسر والفرقد نجمان في السماء) ، أي في مكان مرتفع لا يصل اليه أحد .

(٦) سديد الرمح : بارع في الاصابة بالرمح . تأزر بالاقدام وترتدي : تلبس الاقدام ازارا ورداء (كناية عن اقدامه وجرأته في كل موقف من مواقف الحرب) .

وليس يُجلّي الكربَ رمحٌ مُسدَّد | اذا هو لم يُؤنس برأي مسـدَّد[1] .
فمرَّ مُطيعـاً للـعوالي : معوَّداً | من الخوف والإحجام ما لم يعوَّد[2] .
وكان هو الجلدَ القُوى ؛ فسابتَه ، | بحسن الجلاد المحض، حُسنَ التجلُّد[3] .
لعَمْري ، لقد غادرتَ حِسْيَ فؤاده | قريبَ رِشاءٍ للقَنا سهلَ مَوْرِد[4] .
وكان بعيدَ القَعْرِ من كلِّ ماتـحٍ ، | فغادرتَهُ يُسقى ويُشربُ باليد[5] .
ولِلكَذَجِ العُليـا سمت بك هِمةٌ | طموحٌ يروحُ النصرُ فيها ويغتدي[6] ؛

---

(١) يجلي : يجلو ، يكشف . الكرب : الغم ، الشدة . رأي مسدد (مصيب) — اذا كان هذا الرأي المصيب لا يصحبه رمح مصيب (معرفة بالحرب) —.

(٢) مر : جاز وذهب (فر ، هرب على وجهه) مطيعاً للعوالي (الرماح) : كأن الرماح حينما أشارت الى قتله (ولم يكن عمره قد نفد بعد) قد أمرته بالفرار ففر . ثم ان هذه المعركة قد علمته الخوف من الحرب والاحجام (التأخر في مجال الحرب) وعودته ذلك كله ، ولم يكن من قبل يعرف شيئاً من ذلك .

(٣) الجلد : الشديد ، الصبور . الجلاد : القتال والثبات فيه . التجلد : التصبر ، الصبر على المكروه . سلبته حسن التجلد : جعلته لا يكتم خوفه وذعره .

(٤) الحسي : الماء القليل في منخفض يسير من الرمل . حسي فؤاده : ماء فؤاده (دم قلبه ، روحه) . قريب رشاء : يستقى منه برشاء (حبل) قصير . سهل مورد : يسهل على جميع الناس أن يستقوا منه (أن يقتلوا بابك) . — أصبح بابك مما أدخلت على قلبه من الخوف عاجزاً عن صد كل هاجم عليه .

(٥) بعيد القعر : عميق . الماتح : الذي يمتح (يسحب الماء من البئر بالحبل) . كان بابك من قبل منيعاً لا يصل أحد اليه ، كما لا يستطيع أحد أن يسحب الماء بالدلو من البئر العميقة جداً . فجعلته أنت قريباً هيناً على كل هاجم كأنه ماء على ظاهر الأرض يشرب الناس منه بأكفهم (من غير حاجة الى دلو وحبل) .

(٦) الكذج تعريب كده (من الفارسية) . كده (بفتح الكاف والدال) : البيت المنزل ، الكهف القرية . وقد تضاف الى اسم فيقال آتش كده : بيت النيران (معبد الفرس القديم) . وقياساً على ذلك نقول بابك كده : بيت بابك ، قلعة بابك ، عاصمة بابك ، الخ . ويفهم من البيت « وللكذج العليا ... » أن بابك كان له عدد من الحصون ، وأن أبا سعيد الثغري استولى على القلعة العليا أيضاً .

وقدخزَمتَ بالذُلِّ أنفَ ابنِ خازمٍ ، وأعيَتْ صياصيها يزيدَ بنَ مزيدٍ[1] ؛

فقيدتَ بالإقدام مُطلَقَ بأسهم ، وأطلقت فيهم كل حتفٍ مقيَّدِ[2] ؛

وبالهَضْبِ من أبرَشْتَويمَ ودَرْوَزٍ سمت بك اطراف القنا ، فاسْمُ وازدد[3] .

افادتك منها المُرهَفاتُ مكارماً تُعمَّرُ عُمْرَ الدهر ، إن لم تخلَّدِ[4] .

وليلةَ أبليتَ البَياتَ بَلاءه من الصبر في وقت من الصبر مُجْحِدِ[5] .

فيا جولةً ، لا تَجحديه وقارَه ؛

ويا سيفُ ، لا تكفُرْ ؛ ويا ظُلمةُ ، أشهدي[6] .

---

(١) خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد : قائدان عباسيان كانا في المشرق أيضاً . الصياصي جمع صيصة : الحصن . خزم : علق الخزامة (بكسر الخاء : حلقة من الحديد أو الجلد أو الشعر تعلق في أنف البعير أو غيره من الحيوان لجره بها اذا كان شموساً) . — لم يستطع خزيمة بن خازم ولا يزيد بن مزيد أن يفتحا الكذج ، وقصدها خزيمة بن خازم فرجع منها مقهورا .

(٢) جرأتك عليهم (في عقر دارهم) قيدت قوتهم وأبطلتها ، ثم انك بثثت بها أنواع الحتوف (جمع حتف : الموت) .

(٣) الهضب : ما ارتفع من الارض ، الاراضي المنبسطة في الجبال . دروز : اسم جبل . ابرشتويم جبل بالبذ من ارض موقان من نواحي اذربيجان كان بابك يأوي اليه (ياقوت— طبعة القاهرة — ١ : ٧٤) .
سمت بك أطراف القنا : صعدت الى تلك الاماكن عنوة بالسلاح .

(٤) المرهفات : السيوف الرقيقة . المأثرة (بضم الثاء) : الفعل الجليل العظيم .

(٥) البيات : رسم خطة (سراً) لمهاجمة العدو في اليوم التالي . أبليت البيات بلاءه من الصبر : أعطيت رسم تلك الخطة حقه من الدرس والعناية والدقة ، ثم نفذت (في اليوم التالي) تلك الخطة بصبر على الحرب (بمشقة وتضحيات) . في وقت من الصبر مجحد : في وقت لا ينفع الصبر فيه . ومجحد صيغة ليست في القاموس .

(٦) الجولة : المبارزة ، الهجمة (في الحرب) . لا تجحديه وقاره : لا تنسي أنه كان وقوراً (ثقيلا : ثابتاً ، هادئاً) جداً على الرغم من الاهوال التي كانت في تلك المعركة والتي كانت تنسي الانسان وقاره (فيجزع أو يجبن أو يستسلم أو يهرب) . يا سيف لا تكفر : لا تنكر فضله ، وأنه لولا شجاعة أبي يوسف الثغري ومعرفته بأصول القتال لما كان لك فضل . الظلمة : الليل أو المعركة الشديدة القاسية كأنها ظلمة الليل . اشهدي : اشهدي له بالمقدرة والثبات الخ .

ويا ليلُ، لو أني مكانَك بعدَها ... لَما باتَ في الدنيا بنوم مُسَهَّد[1].
وقائعُ أصلُ النصرِ فيها وفرعُه ... اذا عُدِّدَ الاحسانُ أو لم يُعَدَّدِ[2].
فمهما تكن من وقعة بعدُ لا تكن ... سوى حَسَن، مما فعلت، مردَّد[3]؛
محاسنُ اصنافِ المغنِّين جمَّةٌ، ... وما قَصَباتُ السَبق الا لمَعْبَد[4].
جلَوْتَ الدجى عن أذْرِبيْجانَ بعدَما ... تردَّت بلون، كالغمامة، اربَد[5].
وكانت، وليس الصبحُ فيها بأبيضٍ، ... فأمست، وليس الليل فيها بأسود[6].
رأى بابكٌ منك التي طلَعت له ... بنحس، وللدين الحنيف بأسعُد[7].
هززت له سيفاً من الكيد، إنما ... تُجَذُّ به الاعناقُ ما لم يُجرَّد[8].
يُسِرُّ الذي يسطو به وهو مُغمَد، ... ويفضح من يسطو به غير مغمَد[9].

---

(١) يا ليل، لو أني كنت مكانك لكافأت أبا سعيد الثغري على ظفره في هذه المعركة بأن أمنحه نوماً عادياً طبيعياً لا يسهر سهراً فيه قلق أو تعب ثم جعلت ذلك له طول حياته الباقية.

(٢) ان جميع الوقائع التالية، اذا كان فيها نصر فيكون من أثر هذه المعركة، سواء أكان النصر يحدث بخطة واحدة (هي التي رتبها أبو سعيد الثغري) أو بخطط متعددة مختلفة.

(٣) وكل معركة بعد معركتك هذه سيكون النصر فيها بتكرار خطتك الحكيمة التي ابتدعتها في هذه المعركة.

(٤) للمغنين المختلفين حسنات كثيرة، ولكن معبد بن وهب المغني الاموي المشهور قد فاز في الغناء عليهم كلهم (وكذلك القواد لهم حسنات وانتصارات كثيرة في المعارك، ولكن أبا سعيد الثغري أفضلهم كلهم).

(٥) جلوت الدجى: كشفت الليل (أبعدت الخطر). تردت بلون كالغمامة أربد (كلون التراب): لبست ثوباً (من الخوف والخطر) عمها كلها كما تعم الغمامة وجه السماء.

(٦) وكانت أذربيجان تخاف بابك وأتباعه في وقت السلم، فأصبحت بفضلك لا تخافه في زمن الحرب

(٧) أدرك بابك الآن أن خطتك قد جاءت له بالنحس، وأنها قد جاءت للاسلام بالسعد.

(٣) حاربت بابك بالمكيدة التي تجذ (تقطع) أعناق الأعداء وهي مكتومة غير ظاهرة، لأنها لو ظهرت وعرفت لاحترس العدو منها فبطل فعلها.

(٩) هذا السيف (أي المكيدة) يسر صاحبه الذي يستعمله وهو مغمد (كناية عن ايفاء المكيدة سراً)، وهو يفضح صاحبه وينزل به الخيبة والضرر، اذا ضرب به غير مغمد: (اذا كان يعلن خطته في الحرب).

واني لأرجو ان تقلّد جيدَه قِلادةَ مصقول الذُّباب مُهنّد[1]
منظمةً بالموت ؛ يَحظى بحَلْيها مقلِّدها في الناس ، دونَ المقلَّد[2] .
اليك هتكنا جُنح ليل كأنه قد اكتحلت منه البلاد بإثمد[3] .
تُقلقِلُ بي أُدْمُ المهارى وشُومها على كلّ نَشْزٍ مُتْلَئِبٍ وفَدْفد[4] .
تُقلِّب في الآفاق صِلاً كأنما يُقلِّبُ في فكّيه شِفْرَةَ مِبْرَد[5] .
تَلافى جَداك المُجتدين ، فأصبحوا ولم يبق مذخور ، ولم يبق مجتدي[6] .
اذا ما رَحىً دارت أدرت ، سماحة ، رحى كل إنجاز على كل موعد[7] .

---

(١) اني آمل أن تلبس بابك الحرمي قلادة (عقداً) في جيده (عنقه) من سيفك (أن تقطع في المعركة المقبلة عنقه بسيفك) . الذباب : حد السيف .

(٢) قلادة منظمة بالموت (جعلت حباتها من أسباب الموت) ، والذي يسر بها هو الذي يقلدها (يعلقها في عنق غيره) لا الذي يتقلدها (يلبسها في عنقه) .

(٣) جئنا اليك مسافرين في قلب ليل شديد الظلمة حقيقة أو مجازاً (من حاجة الى المال الذي في يديك) . الاثمد : الكحل .

(٤) تقلقل (تتقلقل) بي: تحملني متنقلة بي في أطراف الأرض. أدم المهاري وشومها : السمر والسود من المهارى ، كما في القاموس (٢ : ١٣٧ ، السطر الخامس) . والمهار جمع مهر (بضم الميم) وهو ولد الفرس أو أول ما ينتج منه ومن غيره (كالابل مثلا) ، والمقصود هنا الابل لا الخيل . النشز : المرتفع من الأرض . المتلئب : المستقيم (صعودا ؟) . الفدفد : الفلاة (الأرض الواسعة الخالية) الغليظة .

(٥) تقلب في الآفاق (تحمل من مكان الى مكان في أطراف الأرض) صلا (داهية ، يعني أبو تمام بالصل نفسه) . يقلب في فكيه شفة مبرد (يجيل في فمه لساناً كأحد حدي المبرد ، أي لساناً قديراً حاداً) .

(٦) تلافى (تدارك ، أعان ، ساعد) جداك (كرمك) المجتدين (طالبي الجدوى : العطاء) ، حتى لم يبق (لك مال) مذخور ولم يبق مجتد (محتاج يطلب مالا) .

(٧) اذا ما رحى دارت : كلما دارت طاحون لطحن القمح وغيره(أو حرب). ادرت سماحة : وزعت المال كرماً منك في الناس (وكما أن الطاحون لاتتوقف عن طحن الحبوب ، فأنت أيضاً لا تتوقف عن بذل المال . ثم انك تعد كثيراً وتفي بجميع ما تعد ، كأنك تطحن الوعود بانجازها حالا ، كما تفعل الطاحون بالحب الذي يلقى فيها) .

اتيتكِ لم أفزَعْ الى غير مَفزَعٍ ، ولم أنشُدِ الحاجاتِ في غير مَنشَدِ [1].
ومن يرجُ معروفَ البعيد ، فانّما يدي عوَّلت — في النائبات — على يدي [2].

(١) أفزع : ألجأ . المفزع : المكان يصلح لأن يلجأ الناس اليه . أنشد : أطلب . المنشد : المكان الذي يمكن فيه تحقيق الحاجات .

(٢) واذا كان الانسان يطلب المعروف من شخص بعيد (ليس بينه وبين ذلك الشخص قرابة أو معرفة) ، فان احدى يدي قد عولت (اعتمدت) على يدي (الاخرى) فطلبت منها (أنت طائي وأنا طائي مثلك ، فأنا اذن لا أطلب من أحد غريب) .

مديح أبي دُلَف القاسم بن عيسى العجلي

هو من قُوّاد المأمون والمعتصم . كان كريماً وشجاعاً ، وكان أديباً مُؤلِّفاً (ت ٢٢٥هـ = ٨٤٠ م) .

على مثلها : من اربُعٍ وملاعبٍ ، أُذيلتْ مصونات الدموعِ السواكب [١] .

اقول لقُرحانٍ من البَيْنِ ، لم يُضِفْ رسيسَ الهوى بين الحشا والترائب [٢] :

وأعِنّي أفرّقْ شملَ دمعي ؛ فانني أرى الشملَ منهم ليس بالمتقارب [٣] .

فما صار ، في ذا اليوم ، عذلُك كله عدوّيَ ، حتى صار جهلُك صاحبي [٤] .

وما بك إركابي من الرشدِ مركباً ألا إنما حاولتَ رُشدَ الركائب [٥] .

---

(١) الربع : المنزل . الملعب : المكان تدرج فيه الريح تمر عليه وتتركه . أذيلت : أهينت . — على مثل هذه الربوع (المجيدة) يحسن أن تذرف الدموع الكثيرة التي قد خزنت في الجفون مدة طويلة .

(٢) القرحان : الذي لم يصبه مرض . قرحان من البين : لم يذق البين (البعاد) . الرسيس : أول الحب . لم يضف رسيس الهوى : لم ينزل الحب بعد ضيفاً عليه (لم يعرف الحب بعد) . الحشا : الجوف . الترائب : عظام الصدر .

(٣) أفرق شمل دمعي : أنثر دموعي المجتمعة (أبكي) . منهم : من الاحباب .

(٤) العذل : اللوم . — لما أكثرت عذلي على حبي ظننتك عدوي حتى تبين لي أنك جاهل بأمري وأمر الحب فعذرتك (كان جهلك صاحباً لي فشفع بك الي) .

(٥) الركائب : الحيوانات المستعملة في الركوب . — ان لومك لي ليس حباً بي ومحاولة لردي عن الغي (في مثل هذا الحب) الى الرشاد (الى الرجوع الى العقل والمنطق) ، ولكنك أشفقت على الركائب التي طال وقوفها في هذه البادية ، فأنت قائد أبل ولست هادي بشر !

فكِلْني الى شوقي، وسِرْ بِسَيرِ الهوى ... الى حُرُقاتي بالدموع السوارب [١].

أمَيْدانَ لهوي . من أتاح لك البِلى ... فأصبحت ميدانَ الصَّبا والجَنائبُ [٢] ؟

اصابتك ابكارُ الخُطوب ؛ فشتَّتت ... هوايَ بأبكارِ الظِباء الكواعب [٣] ؛

• • •

وركبٍ يُساقون الرِكابَ زُجاجةً ... من السير ، لم تَقْصِدْ لها كفَّ قاطب [٤] .

فقد أكلوا منها الغواربَ بالسُّرى ؛ ... وصارت لها أشباحُهم كالغوارب [٥] .

يُصرِّفُ مَسراها جُذَيلُ مَشارقٍ ... — إذا آبَهُ هَمٌّ — عُذَيقُ مَغارب [٦] .

---

(١) اتركني وشوقي وسر أنت بالابل ، فان الهوى حينئذ يحملني على البكاء الكثير فتسقط الدموع على حرارة حبي فتخففها (ان الحب الذي هو سبب حرقاتي سيكون أيضاً سبب الدموع التي ستطفيء تلك الحرقات) .

(٢) ميدان لهوى : مسكني في أيام شبابي . أتاح : سبب . البلى : الخراب والهجر . الصبا : الريح الشرقية . الجنائب جمع جنوب (بفتح الجيم) : ريح الجنوب .

(٣) أبكار الخطوب : المصائب البكر (التي لم يوجد مثلها في الأرض بعد) . شتتت : أبعدت ، نفرت عني ، أبكار جمع بكر : العذراء . الظباء : الغزلان (كناية عن النساء الجميلات) . الكاعب : الفتاة اذا كعبت (اذا نهد ثدياها واستدارا) .

(٤) ركب : جماعة يركبون الابل ويسافرون معاً . يساقون الركاب (الابل) زجاجة من السير : يسقونها مرة بعد مرة (يسوقونها باستمرار ويجهدونها) حتى كأنها من الجهد والتعب سكرى . لم تقصد لها كف قاطب : لم تمزج تلك الخمر بالماء (لم يرح اولئك المسافرون ابلهم في أثناء تلك الرحلة) .

(٥) الغارب : سنام الجمل . السرى : السفر في الليل . الشبح : الخيال ، صورة الشخص (اذا رؤي الشخص من بعيد فانه يظهر صغيراً غير واضح) . — أكلوا منها الغوارب بالسرى : أجهدوها بكثرة السفر والسير حتى ذابت أسنمتها (فكأنهم قطعوا أسنمتها وأكلوها) . وصارت لها أشباحهم (لأنهم هم أيضاً نحلوا من كثرة السفر وشدة التعب) كالغوارب : أصبحوا كأنهم أسنمة الابل .

(٦) يصرف مسراها : يقودها في طرق الاسفار الطويلة الصعبة المضللة . جذيل (رجل كثير الاسفار احتك بالبلدان وخبر طرقاتها وعاداتها (والتصغير في « جذيل » للتعظيم) مشارق (من السفر في المشارق) . عذيق : رجل نحيل من كثرة الاسفار يشبه العلق (النخلة

يرى بالكِعابِ الرَّوْدِ طَلعةَ ثائـرٍ وبالعِرْمِسِ الوَجْناءِ غُرّةَ آيبِ[1].
كأن به ضِغْناً عـلى كل جانبٍ من الأرض، او شوقاً الى كل جانبِ[2].
اذا العِيسُ لاقتْ بي أبا دُلَفٍ، فقد تقطّع مـا بيني وبين النوائبِ[3].
هنالك تلقى المجدَ حيثُ تقطعت تمائمُهُ، والجودَ مُرخى الذوائبِ[4].
تكاد عطاياه يُجَنُّ جنونُهـا، اذا لم يعوّذْها بنغمة طالبِ[5].
اذا حرّكته هِزّةُ المجد غيّرت عطاياه اسماءَ الأماني الكواذبِ[6].
تكاد مغانيه تَهِشُّ عِراصُها، فتركبُ، من شوق، الى كل راكبِ[7].

يحملها : هو نخيل كالنخلة ولكن له رأياً جميلا مفيداً كثمر النخلة) . اذا آبه هم : اذا حزبه أمر ، اذا فاجأه أمر ثم اشتد وصعب المخرج منه .

(١) الكعاب : الكاعب (الحاشية ٣ من ص ١٦٧) . الرود : اللينة الناعمة . طلعة ثائر : هجوم رجل ثائرعليه (هو يكره الحسناء كما يكره الذي يهجم عليه ليقاتله ، لأن حب المرأة الحسناء يغري الانسان بالبقاء في الوطن وترك السفر) . العرمس : الناقة الصلبة . الوجناء : الشديدة . غرة آيب : قدوم رجل من سفر (يحب رؤية الناقة الشديدة لأنها وسيلة السفر ، يحب السفر كثيراً) .

(٢) كأن به ضغناً (حقداً) على كل مكان هو فيه فيريد أن يتركه ؛ وكأن به شوقاً (حباً) الى كل مكان فهو يريد أن يذهب اليه .

(٣) العيس : النياق . النوائب : المصائب . — اذا وصلت الى أبي دلف فانني أتخلص مـن المصائب (لا يبقى للمصائب علي طريق : انه يزيل المصائب عني بكرمه) .

(٤) تقطعت تمائمه : اصبح ناشئاً قد جاوز حد الطفولة (لأن العادة كانت أن تعلق التمائم — الاحجبة — في رقاب (الأطفال) . مرخى الذوائب : شاب وافي الشباب . — يقصد أن الممدوح كان كثير الجود أثيل (قديم) المجد .

(٥) لا يكون مسروراً الا اذا جاء من يطلب رفده ، ولا ترضى عطاياه (أو لا يرضى عطاياه) الا وهو يرجو من السائل قبولها .

(٦) اذا طرب عند مدحه بمجده القديم أعطى المادح مبالغ جسيمة (قد يمني المادح نفسه أمنية : نصف مليون ، مليون ... ، ثم يرى أن ذلك من كذب الأماني : غير معقول) . بعدئذ يجد أن الممدوح قد أعطاه أكثر مما كان قد تمنى، فكأن الممدوح قد بدل اسم الاماني الكاذبة باسم الأماني الصادقة .

(٧) المغنى : الدار ، المنزل . هش : ظهر البشر (السرور) على وجهه . العرصة : ساحة

اذا ما غدا أغدى كريمةَ ماله هَدِيّاً ، ولو زُفّتْ لِألأمِ خاطبِ [1] .

يرى اقبحَ الاشياء اوبةَ آملٍ كستْه يدُ المأمول حُلّةَ خائبِ [2] .

واحسنُ من نَوْرٍ ، تفتّحه الصَّبا ، بياضُ العطايا في سوادِ المطالبِ [3] .

اذا ألجمت يوماً لُجَيْمٌ ، وحولَها بنو الحِصن نجلُ المُحْصَناتِ النجائبِ [4] ،

فان المنايا والصوارمَ والقنا اقاربُهم ، في الرَّوْعِ ، دون الأقاربِ [5] .

جحافلُ لايترُكْنَ ذا جبريّةٍ سليما ، ولا يحربْنَ من لم يحاربِ [6] .

يَمُدّون من ايدٍ عَواصٍ عواصمٍ تصول بأسياف قواضٍ قواضبِ [7] .

اذا الخيلُ جابت قسطلَ الحربِ صدّعوا صدورَ العوالي في صدور الكتائبِ [8] .

---

(١) غدا : خرج من بيته باكراً . أغدى : أخرج . كريمة ماله : أفضل ماله . هدي : عروس . -يبكر في كل يوم بالخروج من بيته ويهدي (يزوج ، يعطي) أفضل ماله لأي طالب يسأله ، ولو كان ذلك الطالب لئيماً وليس كفؤاً لماله (شبه المال ببنت الممدوح والسائل بالخاطب الطالب الزواج) — ألزم نفسه الجود في كل يوم لكل انسان اتفق .

(٢) أقبح شيء لديه أن يرجع قاصده خائباً .

(٣) وأن الذي هو أحسن وأجمل من تفتح الزهر في أيام الربيع الشرقية العليلة اعطاء المال الكثير لصاحب الحاجة الشديدة .

(٤) اذا ألجمت : اذا ألجمت خيولها (استعدت للحرب) . لجيم : بنو لجيم بن صعب بن علي ابن بكر بن وائل (قوم أبي دلف العجلي الممدوح بهذه القصيدة). بنو الحصن نجل المحصنات : ولد المحصنات (العفيفات) . النجائب جمع نجيبة : الكريمة الأصل الحسيبة (ذات الاعمال الكريمة) والتي تنجب (بضم التاء) : تلد الأولاد النجباء .

(٥) المنايا (جمع منية : الموت) والصوارم (جمع صارم : السيف) والقنا (جمع قناة : الرمح) ، ان هذه الاسلحة تكون مع بني لجيم يوم الروع (في الحرب) أو أن هذه هي أقارب بني لجيم في الحرب دون اقاربهم في النسب .

(٦) الجحفل : الجيش العظيم . الجبرية : الكبر (بكسر الكاف) والتجبر . سليماً : معافى . يحربن من لا يحارب : لا يسلبن (يأخذن) مال من لا يحاربهم .

(٧) عواص : منيعة (تدافع عن نفسها) . عواصم : موانع (تحمي غيرها) . قواض : قاتلة . قواضب : قاطعة (ومعنى قواض ومعنى قواضب متقاربان) . صال : هجم .

(٨) جابت : جالت ، شقت . قسطل الحرب : غبار الحرب . صدعوا : كسروا . صدور العوالي : رؤوس الرماح . صدور الكتائب : صفوف الجيوش .

اذا افتخرت ، يوماً ، تميمٌ بقوسِها ... وزادت على ما وطّدت من مناقب [1] ؛
فأنتم ، بذي قارٍ : أمالت سيوفكم ... عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب [2] .
محاسنُ من مجدٍ ، متى تَقرِنوا بها ... محاسن اقوام تكــنْ كالمعائب .
معالٍ تمادت في العلــو كأنمـا ... تحاول ثأراً عند بعض الكواكــب .
وقد علِم الأفشينُ ، وهو الذي به ... يُصان رِداءُ الملك عن كــل جاذب [3] ،
بأنك لما استخذل النصرُ واكتسى ... أهابيّ تَسفي في وجوه التجارِب [4] .
تجلّلتَه بالرأي حتى أريْتَهُ ... به ، مِلءَ عينيه ، مكان العواقب [5] ؛

(١ و ٢) وطد : ثبت . المناقب : الخصال الحميدة . ذو قار موقع في أدنى العراق وقعت فيه معركة بين العرب والفرس فانتصر العرب على الفرس عام ٦١٠ م (أول سنة من بعثة محمد رسول الله) . أمالت عروشهم : قضت على ملكهم .

قصة تميم وعجل في البيتين :

كان حاجب بن زرارة بن عدس (بضم العين والدال) قد نزل بقومه في أرض الحيرة . فاستدعى كسرى وفداً من بني تميم وشرط عليهم في سبيل بقائهم حيث نزلوا ألا يعتدوا على أحد من جيرانهم ، وطلب منهم على ذلك رهناً . فدفع حاجب بن زرارة قوسه رهناً على ذلك . وقد قبل كسرى القوس رهناً ، ووفى بنو تميم لكسرى بما كان قد شرطه عليهم ، وصار ذلك معدوداً في مناقب بني تميم .

ولما اجتمع العرب في ذي قار لمحاربة الفرس خاف بعض العرب من خوض معركة مع الفرس وأرادوا أن يفروا . غير أن حنظلة بن ثعلبة العجلي نصب خيمة وجلس قربها ثم قال : لا أفر حتى تفر هذه الخيمة . فعاد الناس كلهم وحاربوا الفرس وانتصروا عليهم . ثم جاء الاسلام وقضي على ملك الفرس .

(٣) الافشين هو حيدر بن كاوس أحد قواد الخليفة المعتصم . به يصان رداء الملك عن كل جاذب : به يدفع الثائرون على الدولة (هو الذي يحمي الدولة من كل ثائر عليها) .

(٤) استخذل النصر : فقد جرأته (بدأ المسلمون بالانهزام في حرب بابك الخرمي في جبال البذ في خراسان) . اكتسى (لبس) أهابي (جمع اهباء ، بكسر الهمزة : غبار) تسفي (تثور ، تهب) في وجوه التجارب (تمنع الحكيم المجرب من رؤية وجه الصواب) . — لما خان الحظ الافشين ولم تنفعه شهرته الماضية وتجاربه الكثيرة في الحروب في احراز النصر .

(٥) تجللته بالرأي (الخطاب لأبي دلف الممدوح في هذه القصيدة) : علوته بالرأي ، بصرته —

بأرشقَ . اذ سالت عليهم غَمـامةٌ جرت بالعوالي والعِتاق الشوازب[1].

سللت لهم سيفين : رأياً ومُنصُلاً ؛ وكلّ كنجمٍ في الدُجُنّة ثاقب[2].

وكنت ، متى تُهززْ لخطبٍ تُغشّه ضرائبَ أمضى من رِقاق المضارب[3].

فذكرُكَ في قلب الخليفة . بعدها . خليفتُك المُقفى بأعلى المراتب[4] :

فانْ تُنْسَ يذكَر . أو يقلْ فيك حاسد يُغَلْ قولُه ، أو تنأ دارٌ يُصاقب[5] ؛

فأنت لديه حاضر ، غيرَ حاضر . بذكر ؛ وعنه غائب ، غير غائب[6].

اليك أرَحْنا عازبَ الشعر ، بعدما تمهّل في روض المعاني العجائب[7].

به ، دلته على الخطة الصحيحة للتغلب على بابك الخرمي . حتى أريته به (بذلك الرأي) ملء عينيه (بكل وضوح ، حتى أقنعته) . مكان العواقب (نتيجة استمرار الانهزام وأنها ستكون سيئة ، لا على الافشين وعلى جيشه فقط ، بل على العرب والاسلام أيضاً) .

يحسن أن نعلم هنا أن الافشين كان متهماً بممالئة بابك الخرمي ، وأن الخليفة المعتصم أدرك ذلك فأرسل أبا دلف العجلي في جيش كبير لنجدة الافشين في الظاهر ولمراقبة الافشين ولمنعه من الممالئة مع بابك الخرمي في الحقيقة .

(١) أرشق : حصن للمسلمين في موقان (كورة في أرمينية) . اذ سالت عليهم غمامة : لما قام بابك الخرمي بهجوم على الحامية الاسلاميةفكاد يبيدها . العوالي . الرماح . العتاق : الخيل الاصلية . الشوزب : الضامر .

(٢) سللت له سيفين رأيا ومنصلا (أعنته برأيك وبسيفك) . الدجنة : الظلام . ثاقب : يثقب ، يخترق . النجم الثاقب : النجم الشديد اللمعان الذي يضيء ما حوله .

(٣) تهزز لخطب : تسأل رأيك في أمر مشكل أو عظيم . تغشيه : تلبسه ، تبدي فيه (رأيا) . ضرائب جمع ضريبة : خليقة ، طبيعة ، رأي . أمضى : أشد قطعاً ، أصح رأياً . رقاق المضارب : السيوف الماضية (القاطعة) .

(٤) بعدها : بعد هذه المعركة . خليفتك المقفى : يقوم مقامك أو مقام حضورك في مجالس الخليفة المعتصم . المقفى : المخصوص بالتقرب والتفضيل .

(٥) فان تنس يذكر : اذا نسيك أحد ذكرك الخليفة المعتصم . يغل قوله : يبطل قوله ، لا يقبل فيك رأيه . أو تنأ دار يصاقب : واذا اتفق أن كنت بعيداً عنه (تقوم له بمهمة أو تحارب في معركة) فانه يصاقب (يقترب منك بذكره لك ومدحه اياك والاحسان اليك) .

(٦) فأنت دائماً حاضر عنده بذكرك وان كنت غائباً عن مجلسه بجسمك (غير منصوبةعلى الحال) . وكثيراً ما تكون غائباً عن مجلسه بجسمك ولكنك حاضر في قلبه بذكره إياك .

(٧) أراح الراعي الغنم : ردها في المساء الى المبيت بعد أن رعت طول النهار . عازب الشعر :

غرائبُ لاقت في فِنائك أُنسَها — من المجد، فهي الآنَ غيرُ غرائبِ [1].

ولو كان يفنى الشعرُ أفناه ما قَرَتْ — حِياضُكَ منه في العصور الذواهبِ [2].

ولكنه صَوْبُ العقول ؛ اذا انجلت — سَحائبُ منه أُعقِبَتْ بسحائبِ [3].

اقول لاصحابي : « هو القاسمُ الذي — به شرَحَ الجودُ التباسَ المذاهبِ » [4].

واني لأرجو ، عاجلاً ، ان تَرُدَّني — مواهبُه بحراً تُرَجّى مواهبي [5].

= الشعر البعيد عن مألوف الشعراء الآخرين . تمهل في روض المعاني العجائب : بقي مدة طويلة في حدائق الأدب تنتقي له المعاني الغريبة الجميلة (يقول الشاعر للممدوح : مدحتك بشعر قد تأنقت فيه وصرفت في انتقاء معانيه وقتاً طويلا) .

(١) كانت هذه المعاني غريبة لم يفهمها الناس ، فلما وصلت اليك وجدت عندك مجداً غريباً أيضاً (لم يألفه الناس من قبل) فأنست معاني الغريبة بمجدك الغريب فهي الآن عندك غير غريبة .

(٢) قرى : جمع . الحياض جمع حوض : حفرة في الأرض يجمع فيها الماء (شبه الشاعر ممدوحه بالحوض وشبه الشعر الذي مدح به الممدوح وقومه بالماء ثم قال) : لو كان الشعر ماء (شيئاً محدوداً) لفني (لنفد من جميع الأرض) لكثرة ما اجتمع منه في حياضك (لكثرة مدحت أنت وقومك من قبل بالشعر) .

(٣) الصوب : انصباب (انهمار) المطر من السماء . انجلت : انكشفت ، ذهبت . أعقبت بسحائب : خلفتها (جاءت بعدها بلا نهاية) سحب جديدة . — الشعر نبع يجري من العقول ، فكلما صدرت منه سحائب (سلاسل من المعاني) تبعتها سحائب جديدة ، بلا نهاية .

(٤) القاسم اسم ابي دلف العجلي . — للناس الأجواد مذاهب (طرق) مختلفة ومتناقضة أحياناً في بذل المال . .وأبو دلف يبذل ماله في جميع الوجوه وبطرق مختلفة ، حتى لكأنّ مذهبه في الجود يفسر جميع المذاهب الاخرى ويوفق بين طرقها المختلفة .

(٥) اني آمل أن يعطيني أبو دلف (على شعري هذا) ، في وقت قريب جداً ، عطاء كثيراً يجعلني غنياً جداً مما يجعل الناس يأتون الي ويرجون مني أن أعطيهم عطايا كثيرة .

فتح عمورية

خرج توفيل (ثيوفيلوس) امبراطور الروم الى زِبَطْرَة، وهي بلدة وُلد فيها المعتصم، وقيل: بل ولدت أمه فيها، وسبى من أهلها وارتكب فظائعَ هائلةً على ما يخبرنا المؤرّخون. ورووْا ان امرأة هاشمية صرخت، لمّا وقعت في السبي: وامعتصماه! فلمّا اتصل خبر ذلك كلهِ بالمعتصم تجهّز أعظم جهاز وقصد عين عيون مدن الروم، عمورية (منشأ الاسرة الرومية المالكة) الاسرة العمورية[1] التي ينتسب اليها توفيل، في ٦ رمضان ٢٢٣ (صيف ٧٣٨ م)؛ فتركها قاعاً صفصفا. وكان أبو تمّام مع المعتصم، فلمّا عاد المعتصم الى عاصمته سامرّا، سنة ٢٢٤[2] أنشده أبو تمّام هذه القصيدة:

السيفُ اصدقُ إنباءً من الكتبِ؛ في حَدّهِ الحدّ بين الجِد واللّعبِ[3].
بيضُ الصفائحِ، لا سودالصحائفِ في متونهنّ جلاءُ الشكّ والريَبِ[4].

---

(1) Amorian Dynasty.

(٢) راجع الفخري ١٧١.

(٣) في حد السيف (الحرب) فاصل بين الرصانة والهزل (الحق والباطل): كان المنجمون في البلاط الرومي قد ذكروا للامبراطور أن العرب لن يستطيعوا فتح عمورية قبل نضج التين والعنب، على ما تقول النجوم.

(٤) الحديد المصقول (السيوف: الحرب، القتال) لا الصفحات السود (المكتوبة بالحبر الأسود: الرسائل) تزيل الشك من النفوس في انتصار العرب.

والعِلْمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً ... بين الخَميسَيْن ، لا في السبعةِ الشُهُبِ [1]

اين الروايةُ ، بل اين النجومُ ، وما ... صاغوه من زُخْرُفٍ فيها ومن كَذِبِ

تَخَرُّصاً ، واحاديثاً مُلَفَّقَةً ، ... ليست بنَبْعٍ اذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ [2]

عجائباً ، زعموا الأيامَ مُجفِلةً ... عنهن ، في صفر الاصفار او رجب

وخوّفوا الناسَ من دَهْياءَ مظلمة ... اذا بدا الكوكبُ الغربيّ ذو الذَنَبِ [3]

وصيّروا الأبرجَ العُلْيا مرتبةً ... ما كان مُنقلبا أو غيرَ منقلب

يقضون بالأمر عنها ، وهْيَ غافلةٌ : ... ما دار في فلَكٍ منها وفي قُطُب

لو بيّنت قطُّ امراً قبل موقِعهِ ... لم تُخْفِ ما حلَّ بالأوثانِ والصُلُبِ

فتحُ الفُتوحِ ، تعالى ان يُحيطَ به ... نظمٌ من الشعر او نثرٌ من الخُطَبِ

فتحٌ تَفَتَّحُ ابوابُ السماءِ له ، ... وتبرُزُ الأرضُ في اثوابها القُشُبِ

يا يومَ وقعةِ عَمّوريّةَ انصرفت ... منكَ المُنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ [4]

أبقَيْتَ جَدَّ بني الاسلامِ في صُعُدٍ ، ... والمشركين ودار الشِركِ في صَبَبِ [5]

---

(١) المعرفة بانتصار أحد الجيشين على الآخر تأتي من العلم باستعمال الرماح (بالحرب) اذا التقى الخميسان (الجيشان) لا من العلم المزعوم بحركات الشهب السبعة (الكواكب السبعة السيارة) ، أي من فن التنجيم الخرافي .

(٢) التخرص : الكذب . النبع : شجر تصنع من أغصانه الرماح . والغرب : شجر آخر . ان الذي زعمه منجمو الروم لا أصل له ولا يعتمد عليه (لا هو خشب تصنع منه الرماح ولا خشب يستعمل لأمور أخرى) .

(٣) دهياء : مصيبة . الكوكب الغربي ذو الذنب . قال ابن الاثير (٦ : ١٩٤) : وفيها (في سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) ظهر عن يسار القبلة كوكب له شبه الذنب ، وكان طويلا جداً فهال الناس ذلك . هذا الكوكب المذنب المعروف باسم مذنب هالي ، وهو يظهر في سمائنا مرة كل ٧٦ سنة ؛ وكانت آخر مرة ظهر فيها في الخامس من أيار (مايو) من عام ١٩١٠ .

(٤) حفل : حافلة ، مزدحمة ، مملوءة . معسولة الحلب : لبنها حلو الطعم . — رجع الجيش الاسلامي من معركة عمورية منصوراً محققة أمانيه (شبه الأماني بضروع الناقة المملوءة باللبن الحلو الطعم) .

(٥) دار الشرك : القسطنطينية (عاصمة الامبراطورية الرومية) . في صعد : في ارتفاع (سرور) . في صبب : في انحدار (حزن) .

أمٌّ لهم، لو رَجَوا ان تُفتدى جعلوا فِداءها كلّ أمٍّ برّةٍ وأب.
وبَرْزَةُ الوجهِ قد أعيَتْ رياضتُها كِسرى، وصدّت صُدوداً عن أبي كرِبِ[1]
من عهدِ إسكندرٍ، او قبلَ ذلك؛ قد شابت نَواصي الليالي، وَهْيَ لم تَشِب.
بِكْرٌ فما افترَعتْها كفّ حادثةٍ؛ ولا تَرَقّتْ اليها هِمّةُ النُّوَبِ[2].
حتى اذا مخّضَ اللهُ السنينَ لها مخضَ البخيلة، كانت زُبدةَ الحِقَبِ[3].
أتتهُمُ الكُرْبةُ السوداءُ سادرةً منها، وكان اسمُها فرّاجةَ الكُرَبِ[4].
جرى لها الفألُ بَرْحاً يوم أنقرةٍ اذ غودرتْ وَحْشةَ الساحاتِ والرِّحَبِ[5].
لما رأت اختها بالأمس قد خرِبتْ كان الخرابُ لها اعدى من الجَرَبِ.

---

(١) البرزة: المرأة الجليلة تبرز للناس تحادثهم. شبه عمورية بالمرأة البرزة التي لم يستطع كسرى (يقصد: ملوك الفرس) ولا أبو كرب (بن حسان ملك اليمن؛ يقصد: ملوك اليمن) على كثرة حروب الفرس واليمن وانتصارهم، أن يسيطروا عليها (وسيطر عليها العرب)— لم يقدر على فتح عمورية لا الفرس ولا اليمن (ولا غيرهم) وفتحها العرب بسهولة.

(٢) بكر: عذراء. افترع الجارية: دخل بها. — ان الاحداث الكبرى لم تستطع أن تؤثر في عمورية؛ والمصائب الشديدة لم تستطع الرقي الى عمورية.

(٣) مخض اللبن: خضه حتى ينفصل الزبد منه. مخض البخيلة: أي بالغت في الخض حتى لم تدع في ماء اللبن شيئاً من الزبدة. كانت زبدة الحقب: اجتمعت فيها (في عمورية) كنوز الدهور (ثم جاء المسلمون فظفروا بتلك الكنوز كلها). والاستعارة في هذا البيت من اختراع أبي تمام.

(٤) سادرة: حائرة. و (سادرة) حال، وصاحب الحال هنا (عمورية) (المعنى: وعمورية حائرة متعجبة كيف استطاع المعتصم أن يفتحها). كان اسمها فراجة الكرب: كان الروم اذا خافوا خطراً من شيء احتموا بها لأنهم كانوا قد أعدوها لمثل ذلك، فجاءهم الآن الخطر منها نفسها.

(٥) الفأل: الأمل الحسن. البرح: الشؤم والنحس. الساحة والرحبة (بكسر الراء وسكون الحاء، أو بفتح الراء والحاء): الأرض الواسعة المسكونة. وحشة الساحات والرحب: خالية، مهجورة. يوم أنقرة: يوم معركة أنقرة وفتحها. غودرت: غادرها أهلها، هجروها، فروا منها. — لما سمع أهل عمورية بتخريب المعتصم لأنقرة أيقنوا أنه سيحل ببلدتهم ما حل بأنقرة فهربوا من بلدتهم.

كم بين حيطانِها من فارسٍ بطلٍ قاني الذوائبِ من آني دَمٍ سَرِبِ ![1]
بسُنّةِ السيفِ والخطّيِّ من دمه ، لا سُنّةِ الدينِ والاسلامِ ، مختضبِ[2].
لقد تركتَ ، اميرَ المؤمنين ، بها للنار يوماً ذليلَ الصخر والخشب[3].
غادرت فيها بهيمَ الليل وهو ضُحى يشله ، وَسْطها ، صُبحٌ من اللهبِ[4].
حتى كأنّ جلابيب الدُجى رغبت عن لونها ، أو كأن الشمسَ لم تغبِ[5].
ضوءٌ من النار ، والظلماءُ عاكفةٌ ؛
وظُلْمةٌ من دُخانٍ ، في ضحى شحبِ[6].
فالشمسُ طالعةٌ من ذا ، وقد أفلت ؛ والشمس واجبةٌ في ذا ، ولم تجبِ[7].
تصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغمامِ لها
عن يومِ هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُبِ[8].

---

(١) قان : شديد الحمرة . آن : حار . سرب : سائل جار . كثر فيها الفوارس القتل من الروم ، وكثرت الدماء حتى بلت ذوائب الفرسان (وكان الفرسان يرخون ذوائبهم) .

(٢) على ان هذا القتل الذريع في الروم لم يكن بالقانون الاسلامي (لاختلاف الدين بين المتحاربين) بل بالقانون الطبيعي : قانون السيف والرمح (لأن الروم اعتدوا على بلد اسلامي) .

(٣) لقد كثرت النار التي أوقدها العرب لاحراق البلد واشتدت تلك النار حتى احترقت الصخور فيها بعد أن احترق الخشب .

(٤) يشله : يطرده . — كان ضوء النار يبدد ظلام الليل في عمورية المحترقة حتى كأن الصبح كان يطلع فيها في ذلك الحين .

(٥) جلابيب جمع جلباب : ثوب . رغب عن الشيء : تركه ، كرهه . — كأن السواد لم يبق لوناً لليل .

(٦) عاكفه : نازله ، دائمة (الوقت ليل). شحب : متغير اللون ، قليل اللون (يخالطه بياض أو صفرة) .

(٧) أفلت : غربت . واجبة : غاربة . — ان اشتعال النار في الليل يوهمنا أن الشمس طالعة ، وان كثرة الدخان في النهار توهمنا أن الشمس غائبة .

(٨) بوغتت عمورية بالخراب ، كما ينشق الغيم عن صفحة السماء (فجأة) . يوم هيجاء : حرب . طاهر لأن المسلمين خرجوا غازين في سبيل الله ، فالقتال في عمورية كان حلالا لأنه رد على اعتداء الروم عليهم . جنب : لأن الدم سال فيه . والشراح يفسرون « جنباً » على الحقيقة فيقولون : ان المسلمين أسروا نساء وتغشوهن .

- لم تطلعِ الشمسُ فيه يومَ ذاك على بانٍ بأهلٍ، ولم تغربْ على عَزَبِ [1].
- ما ربعُ ميّةَ، معموراً يُطيفُ به غَيْلانُ، أبهى رُبى من ربعها الخَرِبِ [2].
- ولا الخدودُ وقد أُدمينَ، من خجلٍ، أشهى إلى ناظري من خدِّها التَّرِبِ.
- سماجةٌ غَنِيَتْ منا العيونُ بها، عن كلِّ حُسنٍ بدا أو منظرٍ عَجَبِ.
- وحُسنُ مُنْقَلَبٍ تبدو عواقبه جاءت بَشاشَتُهُ من سوءِ منقلبِ [3].
- لو يعلمُ الكفرُ كم من أعصرٍ كَمَنَتْ له المنيةُ بين السُّمْرِ والقُضُبِ [4].
- تدبيرُ مُعْتَصِمٍ باللهِ، منتقمٍ للهِ، مرتقبٍ في اللهِ، مرتغبِ [5].
- ومُطعَمُ النصرِ لم تَكْهَمْ أسنَّتُه يوماً، ولا حُجِبت عن رُوحِ مُحتجبِ [6].
- لم يغزُ قوماً، ولم ينهض إلى بلدٍ، إلا تقدمه جيشٌ من الرُّعُبِ [7].

---

(1) بان : متزوج . الأهل : الزوجة . العزب : من لم يتزوج بعد . — لما دخل المسلمون المعركة (مع طلوع الشمس) لم يكن فيهم أحد متزوجاً، ولما انتهوا من المعركة (قبل غروب الشمس) لم يكن قد بقي أحد منهم بلا زوجة (كناية عن كثرة السبي من النساء خاصة).

(2) غيلان بن عقبة الشاعر المعروف بذي الرمة شغف بمية بنت طلبة وظل يهيم في ديارها أملا في رؤيتها عشرين سنة . — ما كان منزل مية، ومية فيه، أحب الى غيلان من عمورية الخربة (بعد تلك الحرب) في نظر المسلمين .

(3) كانت نتيجة المعركة ظفراً للمسلمين وسروراً لهم، سرور المسلمين جاء من انهزام الروم ونكبتهم .

(4) السمر : الرماح . القضب جميع قضيب : السيف . — ان العرب كانوا قد صبروا طويلا على اعتداءات الروم .

(5) ان الخليفة المعتصم معتصم بالله (متكل في ما يعمل على الله)، منتقم لله (قد غزا الروم لأنهم نكثوا عهد الله بالسلام)، مرتقب في الله (يعمل كل ما يعمل وهو حريص على ألا يخالف أوامر الله في شيء)، مرتغب : راغب (في هذه الحرب) في ما يرضي الله وفي ما يقربه الى الله .

(6) النصل السيف . كهم : كل فلم يقطع . — قاتل بسيفه كثيراً وقتل كثيرين، ولم يكل سيفه ولا استطاع أحد أن يستتر عنه فلا يقتل .

(7) يدخل الرعب من المعتصم على الاعداء قبل أن يصل المعتصم اليهم . في هذا البيت نظر الى الحديث الشريف : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد ... ونصرت بالرعب مسيرة شهر (أو ما معناه) .

لولم يقُدْ جحفلاً يوم الوَغَى ؛ لغدا — من نفسه وحدَها — في جحفلٍ لَجِبِ [1].

رمى بك الله بُرجَيْها فهدّمها ؛ ولو رمى بك غيرُ الله لم تُصبِ [2].

من بعدَ ما اشّبوها ، واثقين بها ؛ والله فتّاحُ باب المَعْقِلِ الأشِبِ [3].

وقال ذو امرهم : « لا مرتعٌ صدَدٌ للسارحين ، وليس الوِردُ مِن كَثَبِ [4].

امانيا سلبَتهم نُجْحَ هاجِسِها ظُبَى السيوفِ واطرافُ القَنا السُلُبِ [5].

ان الحِمامين : من بيض ومن سمر دَلْوا الحياتين : من ماء ومن عُشُبِ [6].

لبّيت صوتاً زِبَطْرِياً هَرَقتَ له كأسَ الكرى ورِضابَ الخُرّدِ العُرُبِ [7].

عداك حرّ الثغور المُستضامةِ عن بَرْدِ الثغور، وعن سَلسالِها الحَصِبِ [8].

---

(١) الجحفل : الجيش العظيم . اللجب : الصخب الكثير الأصوات (لكثرة الرجال والخيل فيه) .

(٢) ان الله سخرك لتهديمها فاستطعت تهديمها ، ولو أنك أردت من غزو عمورية عرضاً من أعراض الدنيا أو انتقاماً من عند نفسك لما استطعت ذلك ؛ راجع الآية الكريمة : « وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى (٨ : ١٧ سورة الانفال) .

(٣) أشب البلد : بالغ في تحصينها . واثقين بها : مطمئنين الى أنها لا تفتح . وهذا صحيح ، ولكن في هذه المرة لم يفتحها انسان مثلهم ولكن الله هو الذي أراد فتحها على يد المعتصم .

(٤) ذو أمرهم : رئيسهم . لا مرتع صدد : لا عشب قريب (لخيلهم) . وليس الورد (استقاء الماء) من كثب (في مكان قريب) .

(٥) الهاجس : الفكر الذي يدور في النفس . الظبى جمع ظبة (بضم الظاء وفتح الباء) : حد السيف . طرف القناة : نصل الرمح . السلب جمع سلب (بفتح السين وكسر اللام) : الطويل ، أو جمع سلوب : يسلب الناس أموالهم وأرواحهم . — ان ظفر المسلمين في القتال أفسد على الروم آمالهم وأمانيهم .

(٦) ان الحمامين (الموتين ، القاتلين) من بيض (سيوف) ومن سمر (رماح) هما الدلوان (الوسيلتان) للحياتين (سببا الحياة) من الماء والعشب .

(٧) لبيت صوتاً زبطرياً (راجع مقدمة القصيدة) . هرق : سكب (تخل عن) . الكرى : النوم . الرضاب : الريق . الخرد : جمع خريدة : المرأة الجميلة . العرب جمع عريب (بفتح العين) : المرأة المتحببة الى زوجها . — تركت راحتك ونعيمك في سبيل نصرة المظلومين .

(٨) عداك : تعدى بك ، تجاوزت ، تركت . الثغور الاولى : البلدان التي يخشى منها مجيء العدو ؛ حر الثغور: الحرب . المستضامة: المهضومة الحق ، المظلومة . الثغور الثانية —

اجبتَه مُعلناً بالسيف ، مُنْصلتاً ، ولو اجبْتَ بغيرِ السيفِ لم تُجِب

حتى تركتَ عَمود الشرك منقعِراً ، ولم تعرّج على الأوتاد والطُنُب

لما رأى الحربَ رأيَ العينِ تُوفِلِس ، والحرب مشتقةُ المعنى من الحَرَب

غدا يصرِّفُ بالأموالِ جِريتها ؛ فعزّه البحرُ ذو التيار والحَدَب

هيهاتِ ! زُعزعتِ الأرضُ الوَقورُ به عن غزو مُحتسب لا غزوِ مكتسب

لم يُنفقِ الذهبَ المُربي بكثرته على الحصى ، وبه فقرٌ الى الذهب

ان الاسودَ ، اسودَ الغاب ، همتُها يومَ الكريهة في المسلوب لا السَلَب

ولى وقد ألجَمَ الخَطِّيُّ مَنطِقَهُ بسكتةٍ خلفها الاحشاءُ في صَخَب

— جمع ثغر الذي هو فم الانسان . برد الثغور : ريق الثغور البارد (كناية عن النعيم مع النساء) . السلسال الحصب : الماء الصافي الذي يكون في المجاري الصخرية التي يكثر فيها . الحصى (كناية أيضاً عن اللهو مع النساء) .

(١) منصلتا : مجردا من غمده (للقتال) . لو لم تحارب لما أخذت بحق أهل زبطرة .

(٢) عمود الشرك : قاعدة الروم في آسية الصغرى (عمورية) . — منقعر : متهدم . لم تعرج : لم تمل الى (لم تحفل) . الاوتاد والطنب : قطع صغيرة من الخشب تشد بها أطراف الخيمة الى الأرض (كناية عن القرى التي كانت حول عمورية).

(٣) الحرب (بفتح الحاء والراء) : السلب .

(٤) جريتها : مجراها (مجرى الحرب) يطلب الصلح . عزه : غلبه . البحر (كناية عن جيش العرب الكبير) . ذو التيار : المتدافع المتوالي . الحدب : ذو الأمواج العالية (كان هجوم العرب وانتصارهم سريعين جداً حتى أنهما لم يتركا مجالا أمام ثيوفيلوس يطلب فيه الصلح) . ذكر فنالي (ص ١٤٧) أن ثيوفيلوس عرض على المعتصم ٢٤٠٠ ليبرة من الذهب (نحو ١١٠٠ كيلو) .

(٥) هيهات : ما أبعد ذلك ! زعزعت الارض الوقور به : ان الارض الثقيلة الثابتة قد ارتجت بعنف تحت أقدام ثيوفيلوس لأن غزو المعتصم لبلاد الروم كان احتساباً في سبيل الله لا تكسباً للمال .

(٦) لو كان محتاجاً الى المال لما أنفق في سبيل هذه الغزوة مالا أكثر عدداً من حجارة بلاد الروم .

(٧) ان أسود الحرب (الابطال الحقيقيين) يقصدون قتل الابطال من أعدائهم لا سبي المتاع .

(٨) ولى : هرب . ألجم الخطي منطقه : أصبحت الرماح لجاماً في فمه (منعته الهزيمة من الحق في الكلام) . تحتها الاحشاء في صخب : كان قلبه مضطرباً بكلام يريد أن يقوله فلا يستطيع

أحذى قرابينه صرفُ الردى ومضى ... يَحتثُّ أنجى مطاياه من الهرب [1] ؛

موكّلاً بيَفاعِ الأرض يُشرفُه ... من خِفّةِ الخوف لا من خفة الطرب [2] .

ان يَعْدُ من حرها عَدْوَ الظليم فقد ... اوسعت جاحمها من كثرة الحطب [3] .

تسعون ألفاً كآسادِ الشّرى نَضِجت ... جلودهم قبل نُضْج التين والعنب [4] .

يا رُبَّ حوباءَ لما اجتُثَّ دابرُهم ... طابت ، ولو ضُمّخت بالمسك لم تَطِب [5] .

ومُغضَبٍ رجَعت بيضُ السيوفِ به ... حيَّ الرضى من رداهم ميّتَ الغضب [6] .

والحرب قائمة في مأزِقٍ لَجِجٍ ... تجثو الكُماةُ به ، صُعراً ، على الرُّكب [7] .

كم نيلَ ، تحت سناها ، من سنى قمر ، ... وتحت عارضها ، من عارضٍ شَنِب [8] .

---

(١) ترك خاصته الابطال المقربين اليه للموت ثم ركب أسرع خيوله ليهرب عليه .

(٢) موكلا بيفاع الارض : كأنه وكيل على يفاع (مرتفعات) الارض يقفز من واحد الى واحد منها (في أثناء هربه) ، ثم يشرفه (يعلو على اليفاع = المرتفع من الارض) ليرى هل يتبعه أحد . ان الخوف قد جعله سريعاً في ركضه لا الفرح والمرح .

(٣) عدا يعدو عدواً : ركض يركض ركضاً . الظليم : ذكر النعام (وهو معروف بسرعة الجري) ان ثيوفيلوس معذور في هربه من ميدان المعركة بهذه السرعة لأنك أكثرت (ايها الخليفة المعتصم) النار فيها (أثرت عليه حرباً شديدة لا قبل له باحتمالها) .

(٤) تسعون ألفاً من الروم كأسود الشرى (الجبال) المعروفة بيأسها . نضجت جلودهم : ماتوا حرقاً في عمورية . راجع قوله تعالى « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ... » قبل نضج التين والعنب : قبل الصيف (الوقت الذي حدده منجمو امبرطور الروم وكهنته لامكان فتح عمورية) . عظم أبو تمام شأن الروم حتى يبين مدى شجاعة العرب . وقد ذكر فنلاي (ص ١٤٧) أن القتل الروم كانوا ثلاثين ألفاً سوى الاسرى .

(٥) الحوباء : النفس . لما اجتث دابرهم : لما قتل المحاربون الروم عن بكرة أبيهم . طابت : سرت . ضمخت بالطيب : طليت بمادة زكية الرائحة . — كم من نفس قد سر صاحبها بهلاك هؤلاء الاعداء من الروم أكثر مما كانت تسر لو أن صاحبها دهن نفسه بالطيب .

(٦) غضب المعتصم لما بلغت اليه استغاثة الهاشمية وما نال المسلمين في زبطرة (راجع مقدمة القصيدة) ، فلما قتل أولئك المعتدين عاد اليه رضاه وذهب غضبه .

(٧) مأزق لجج : مكان ضيق (بمساحته وبازدحام المتقاتلين فيه) . جثا : ركع (على ركبتيه) صعرا : مائلين بأجسامهم الى الامام (من شدة القتال) . الكماة جمع كمي : البطل .

(٨) سناها : سنى الحرب (نيرانها) . سنى قمر : جمال امرأة (امرأة جميلة) . عارضها : عارض =

كم كان، في قطع اسباب الرقاب بها، ... الى المخدرة العذراء من سبب [١]

كم احرزت قضبُ الهنديّ، مُصلتةً ... تهتزّ، من قُضُبٍ تهتزّ في كُثُبِ

بيض اذا انتُضيت من حُجبها رجعت ... احق بالبيض، ابدانا، من الحجب .

* * *

خليفةَ الله، جازى اللهُ سعيَك عن ... جُرثومهِ الدين والاسلام والحَسَبِ [٤] .

بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنالُ إلاّ على جسر من التعب .

ان كان بين صُروف الدهر من رَحِمٍ ... موصولة، او ذِمام غير منقَضِبِ [٥] .

= الحرب (اشتدادها . شبه اشتداد الحرب بالعارض من المطر المتلاحق) . عارض شنب : ناب أو ضرس بارد الريق (كناية عن المرأة الجميلة) . — أسر العرب في تلك الحرب عدد كبيراً من الروميات الجميلات .

(١) أسباب الرقاب : عروق الرقبة . المخدرة العذراء : المرأة المصونة البكر . سبب : وسيلة . لم يكن الوصول الى تلك النساء الروميات ممكناً الا بقتل الابطال اليونانيين الذين اعتدوا على زبطرة التي كانت في حكم العرب .

(٢) القضب جمع قضيب : السيف الرقيق . الهندي : صنع الهند . مصلتة : مجردة من اغمادها . تهتز : يلوح بها المجاهدون العرب . قضب هنا جمع قضيب : الغصن المستقيم من الشجر (كناية عن المرأة ذات القوام الطويل الجميل) . تهتز : تتمايل من الجمال والدلال . الكثب جمع كثيب وهو الرمل الملتف (كناية عن المرأة الفخمة الجسم) . — سبت سيوف العرب نساء جميلات (من الروم) .

(٣) بيض الاولى جمع أبيض : سيف . حجبها الاولى جمع حجاب : غمد السيف . انتضيت (السيوف) : سلت (أخرجت من أغمادها) . البيض الثانية بيضاء جمع : المرأة الجميلة . الحجب الثانية جمع حجاب : ستر المرأة (بيتها) . — ان السيوف التي انتصرت في موقعة عمورية أصبحت أحق بالنساء الروميات من بيوت الروميات (أصبح العرب أحق بنساء الروم من الروم أنفسهم) .

(٤) الجرثومة الاصل . الحسب : العمل الجميل الكريم .

(٥) صروف الدهر : أحداثه الكبرى . رحم : قرابة . ذمام : عهد . منقضب : منقطع .

فبين أيامك اللاتي نُصرتَ بها   وبين ايام بدرٍ اقربُ النسب

أبقتْ بني الاصفرِ المُصْفَرَّ كاسمِهِمُ   صُفْرَ الوجوهِ ، وجلتْ أوجهَ العرب

(١) أيامك اللاتي نصرت بها (معركة عمورية) . بدر : معركة بدر (رمضان سنة ٢هـ = ٦٢٤م) أول معارك الاسلام ضد المشركين والتي فتحت باب النصر أمـــام المسلمين .

(٢) بنو الاصفر : الروم . المصفر : المعتل ، المريض . كاسمهم : كاسم أبيهم ، كأبيهم . صفر الوجوه : معتلين (مرضى على الحقيقة) مثل أبيهم الذي اكتسب اسمه من لون وجهه . جلت : بيضت ، كرمت . – هذه الموقعة (موقعة عمورية) جعلت أوجه الروم تصفر (تسود) وأوجه العرب تبيض . هذا البيت معقد وقاصر في التعبير قليلا ، ويمكن أن يقرأ هكذا :

أبقت بني الاصفر المصفر ، كاسمهم   صفر الوجوه ، وجلت أوجه العرب .

ثم ان كلمة «أوجه» يمكن أن تكون منصوبة بالفعل «جلت» (وفاعل الفعل ضمير مستتر يرجع الى معركة عمورية) ، ويمكن أن تكون مرفوعة على الاستئناف : جلت أوجه العرب !

المصادر والمراجـــع

أبو تمّام ، تأليف جميل سلطان ، دمشق ١٩٥٠ .

أبو تمّام الطائي : حياته وحياة شعره ، تأليف نجيب محمد البهبيتي ، القاهرة ١٩٤٥ .

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدّسي ، ليدن ١٨٧٧ م .

أخبار أبي تمّام للصولي ، نشره وحقّقه وعلّق عليه خليل محمود عساكر ، محمد عبده عزّام ونظير الاسلام الهندي ، القاهرة ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٧م .

أخبار البحتري للصولي ، حققها وعلّق عليها صالح الاشتر (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) ، دمشق ١٩٥٨ .

الأدب العربي في آثار الدارسين ، اشرفت على اخراجه هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، بيروت ١٩٦١ .

الأدب في ظل التشيّع ، تأليف عبدالله نعمة ، صيداء ١٣٧٢ هـ – ١٩٥٣ م .

أسرار البلاغة لابي بكر عبدالقادر الجرجاني (تحقيق هـ . ريتّر) ، استانبول ١٩٥٤ .

الاسود = شرح ابي تمام بشرح ملحم الاسود .

أعيان الشيعة (الجزء ١٩ : أبو تمّام) ، تأليف محسن الأمـــين ، دمشق

(١) طال الزمن على هذه الدراسة في التنقيح والاعداد للطبع . ويبدو انني في بعض الأحيان قد رجعت الى مصدر في طبعتين مختلفتين . ولقد اشرت الى ذلك في مواضعه . ولكن يمكن ان أكون قد سهوت عن مثل هذه الاشارة عدداً من المرات .

١٣٦٥ هـ ــ ١٩٤٦ م
الاغاني (بولاق)
أمراء دمشق في الاسلام لصلاح الدين الصفدي . تحقيق صلاح الدين المنجد ، (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) ، دمشق ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م .
أمراء الشعر العربي ، تأليف أنيس المقدسي ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٣٦م
بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام ، شرح ملحم الاسود ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٣٨ .

ت = ديوان ابي تمام بشرح التبريزي .

تاج العروس
تاريخ آداب اللغة العربية ، تأليف جرجي زيدان ، طبعة جديدة ، القاهرة ١٩٥٧ .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادي
تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ليدن) .
تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، تأليف أبي الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الازدي المعروف بأبن الفرضي ، مصر ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٤ م .
تاريخ الكامل لابن الاثير ، مصر ، المطبعة الازهرية ، ١٣٠١ هـ .
التحف والهدايا لأبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين ، مصر ١٩٥٦ م .
تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر .
حركة التأليف عند العرب ، تأليف الدكتور أمجد الطرابلسي ، الجزء الأول ، دمشق ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م .
خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي ، مصر ١٣٤٧ هـ .
دراسة في حماسة ابي تمّام ، تأليف علي النجدي ناصف ، القاهرة ١٩٥٥ م.
دراسات فنّية في الأدب العربي ، تأليف الدكتور عبدالكريم اليـافي ، دمشق ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٣ م .

ديوان أبي نواس ، المطبعة العمومية بمصر ١٨٩٨ م .
ديوان أبي تمّام ، بيروت المطبعة الأدبية ١٨٨٩ م .
ديوان أبي تمّام ، بيروت (شرح محيي الدين الخيّاط) ١٣٢٣ ه .
ديوان أبي تمّام (نشره أحمد عثمان عبدالمجيد) القاهرة ١٩٤١ .
ديوان أبي تمام (مطبعة صبيح) القاهرة ١٩٤٢ م .
ديوان أبي تمام (مطبعة حجازي) القاهرة ١٩٤٢ م .
ديوان الرصافي ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٣٧٣ ه — ١٩٥٣ م .
ديوان علي بن الجهم (عنى بتحقيقه خليل مردم) ، نشره المجمع العلمي العربي بدمشق ، دمشق ١٩٤٩ .
ديوان مسلم بن الوليد الشهير بصريع الغواني (استخرجه دهخويه ، ليدن ١٨٧٥ م .
ديوان المعاني لابي هلال العسكري ، القاهرة ١٩٥٢
ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي (تحقيق محمد عبده عزّام) ، ظهر منه ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٥١ م — ١٩٥٧ م .
الرثاء بين ابي تمام والبحتري والمتنبي ، تأليف أدبية فارس ، الاسكندرية ١٩٣٢ م .
الزهرة — النصف الأول من كتاب الزهرة ، تأليف أبي بكر محمد بن أبي سليمان الاصفهاني ، اعتنى بنشره لأول مرة لويس نيكل البوهيمي وابراهيم طوقان ، ببيروت ١٩٣٢ م — ١٣٥١ ه .
س = ديوان ابي تمام شرح ملحم الاسود .
سر الفصاحة ، تأليف الأمير أبي محمد عبدالله بن سنان الخفاجي الحلبي .
سرح العيون لابن نباتة مكتبة صبيح ، القاهرة
شرح ديوان اشعار الحماسة التي اختارها من أشعار العرب أبو تمّام ، بولاق ١٢٩٦ ه .
شرح ديوان الحماسة ، بون ١٨٢٢ .

شرح ديوان الحماسة (لأبي تمام . والشرح) لأبي عليّ أحمد بن محمد المرزوقي (نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون) القاهرة ١٩٥١ — ١٩٥٣ م .

شعراء الشام في القرن الثالث . تأليف خليل مردم . دمشق ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م .

شعراء النصرانية بعد الاسلام ، تأليف الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩٢٤ — ١٩٢٧ م .

الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، تأليف أحمد عبدالستّار الجواري ، بيروت ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، تأليف يوسف البديعي ، دمشق ١٣٥٠ هـ .

الصناعتين : كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، الاستانة ١٣١٩ هـ .

عبقرية أبي تمّام ، تأليف عبدالعزيز سيد الاهل ، بيروت ١٩٥٣ م .

العمدة في صناعة الشعر ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، مصر ، مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لمحمد بن علي بن طباطبا (ابن الطقطقى) ، مصر : المطبعة الرحمانية .

الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، تأليف الدكتور شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٦ م .

فنلاي = Finlay .

الفهرست لمحمد بن اسحق النديم ، ليبزغ ١٨٧١ — ١٨٧٢ م . ومصر (المطبعة الرحمانية) ١٣٤٨ هـ .

القاموس — القاموس المحيط للفيروزابادي ، مصر ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٣٢ هـ — ١٩١٣ م .

قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، لأبي عليّ الحسن بن رشيق الازدي

كنوز الاجداد : تأليف محمد كرد علي (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) . دمشق ١٣٧٠ هـ – ١٩٥٠ م .

الكلام في شعر البحتري وأبي تمّام ، تأليف محمد طاهر الجبلاوي ، القاهرة ١٩٤٨ م .

ليال خمس مع أبي تمّام ، تأليف محمد عبده عزّام ، القاهرة ١٩٤٨ م .

المثل السائر

مجلّة الكليّة (بيروت) المجلّد الخامس ١٩١٤ م – سلسلة مقالات للاستاذ جبر ضومط .

مختارات البارودي (من الشعر العبّاسي) لمحمد سامي البارودي ، بيروت ١٣٢٧ – ١٣٢٩ هـ .

مروج الذهب

معجم الادباء – ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (أو طبقات الادباء) ، لياقوت الحموي ، مصر (الطبعة الأولى) ، مطبعة هندية .

معجم البلدان لياقوت الحموي ، ليبزغ ١٨٨٦ – ١٨٧٣ م ، مصر ١٣٢٤ هـ – ١٩٠٦ م .

مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٠٠ م .

مقدمة لدراسة النقد في الادب العربي . وهي محاضرات ألقاها بدعوة من كليّة المعقول والمنقول في جامعة طهران الاستاذ أنيس المقدسي (منشورات جامعة طهران ، رقم ٤٤٠) ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٥٨ م – ١٣٣٦ فارسي – ١٣٧٣ هـ .

الموازنة بين أبي تمّام والبحتري لأبي القاسم بن بشر الآمدي ، الاستانة ١٢٨٧ .

نزهة الالبّاء في طبقات الأدباء لعبد الرحمن بن محمد الانباري ، مصر ١٢٩٤ .

الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ، القاهرة ١٩٤٣ م .

هبة الايام فيما يتعلّق بأبي تمّام ليوسف البديعي ، القاهرة ١٩٤٥ م .

همزيات أبي تمّام (تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون) ، القـــاهرة ١٩٤٢ م .

الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، الطبعة الأولى (دار احياء الكتب العربية) ، القاهرة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

وفيات الاعيان لابن خلّكان ، بولاق ١٢٩٩ م .

Ahsan at - Taqàsîn ..., par Al - Mudaddisî ... Traduction partielle, annotée par André Miquel (Institut Français de Damas), Damas 1963 .

La critique poétique des arabes , par Dr, Amjad Trabulsi , Damas 1956 .

Encyclopaedia of Islam (New edition) I 153 - 155 .

GAL =Geschichte der arabischen Litteratur , von Carl Brockelmann, Bd. I, Leid en 1943 .

GAL , Suppl . = Supplementband zu GAL I , Leiden 1937 ,

Histoire de la Litterature arabe , par C. Huart , Paris 1902 .

History of the Byzantine Empire , By George Finlay (Everyman's Library) .

JRAS , 1905 , pp. 763 - 782 .

A Literary History of the Arabs , by R. A. Nicholson , London 1930.

فهرست أبجدي لأعلام الاشخاص
مع عدد من أسماء الجماعات

ح – في الحاشية
م – مكرر في المتن أو في الحاشية أو فيهما معاً .

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د – ذ

غ

ف

ق

ك

م

---

(١) شبابة خ ٥٥، اخبار ابي تمام ١٨٨، حاشية ٤ من مروج الذهب ؛ شبانة ت ١ : ٢٨٦ .

دراسات وكتب للمؤلف

دراسات قصيرة		الثمن بالقرش اللبناني
١ ــ الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	٤٠
٢ ــ عمر ابن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ ــ عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤٠
٤ ــ الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	١٠٠
٥ ــ ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠
٦ ــ احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	٦٠
٧ ــ ابن خلدون	(الطبعة الثانية)	٥٠
٨ ــ أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية	(الطبعة الثانية)	٧٥
٩ ــ شعراء البلاط الأموي	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٠ ــ الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١١ ــ اربعة ادباء معاصرون	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٢ ــ خمسة شعراء جاهليون	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٣ ــ بشار بن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ ــ نهج البلاغة	(الطبعة الثانية)	٥٠
١٥ ــ اخوان الصفا	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٦ ــ ابن باجه	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٧ ــ ابن طفيل	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٨ ــ التصوف في الاسلام		٢٠٠
١٩ ــ الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب		١٥٠
٢٠ ــ موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية		١٠٠
٢١ ــ ابو فراس		١٥٠
أبو نواس		١٥٠
العرب والفلسفة اليونانية		٢٥٠
حكيم المعرة (نقل الى الفارسية)	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
وثبة المغرب		٥٠٠
ابو العلاء المعري		٢٠٠

عبقرية العرب في العلم والفلسفة (نقل الى اللغة الانكليزية) ٣٠٠

الاسلام على مفترق الطرق (الطبعة الرابعة) ١٥٠

نحو التعاون العربي ١٠٠

دفاعاً عن العلم (نفد)

دفاعاً عن الوطن ٥٠

الأسرة في الشرع الاسلامي ٤٠٠

1000 -- Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis zum Tode Umars, 1 - 23 d. H. (600 - 644 n. C. Leipzig 1937.

الاسئلة الثلاثة (مشهد شعري تمثيلي للمدارس الابتدائية) ٢٥

باكستان دولة ستعيش (نفد)

التبشير والاستعمار في البلاد العربية وبالاشتراك مع الدكتور مصطفى خالدي) (نقل الى اللغة الروسية) (الطبعة الثالثة) ٣٠٠

الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط ١٥٠

شاعران معاصران : ابراهيم طوقان وابو القاسم الشابي ٣٠٠

العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ٣٠٠

العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ٤٠٠

المنهاج في الادب العربي وتاريخه (للسنة الرابعة الثانوية) ٢٠٠

المنهاج في الادب العربي وتاريخه (للسنة الخامسة الثانوية) ٣٥٠

المنهاج في الادب العربي وتاريخه (للسنة السادسة الثانوية) ٥٠٠

(الكتب الثلاثة الأخيرة موضوعة حسب المنهاج الرسمي اللبناني)

الشابي شاعر الحب والحياة ٢٥٠

القومية الفصحى ٣٠٠

تاريخ الفكر العربي ١٠٠٠

صفحات من حياة الكندي ١٥٠

ابو تمـــام ٣٥٠